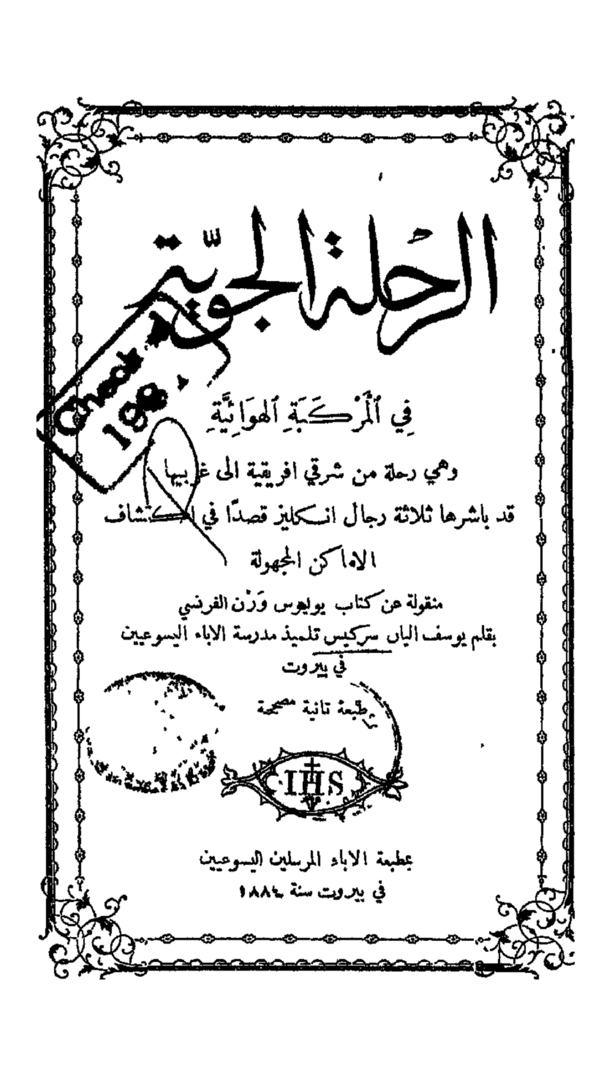




الرحلة الجوية

في المركبة الهوائية

وهي رحلة من شرقي افريقية الى غربيها
قد باشرها ثلاثة رجال انكليز قصدًا في اكتشاف
الاماكن المجهولة

منقولة عن كتاب يوليوس ورن الفرنسي
بقلم يوسف اليان سركيس تلميذ مدرسة الاباء اليسوعيين
في بيروت

طبعة ثانية مصححة

IHS

بمطبعة الاباء المرسلين اليسوعيين
في بيروت سنة ١٨٨٤

في مقصد العلامة فرغوسن ووقوع المناظرة

لما كان اليوم الخامس عشر من شهر كانون الثاني سنة الف وثمانمائة واثنين وستين اذاعت الصحيفة الانكليزية المعروفة باسم دالي تلغراف النبذة الآتي ذكرها

انهُ عن قريب تنجلي للعيان غيوم الظلام التي تستر عن الخاص والعام ما في بطون افريقية واقفارها الشاسعة من الاسرار والخبايا والكنوز والخفايا وقد طالما جدَّ في اكتشافهِ العلماء والسياح وبذلوا وسعهم في الدخول الى تلك الاقاليم والبطاح وفي الايام السالفة كان يُعدّ ضربٌ من الجنون والخرافات التشجع للرحيل بقصد اكتشاف عيون النيل .

فالعلاَّمة برث رحل الى بلاد السودان في الطريق التي سلكها دنهام وكلابرتون وبحث العلاَّمة ليونكستن عن احوال بلاد افريقية من رأس الرجاء الصالح الى بحري الزمبزي واما القبطانان بُرتون واسبيك فاكتشفا البحيرات العظيمة الداخلة وبذلك فتحا سبيلاً لنشر راية التمدن في تلك الاقطار حيث ترفرف الى الان اجنحة ظلام الجهل الدامس . اما قلب افريقية فهو القطر الواقع ما بين البحيرات المومأ اليها وذلك لم يتمكن سائحٌ من الولوج فيهِ وبهِ تنوط الامال

فقد صمم العلامة سامونيل فرغوسن احد السياح الشهيرين على ان

فك عقدة الرحلات السابقة باقدامهِ على اكتشاف قلب افريقية من الشرق الى الغرب في المركبة الهوائية وبلغنا ان صعود فرغوسن الى الفسحات الجوية يكون من جزيرة زنجبار عند الساحل الشرقي اما نزولهُ الى الارض ففي تقدير الله سبحانهُ وتعالى وهو يهديهِ الى حيث يشاء

وقد عُرضت هذه المسألة نهار البارح في الجمعية الجغرافية الملوكية في لندرة وقرّ رأي اعضائها على بذل الفين وخمسمائة ليرة انكليزية لمصاريف هذه الرحلة الجوية

وستطلع قراء صحيفتنا ان شاء المولى على وقائع هذه السفرة التي لم يسبق لها مثيل . اه

فلما انتشرت هذه النبذة قام الجدال على قدم وساق بهذا الخصوص وظنّ الكثيرون ان مقصد العلامة فرغوسن ضرب من الخرافة والحكايات اشبه بهِ برنوم الاميركاني الشهيرة خزعبلاتهُ وغرائبهُ المضحكة

ثم اخذت بعض الصحف تستهزي بجمعية لندرة الجغرافية وتسخر بما جاء عن فرغوسن ورحلتهِ الجوية في المركبة الهوائية فنهضت صحيفة المانية واجبرت المياومات المذكورة على السكوت لان احد مديريها كان يعرف العلامة فرغوسن وحذاقتهُ العجيبة وجراءتهُ الغريبة

وما مضت برهة الّا وقع برقع الشك عن اعين الناس وأوعز الى معمل ليون ان يشتغل قماشًا حريريًا خاصًا بالقبة الهوائية وامرت الحكومة الانكليزية بان تقام تحت امر فرغوسن السفينة المعروفة باسم ريزولوت ليركبها وينقل عليها لوازم سفره

وقد اذاعت من ثم المياومات عدة كلامًا كثيرًا عن هذا المشروع الغريب فنها ما تنبأت على نجاحهِ وفلاحهِ ومنها ما هزأت بفرغوسن وارائهِ ومركبتهِ ومنها

ما اشارت عليهِ ان يندفع بمركبتهِ الهوائية الى الاقطار الاميركانية وذلك بنيـــة الهزء والسخرية

ولا حاجة اذكر جميع اراء كتاب الجرائد بهذا الشـــان بل نقول انهُ قد تشارط اقوام كثيرون بعضهم بين بعض حسب عادة الانكليز اولًا على وجود العلامة فرغوسن الحقيقي او الوهمي . ثانيًا على الرحلة ذاتها اذا كانت تُباشر او لا تُباشر . ثالثًا على نجاحهِ في مشروعهِ او فشلهِ . رابعًا على رجوعهِ او بقـــائهِ في تلك الاقطار الشاسعة واودعوا مبالغ عظيمة تنفيذًا لهذه الشروط

ولذلك رأيت الناس جميعًا من العامة والخاصة شاخصين ومحدقين الابصار بذلك الانسان العجيب الذي يتجـــاسر على المرور باواسط افريقية ومفاوزها الهائلة وكثيرون هم الذين اقبلوا عليهِ وارادوا الاشتراك معهُ في رحلتهِ فابى ان يقبل احدًا دون ان يعطي سببًا عن رفضـــهِ ومن المعلمين الماهرين في صنع الالات وغيرها من ارادوا ان يفهموه عن اشكال مركباتهم الهوائيـــة ليتخذها اسًا لهُ فابى ان يصغى لاحدٍ وكان مهتمًا بشغلهِ ويتأهب للرحيل

الفصل الثاني

في صاحب العلامة فرغوسن وحداله معهُ على الترحال وفي ذلك فوائد

وكان للعلامة ساموئيل فرغوسن صاحب حميم مجبول على اطباعهِ وخلائقهِ وينحو نحوه في جميع مآربهِ وهو من بلاد إسكتسيا يقال لهُ ديك كنادي وكان يقطن مدينة ليط بقرب ايدمبرج ومهنتهُ الصيد وقد جاء عنهُ انهُ كان ماهرًا حاذقًا في ضرب الرصاص وخصوصًا بالسلاح المعروف بالقرَبينة اما قامتهُ فلا تبلغ اقل من ستة اقدام انكليزية وتلوح على وجههِ تباشير الهشاشة والبشاشة وهو على جانب عظيم من حدة الطبع ذو قوة وباس وجرأة وجسارة وبسالة طبيعية وقد اسمرَّ وجههُ من قِبل حرارة الشمس وكان حادّ البصر اسود العينين

وقد كان صاحب العلامة فرغوسن في البلاد الهندية لانهما كانا من فرقة عسكرية واحدة ولما كان ديك في تلك البلاد يصيد الافيال والنمورة وكان ساموئيل يبحث عن انواع النباتات والحشايش واجناس الدواب والهوام كلٌّ منهما كان ماهرًا في حرفتهِ ولم يعرض اصلًا لهذين الصاحبين ان ينشل الواحد الآخر من تهلكة ولذا كانت رباطات صحبتهما وثيقة واذا اتفق لهما ان يتفارقا قد قربتهما وجمعتهما سريعًا جاذبية التعطف والمحبة

وعند رجوعهما الى لندرة كانا يتفارقان دائمًا لداعي رحلات العلامة ساموئيل ولكن عند رجوع هذا من السفر كان يقصد محلّ صاحبهِ ليس ليزورهُ فقط بل ليقضي عنده بعض الايام والليالي

واما ديك فكان لايحدّث الّا عن الماضي وبالعكس ساموئيل فانهُ

لم يكن يتبصر الّا في المستقبل فهذا ينظر الى امامهِ وذاك الى ورائهِ ولهذا السبب كنت ترى ساموئيل خائضاً دائماً بحور الهمة وكنادي راتعاً على سواحل الراحة

وبعد رحلة العلامة فرغوسن الى قطر الطبيعة الشاسع استقرّ سنتين في لندرة ولا يتكلم قطعاً عن رحلة اخرى او مشروع غير ما عاناهُ في حياتهِ فظن صاحبهُ الموما اليهِ انهُ قد خمدت في قلبهِ نار الرغبة في ركوب مطايا البحار وغوص البطاح والقفار لكثرة ما قضاهُ من الاسفار وكثيرا ما حثهُ على الاضراب عن مثل هذه الافكار بقولهِ لهُ : حسبك ما درست وسافرت وبحثت اما ساموئيل فلم يكن يجيبهُ بشيء لهذا الكلام بل كانت تلوح على وجههِ امارات التبحر والتبصر وبهم دائماً في الشغل والعمل ويسهر الليالي في ضرب حسابات وامتحان آلات لا يدركها انسان وكأنك بهِ قد اتبع رأي الشاعر العربي حيث قال

بقدر الكدّ تكتسب المعالي	ومن طلب العلا سهر الليالي
يغوص البحر من طلب اللآلي	ويحظى بالسيادة والنوالِ
ومن طلب العلا من غير كدّ	اضاع العمر في طلب المحالِ

وكان يفكر ديك بنفسهِ بما عساه يتبصر بهِ العلامة فرغوسن وما الذي يشغل منهُ الافكار في الليل والنهار

فقد اطلع على هذا السرّ المخبيء بقراءتهِ نبذة الصحيفة التي اذاعت مقصد العلامة في رحلتهِ الجوية

وعند فروغهِ من تلاوة تلك الاساطير صاح وقال : اللهمّ هل اهملت عبدك ساموئيل فان مخاخهُ قد فرغ من التعقل وتخللهُ الجنون كيف عساهُ يجوز اقطار افريقية في المركبة الهوائية فلا ريب ان ما كان يتبصر بهِ منذ

ستتين هو هذه السفرة التي لا يتصورها عقل بشر الّا اذا كان مصاباً بداء البرسام

حينئذٍ اتت اليهِ زوجتهُ وقالت لهُ : لعلّ ذلك سرٌّ ضمنهُ دعاوٍ لا تدركها

فاجابها وقال في الحال : انكِ لا تعرفين خُلق هذا الانسان فانهُ اذا رصد وجد واذا عزم تمم ولكن ليت شعري ماذا يريد ان يفعل في طبقات الجو هل حسد النسورة على طيرانها وصمم النية على الاقتداء بها فاني سابذل الجد والجهد لاصدهُ عن ضلالهِ والّا اذا تُرِكَ على حالهِ يخطر ببالهِ ان يرتقي الى طبقات القمر في ليلةٍ رائقة

ولما عقب الصباح تلك الليلة ركب ديك المركبة الحديدية النارية قاصداً مدينة لندرة وما مضت ثلاث ارباع الساعة الّا وصل الى بيت صاحبهِ العزيز فطرق الباب خمس مرات بشدةٍ وعنف فنهض فرغوسن دون ان يعرفهُ وفتح لهُ الباب بيده ولما بصر بهِ قال لهُ : أ انت ديك وما عساك تطلب في لندرة في ايام الصيد

وبعد ان تصافحا وقرأ السلام بعضهما بعضاً قال ديك : اتيت لامنع عمل جنون لا اسم لهُ

قال ساموئيل : وما عسى يكون هذا الجنون

قال ديك : وهل لمقال صحيفة دالي تلغراف صحة عن رحلتك الجوية

قال ساموئيل : وبهذا تعني فمالك والصحف فانها قليلة التحسب. إجلس هنا لاطلعك على حقيقة الامر

قال ديك : وكيف اجلس قبل ان تخبرني ان كنت على عزم في معاناة هذه السفرة

قال ساموئيل : نعم يا خليلي واني متأهب للسفر والحاجات قد . . .

فقاطعه ديك وقال : اين هذه الحاجات لاقطعها اربًا والقيها خارجًا فتذريها الريح كالهباء المنثور

وفي الحقيقة تلاعبت وقتئذٍ على محيا ديك اطوار الكدر والحمية

قال ساموئيل : مهلًا مهلًا يا صاحبي لوكنت عالمًا بمقاصدي ومآربي لما كنت حميت وحنقت

قال ديك : وما هذه المقاصد والنوايا

فغيّر ساموئيل الحديث بقولهِ : لولا تراكم الاشتغال عليَّ لكنت اطلعتك على كل ما يختصّ برحلتي

قال ديك : وما حاجتي اليهِ

قال ساموئيل : لانني مصمم النية على ان اخذك معي في مركبتي

فلما سمع ديك هذا الكلام قفز قفزة الغلام وقال : لعمركَ وهل ارضى بان اكون محبوسًا واياك في منزل بيت لحم (وهو منزل المجانين في لندرة)

فقال ساموئيل : لو اصخت لي سمعًا عشر دقائق لشكرت لي معروفي على اختياري اياك دون غيرك لمرافقتي

قال ديك : هبْ اني ابيت الذهاب فماذا تفعل

قال ساموئيل : ولن تفعل ذلك

قال ديك : وان فعلت

قال ساموئيل : عند ذلك سانطلق وحدي

قال ديك : هات لنا لنرى حديثك لعلَّ فيهِ ما يُقنعني

قال ساموئيل قُم لنتحدث يا صاح ونحن على مائدة الفطور وبعد ان وصلا الى المائدة وجلسا متقابلين قال ديك : لعمري كيفما قلبتُ مقصدك

وجدته ضرباً من الغباوة والوبلل واراهُ نوعاً من المحال وعرياً من كل تعقل واقرار

قال ساموئيل : سنرى ذلك عند الامتحان اذ عند الامتحان يُكرم المرء او يُهان

قال ديك : لله درك كيف تمتحن الامر والواجب عليك عدم الامتحان

قال ساموئيل : ما ترى يمنعني

قال ديك : هل يخفى عليك ما سيحيق بك من المصاعب والاخطار والمهالك

قال ساموئيل : اما المصاعب يجب على الانسان الظفر بها واما الاخطار فمن تراهُ يتحاشى عنها ويتنزه وقد جاء ان زوايا الدنيا مشحونة بالرزايا واذا جلستَ على المائدة واردت تناول الطعام فلا يخلو الامر من الخطر فعلينا ان ننظر الى ما سيجرى كانهُ جرى ونعتبر المستقبل كأنهُ حاضر لان المستقبل ليس الّا لحاضرٍ مقبل

قال ديك : وهذا قليل لديك أعلك ممن يتكلون على القدر

قال ساموئيل : نعم ولكن على الوجه الحسن . فليس لنا ان نهتم بما أعدَّ لنا من النصيب بل الخليق بنا ان نتذكر المثل الانكليزي القائل : من خُلق ليُشنَق لن يُغرَق

فاجاب ديك لذلك المقال بما يطول شرحهُ ويضيق بنا المجال لذكرهِ وبعد ان فرغ من القيل والقال والتنازع والجدال قال واذا كان لا بدَّ من الترحال فلمَ لا تسير بالطريق التي سلكها الرجال

قال ساموئيل : أ تسألني لماذا لا اسير في الطريق التي سلكها المسافرون من قبلي وانت عالمٌ ان جميع السياح الذين قصدوا بطون افريقية ذهبت

مســاعيهم هدرًا وهلكوا اثر الهلكات وأُصيبوا بامر الرزايا والافات فقد كلابرتون منفوبرك عند نهر النيجر وفُقد فوجل في مفاوز واداي الشاسعة ومات اودني في مُرمُر وكلابرتون في سكاتو وتقطع مران الفرنسي اربًا وقُتل لاينك من التوارج وذُبح الهمبورجي سنة ١٨٦٠ . فهلك جميع هؤلاء لانهُ ضربٌ من المحال ان يتحمل المرء طويلًا الجوع والعطش والمشاق والامراض وان ينازع ويباطح الوحوش الكاسرة والاقوام المتوحشين البرابرة فما لم يتم بطريقةٍ عسى ان يتمّ بطريقــةٍ اخرى وحيث انهُ يمتنع المرور في وسط تلك الاقطــار وجب علينا ان نمرّ من فوقهــا

قال ديك : ولحالة هذه فلنمرّ من فوقهــا طائرين

قال ساموئيل : وما لي ان اخشى وارتاب وقد رتبت وهيأت جميع الابواب فاني جهزت مركبتي الهوائية بنوعٍ لا اخشى بهِ السقوط واذا فرضنــا وسقطت المركبة فاتمم الرحلة على سنةّ من سبقني في ذلك ولكني واثق انهُ لجهة نظامها وترتيبها لا تسقط ولا تنهار

قال ديك : كلا يا صاحبي لا تثقنَّ بهذه القبة الهوائية

قال ساموئيل : كن على بصيرةٍ اني بعونهِ تعالى وتوفيقهِ لا افارق مركبتي الّا عند وصولي الى افاق افريقية الغربية لان بها يتمّ كل شيء وبدونهــا اقع في وهاد المخاطر والوبال وبها لا اخشى الحرّ ولا الصر ولا الزوابع والزعازع ولا الحرور ولا السموم ولا الاهواء السقيمة ولا الارياح المشؤمة ولا الحيوانات الكاسرة حتى ولا الاقوام الغادرة فاذا احسنت بحرارة ارتقي الى علٍ واذا شعرت ببردٍ انزل الى اسفلٍ واذا قابلني جبل اوطوط امرّ من فوقهِ فاقطع الجبال والوديان والبطاح والغيطان واجوز الانهــار والبحيرات واتنزّه عن جميع الافات واطير في الجوّ طيران البواشق دون ان يلاحقني ملاحق

فلما سمع ديك هذا الخطاب ارتاع فؤادهُ وخالجهُ الاضطراب واخذ يحدق بصاحبهِ ويظن بنفسهِ انهُ طائرٌ في الجوّ ومترجرج في عباب بحور العلاء ثم قال: وهل وجدت وسيلة لقيادة المركبة الهوائية

قال ساموئيل: كلا

قال ديك: اذًا الى اين تذهب بها

قال ساموئيل: اذهب حيث شاء ربك ولكن من نيتي ان اسافر من الشرق واحط في الغرب

قال ديك: ولِمَ ذلك

قال ساموئيل: لاني اسير مع ريح الصبا التي تهب بثبـاتٍ من الجهة الشرقية الى الجهة الغربية

تأمل ديك برهةً ثم قال: لستُ بمنكران ... ريح الصبا .... بالحصر .... تقدر ... تو . ا . فق ... رحلتك

قال ساموئيل: قُلْ رحلتنا هل لك اعتراض اخر يا ديكًا

قال ديك: كيف ولي الف اعتراضٍ وقبل كل شيء اطلب اليك ان تقول لي كيف تريد الارتقاء والنزول والرحيل في تلك الطلول دون ان يفرغ الغاز الذي بهِ تطير المركبة

قال ساموئيل: وانا اقول لك اني لا افقد ذرة واحدة من الغاز

قال ديك: وتحط في الارض كيف ومتى شئت

قال ساموئيل: نعم يا صاح فاني احط كيفما شئت ومتى شئت

قال ديك: وكيف ذلك

قال ساموئيل: هذا سرّي الخبي فثق بي وكن على أُهبة وقل معي: السيرُ الى ما فوق

فحاول ديك ان يظهر رايهُ مطابقاً لرأي صاحبهِ ولكن في نيتهِ ان يقاومهُ في مقصده مقاومة الاسود

فختم ساموئيل الحديث بقولهِ : قد رخصت لي الحكومة الانكليزية في سفينةٍ تكون تحت امري وتدبيري فلا بدَّ من ان ابلغ جزيرة زنجبار قبل ثلاثة اشهر فهناك انظم مركبتي الهوائية ونطير بها انا واياك



الفصل الثالث

في ذكر الرحلات التي عاناها المسافرون في بطون افريقية ومفاوزها بقصد الاكتشافات الجديدة

واما الناحية التي اختارها العلامة ساموئيل مركزاً للانتقال منها الى الطبقات العلوية على اجنحة المركبة الهوائية فهي زنجبار وكانت نعم الخيار . وزنجبار جزيرة واقعة في جهة افريقية الشرقية في عرض جنوبي °٦ اي تحت خط الاستواء باربعمائة وثلاثين ميلاً انكليزياً او نحو ٢٦٨ ميلاً هاشمياً (والميل الهاشمي بمقام ٤٠٠٠ ذراع) فيليق بنا ان نستطرد لذكر بعض الرحلات التي باشرها المسافرون في افريقية بقصد الاكتشافات الجديدة

وكان من قصد العلامة فرغوسن ان يعيدها وهما اثنتان ذات اهمية جزيلة : الاولى رحلة برث سنة ١٨٤٩ والثانية رحلة الملازمين برتون واسبيك سنة ١٨٥٨

اما برت الهمبورجي فقد أُوذن بان ينضم هو وابن وطنه اوفرورك الى الانكليزي ريشردسون الذي كان قاصداً بلاد السودان ببعثة من الحكومة وبلاد السودان واقعة بين °١٥ و°١٠ من العرض الشمالي ويقتضي للوصول اليها المسير في مسافة تنيف عن ١٥٠٠ ميل في وسط افريقية

والى ذلك الوقت لم تكن تُعرَف تلك البلدان سوى بسفرة دنهام وكلابرتون واودناي من سنة ١٨٢٢ الى ١٨٢٤ فتتبع الرفاق المذكورون آثار سلفائهم وبعد ان وصلوا الى تونس وطرابلس تقدموا الى ما قدام وبلغوا مدينة مُرزوق عاصمة الفزّان

ثم انثنوا عن الخط المستقيم وداروا نحو غات الى الغرب وهم مقادون بقوم من التوارج وبعد ان سُرقوا ونُهبوا وذاقوا اشرَّ العـذاب واضطروا مرارًا الى المناضلة والكفاح وصلوا اخيرًا الى غوطة الاصبان في شهرت ١ وهناك فارق برث رفاقه وتقدم الى مدينة اغادس ثم رجع الى القافلة واخذوا في المسير في اليوم الثاني عشر من شهر كانون الاول فوصلوا الى اقليم دامرغو وتفارق الرفاق هناك وعمد المعلم برث الى مدينة كانو وكان وصولهُ اليهـا بعد العناء الجزيل وتحمل الصبر الجميل ودفع المبالغ العظيمة لرؤساء اقوام تلك البلدان الطائلة

ثم هجر مدينة كانو في ٧ اذار برفقة خادم واحد وكان مصابًا بداء الحمى ومع ذلك قد صمم النية على مشاهدة بحيرة شاد وبقي لهُ للوصول اليها ثلاثمائة وخمسون ميلًا فتقدم نحو الجهة الشرقية ووصل الى مدينة زوريكولو في اقليم بُرنو وهذه المدينة محط لمركز اواسط افريقية وهناك بلغهُ خبر وفاة رفيقه ريشردسون من شدة الضنك والتعب وقلة القوت والمشـاق اخرى حلت في انسانٍ متعودِ الرخاء في معيشتهِ ثم رحل الى كوكا عاصمة بُرنو عند سواحل البحيرة وبعد ثلاثة اسابيع بلغ مدينة تغرنو في ١٤ نيســان بعد هجره طرابلس الغرب باثني عشر شهرًا ونصف

وفي ٢٩ اذار سنـة ١٨٥١ سافر ورفيقهُ اوفروك الى مملكة ادامووة في جنوبي البحيرة ووصل الى مدينة يولا ثم عاد الكرة في شهر آب على مدينـة كوكو وهناك طاف حول مندارا وبرغيمي وكانم واقصى جهـة من المشرق وهناك مدينة مزنا الواقعة في ٢١ َ ١٧ ْ من الطول الغربي

وفي ٢٥ من شهر تشرين الثاني سنة ١٨٥٢ بعد ان قضى رفيقهُ نحبـهُ تقدم الى الجهة الغربية وعرّج على مدينة سوكوتو وجاز بنهر النيجر ووصل اخيرًا الى مدينة تمبكتو وهناك القى الشيخ القبض عليهِ وابث يعذبهُ ويذيقهُ امرَّ الوبال

والمتربة نحو ثمانية اشهر اما قوم الفولّان فهاجوا وماجوا لانهم لا يحتملون زماناً بقاء رجل مسيحي في تلك المدينة فاقلتهُ الشيخ ورحل المعلم برث منها في ١٧ اذار سنة ١٨٥٤ واحتمى بتخوم المدينة ومكث ثلاث وثلاثين يوماً محروماً كل ضرورياتهِ ثم رجع الى كانو ودخل كوكا ولبث فيها اربعة اشهر ومن هناك سار في الطريق التي خطها دنهام حتى عاين اخيراً مدينة طرابلس الغرب في اواخر شهر آب سنة ١٨٥٥ ثم سافر الى لندرة وحده في ٦ ايلول دون رفيق ولم يتجاوز °٤ من العرض الشمالي ولا الدرجة الدرجة °١٧ من الطول الغربي

فهذه رحلة المسافر الباسل برث الذي حاز الشرف الخطير لدى اعين العلماء واصحاب الفنون والذكاء

ولكن لم يقدر قط احد على الوصول الى عيون النيل السرية وعلى ما قرره الطبيب الالماني فردينند ورن ان المسافرين الذين بعثهم محمد علي سنة ١٨٤٠ لم يبلغوا سوى الى غندوكورو بين °٤و°٥ في السمت الشمالي

وفي سنة ١٨٥٥ تسمى برون روليت قنصلاً لدولة سردينيا في مملكة السودان الشرقية خلفاً لمن مات قبلهُ موت الشقاء والعذاب وهو واداي فهذا القنصل الجديد سافر من الخرطوم ودعا نفسهُ باسم يعقوب وتقدم الى ١٠ قدام وهو يتاجر بالصمغ والعاج حتى وصل الى بلانيا فوق درجة °٤ ثم عاد الكرة على خرطوم وهو مبتلي بمرض عضال بلغ بهِ الى القبر سنة ١٨٥٧

فلم يقدر احد على مجاوزة الحدود المعلومة لا العلامة بِنة الذي تقدم الى قرب غندوكورو لانهُ رجع فمات في خرطوم وهو ضنٍ من التعب وخور القوى ولا السائح مياني من البندقية ولا التاجر المالطي اندريا دِبُنو الذي اهتمّ في الوصول الى عيون النيل لكنهُ لم ينل مرامهُ

وفي سنة ١٨٥٩ بعثت الحكومة الفرنسية موسيو غيليوم ليجان الى بلاد

للخرطوم واصحبتهُ باحد وعشرين جنديًا فسافر في البحر الاحمر ثم نزل الى ضفة النيل ومع هذا كلهُ فلم يتمكن من مجاوزة تخوم غندوكورو واحاقت بهِ المخاطر العظيمة لدواهي ثورة ثارت ما بين الزنج

وطالما قد اوقف هذا الحدّ شجاعة المسافرين والسياح وكثيرون هم الذين ارادوا الوصول الى عيون النيل برحيلهم الى جهة افريقية الشرقية فلم يتمكنوا من ذلك فمن سنة ١٧٦٨ الى سنة ١٧٧٢ رحل السائح بروس الاسكتسي من ماصوّة وهي مينا بلاد الحبشة ووصل الى خراب اكسوم وشاهد عيون النيل حيث لا وجود لها ولم تأتِ اتعابهُ بثمرة

وفي سنة ١٨٤٥ سافر السائح الفرنسي مزان الى بغامايو قبالة زنجبار ووصل الى مدينة دجلاهرا حيث اذاقهُ سيد قومها امرّ العذاب والبلاء وفي سنة ١٨٥٩ في شهر آب سافر الشاب روشر الهمبرجي صحبة قافلة تجار اعراب وبلغ بحيرة نياصًا وهناك ذُبح في رقادهِ

اخيرًا سنة ١٨٥٧ بعثت الجمعية الملوكية الجغرافية في لندرة الضابطين برتون واسبيك المشهورين ليستقرئوا بحيرات افريقية العظمة ففي ١٧ حزيران قاموا من مدينة زنجبار وتوجهوا الى الناحية الغربية فبعد ان قضيا اربعة اشهر في مفاوز الضيق والعذاب الشديد حيث نُهبت حوائجهما وقتلت ناقلوها وصلا الى مدينة كازه وهي مركز اجتماع التجار والقوافل وهذه المدينة كائنة في اواسط بلاد القمر وهناك اكتنزا لهما ذخائر الفوائد بالاستفحاص عن اخلاق اقوام تلك البلاد وطبائعهم وحكومتهم وديانتهم وخرافاتهم وخزعبلاتهم ثم تقدموا الى اول البحيرات العظيمة وهي تنغنايكا الواقعة بين ٣° و٨° من العرض الجنوبي وكان وصولهما اليها في ١٤ شباط سنة ١٨٥٨ وهناك شاهدا اقوامًا مختلفة واكثرهم برابرة ومتوحشون

وفي ٢٦ ايار رجعا الى كازه وهناك مرض برتون واعتراه سقم شديد فمكث مبلياً بهِ بضع شهور ففي تلك المدة جاز اسبيك ثلاثمائة ميل انكليزي في الجهة الشمالية ووصل الى بحيرة اوكراوي لكنهُ لم يعاين سوى طرفها الواقع في درجة ٣٠ ° ٢ عرضاً

ثم رجع الى كازه في ٢٥ آب وسافر مع رفيقهِ الى زنجبار فوصلا اليهـا في شهر اذار من السنة الثانية ومن هناك قصدا لندرة وخصصت لهما الجمعية الملوكية الجغرافية معاشاً سنوياً

وقد لاحظ العلامة فرغوسن ان المسافرين المذكورين لم يجوزوا درجة ٢° من العرض الشمالي ولا درجة ٢٩° من الطول الشرقي

ولذا اراد ان يجمع بين رحلة برتون واسبيك ورحلة برث ومن ثم يقطع عرضاً ناف عن ١٢ درجة



الفصل الرابع

في اهمية الرحلة الافريقية

وكان العلامة فرغوسن يهم في تجهيز لوازم السفر العلوي ويهيء بناء القبة الهوائية بحسب اصلاحات اخترعها ويكتم سرها وكان منـذ زمان اخذ بدرس اللغـة العربية ولغات الزنج المختلفـة ونجح فيه ليس بيسير لشدة قوته الذاكرة وانصبابه على كل ما ابتغى قنيته

واما رفيقهُ ديك فلم يكن يفارقهُ بتة كأنهُ على خشية ان العلاَّمة يُفلت ذات يوم خفيةً عنهُ وكان ينتهز كل فرصةٍ مناسبة ليرجعهُ عن مقصده . الّا ان كلامهُ لا تأثير لهُ في عقل صاحبه الغير المبالي به

وعليه كان يتنهد سرًّا ويقول في نفسهِ : لا بدَّ لك ياديك لا بدَّ لك من تلك الرحلة المشئومة وعندها يظن بذاته صاعدًا الى الجوّ وطائرًا في الفضـاء لُعبةً للارياح ويضيق صدره ويخفق منـهُ القلب وينتضح عرقًا بل انهُ كان يشعر وقت الرقاد باهتزاز وارتجاج مريعين يقلقان نومه ويرعبان جنانه ويُعدمانه راحة الليل ولم تمض ليلة الّا احسّ بسقطةٍ هائلة من اعالي طبقـات السماء وفي الحقيقة سقط من فراشهِ اقلهُ مرتين وهو في هذا الضغط والاضطراب

وقد اعتنى في اول الامر ان يظهر للعلاَّمة فرغوسن الورم الذي طرأ عليهِ في رأسهِ من جرى سقوطهِ هذا وقال لهُ اذا كان من علوّ اشبارٍ بُليت بهذه النائبة فترى ما لكان قد حلَّ بي لو سقطتُ من طبقات العلاء

اما فرغوسن فلم يتحرَّك فؤادهُ لهذا الاضطراب بل اجاب وقال : اننا لا نسقط . فقال ديك : واذا سقطنا فما الحيلة

قال فرغوسن : كلاَّ فانَّنا لا نسقط وكان جوابًا قاطعًا باتًا اذ لم يتفوه ديك بعد ذلك بكلمةٍ البتة

امَّا اعظم باعث لاغتياظ ديك فكان ان العلاَّمة لا يعتبر شخصهُ بذاتهِ بل كأنهُ من متعلقاتهِ ومن بعض املاكهِ وعلى الخصوص فانهُ كان ينفعل عند ما يسمع من فم فرغوسن التكلم في الجمع اذ كان يقول دائمًا سنسافر (نحن) سنتقدَّم (نحن) وقال دائمًا قبتنا ورحلتنا ولم يقل قط قبتي او رحلتي

فكان الامر مما يزيد ديك جزعًا واضطرابًا ولو انهُ عازمٌ على ممانعة الرحلة او اقلهُ على عدم اشتراكهِ فيها ومع ذلك لم يرد قط ان يغيظ صاحبهُ وخلهُ العزيز وعليهِ كان قد ارسل سرًّا الى مدينة ادمبرج يطلب بعض حاجات لهُ وملابس واحسن انواع سلاحهِ للصيد

في ذات يوم اخذ يفاوض صاحبهُ على هذه الرحلة قصدًا في منعهِ عن معاناتها فبدأ يعارض العلامة على مقاصد رحلتهِ فقال أهل من امر ضروري لاكتشاف عيون النيل وهل يستفيد بذلك الجنس البشري وهل تتمدن اقوام تلك البلاد وتحظى بسعادة اوفر مما هي عليهِ الان وما نفع الاسراع الى ذلك اذ لا بدَّ ان يأتي يوم يجوز فيهِ المسافرون بافريقية كلها دون صعوبة وهلمَّ جرًّا فاجابهُ حينئذٍ العلامة فرغوسن وقال أتريد يا ديك بئس الاديك ان اترك هذا الفخر لغيري واتوقف عند موانع لا اهمية لها البتة فاعترض ديك كمألوف عادتهِ وقال ولكن ...

قال ساموئيل : ولكن ألا تعلم ان رحلتي تساعد نجاح الرحلات الحالية التي يعانيها المسافرون أيخفى عليك ان مسافرين حديثين متقدمون الان نحو مركز افريقية وان البحيرة المعروفة باسم اوكاراوي الواقعة في الدرجة ٣٣° طولًا ظنها قوم انها تمتد من الدرجة ٢°٣٠ʹ من العرض الجنوبي الى الدرجة ٢° من

العرض الشمالي وعسى ان منها تنبجس عيون النيل فقد نظرت جمعيــة لندرة الملوكية الى هذا الامر بعين الاهمية وبعثت القبطان إسبيك برفقة غرنت احد قواد الجنود الهندية واصحبوا معهما جنوداً وجهزوا رحلتهما تجهيزاً بليغاً وفي نيتهم ان يبلغوا البحيرة المذكورة ثم يرجعون الى غندوكورو على شاطي النيل وقد امدّتهم الجمعية بخمسة الاف ليرة فرحلوا من زنجبار في اواخر شهر تشرين الاول سنة ١٨٦٠

وفي تلك المدة ورد امر من الحكومة الانكليزية الى جون بتريك في الخرطوم ان ينزل في سفينــة في الخرطوم ويحملها زاداً وحوائج كثيرة ويذهب لينتظر القافلة في غندوكورو وأُرسل لهُ لنفقة ذلك سبعمائة ليرة انكليزية

قال ديك : نِعمَ ما فعلوا

قال ساموئيل : أرأيت الان ان الوقت قد ضاق معنا ومست الحاجة لسرعة الرحيل الى تلك البلدان وما عدا ما ذكرتهُ لك من عمد البعض لاكتشاف منبع النيل فقد رحل اناس كثيرون الى اواسط افريقية ليكتشفوا اراضيها وبقاعها وبطاحها

قال ديك : أفا هم مُشاة

اجاب ساموئيل : اي نعم مُشـــاة ولا يخفى عليك ايضاً ان السيد دي هكلن وكيل قنصل النمسا في الخرطوم رتّب قافلة ذات اهمية للرحيل الى اواسط افريقية رجلٌ قصدها ان تطلب المسافر وُجِل الذي أُرسل الى السودان سنة ١٨٥٣ ليشارك العلاّمة برث باكتشافاتهِ وفي سنة ١٨٥٦ رحل من برنو وقصد اكتشاف ذلك الاقليم المجهول الواقع بين بحيرة شاد ومملكة درفور فمنذ ذلك الوقت لم يسمع عنهُ خبر ولم يُرَ لهُ اثر فارسل بعض الناس كتباً الى الاسكندرية يقولون فيهـــا انهُ قُتل بامر ملك الواداي في بلاد السودان

ولكن كتب العلامة هرمان كتاباً الى ابي وُجِل يقول لهُ بهِ ان ابنـــهُ لم يمت بل على ما قرره بدويٌّ من برنو ان رجل أُلقي القبض عليهِ في دارة وبقي هنـــاك اسيراً وقد تألفت جمعية لطلبهِ وسافر وفدها في شهر حزيران الماضي

فقال ديك : وحيث جميع الامور سائرة على قدم النجـــاح والاتقان فما لنا من المشغلة في تلك الاقاليم والبلدان

فلم يجب ساموئيل على هذا الكلام بل تحوّل عنـــهُ وانصرف وهو يهزّ باكتافهِ



الفصل الخامس

في خادم العلامة ساموئيل وزنة المسافرين

وكان للعلامة ساموئيل خادمٌ اسمهُ يوسف وهو شاب اديب ذو اوصافٍ حسنى اذا امرهُ مولاه بقضاء حاجةٍ لباهُ بالنشاط والامانة وقد نهج في صدقهِ نحو سيده طريقة غير مطروقة واتاهُ على رغباتهِ بهمةٍ غير همة وخليقة غير خليقة اشبه بالعبراني الامين الذي ارسلهُ يشوع بن نون ليجتس ارض الكنعانيين وكان العلامة يترك لهُ التدبير في مهامهِ وخدمهِ لانهُ صاحب ذوقٍ لطيف ولا يتهامل في امرٍ من الامور

ومن العجب العجاب ان يوسف لم يكن يراجعهُ في احكامهِ اصلًا بل اذا تفوه ساموئيل بكلمةٍ رعاها بدقــة وتحري وكل ما فــكر بهِ ساموئيل كان لدى يوسف مصيبًا وكل ما قالهُ كان اريبًا وكل ما امرهُ بهِ كان مرعي الاجراء وكل ما نحا نحوًا كان مستطاعًا وكــل ما تمم امرًا كان لديه من العجــائب والغرائب فلو تقطع يوسف اربًا لمــا رضي قط في حياتهِ ان يخالف سيدهُ في امرٍ البتــة

ولهذا لما خطر ببال فرغوسن الرحيل على اجنحة المركبة الهوائيــة وعلم بهِ يوسف فطابق رأيهُ بذلك دون ممانعة وتحقق انهُ يســافر مع سيدهِ لانه كان خفيف الحركات والاطوار ويساعد ساموئيل في امور كثيرة ذات اهمية جزيلة وقد طال ما اتبعــهُ في اسفارهِ العديدة وكان من ارآئه الغريبــة استصواب الامور جميعهــا واستهوان المصاعب والمتــاعب ولم يعلم قط في زمانه جنس التشكي والتذمر ومن صفاته ايضاً القوة في جسمــهِ والتبصر في الامور وعدم

افتخاره بجميع محاسنه وشمائله . فلما كان هذا الخادم منقاداً لسيده وقد طابقه على رائهِ في رحلته فلا عجب فيما جرى من الجدال والمناقشة بينهُ وبين ديك لان احدهما كان واقعاً في اليقين الاعمى والآخر في الشك والارتيـاب والعلامة فرغوسن كان بين الشك واليقين غير انهُ لم يعبأ لا بهذا ولا بذاك

ففي ذات يوم قال الخـادم لديك يا سيدي وكيف احوالك ألا ترى اننا عن قريب نرتقي الى طبقات العلاء لنبلغ القمر

قال ديك : أتعني عن المصر الملقب بجبال القمر فانهُ اقرب من القمر ومع ذلك لا يخلو بلوغهُ من المصاعب والاخطار

قال الخادم : وهل مع العلامة ساموئيل تقوم المصاعب وهلاَّ تعلم انها تتبدد امامهُ كغيم جهام

قال ديك : اقول قولًا لا يخشى عليهِ من نكير ان معاناة مولاك لهذه الرحلة ضربٌ من الجنون

قال الخادم : كيف ولم ترَ مركبة سيدي وقبتهُ في معمل الخواجات متشال الواقعة في ضاحية هذه المدينة

قال ديك : معاذ الله ان انطلق الى هناك لأُشاهد مثل هذا المشهد

قال الخادم : ولعمري يفوتك منظر جميل جدًّا لأنهُ ما من شيء اجمل من تلك القبة الحريرية او احلى من ذلك القارب المعلق بها ليحملنـا براحة تامّـة

قال ديك : اذاً من نيتك الثابتة ان ترافق مولاك في رحلتهِ

قال الخادم : وهل اتركهُ وحدهُ طائرًا في طبقـات العلاء وان لم اتبع مولاي ساموئيل فمن يأتي بيدهِ اذا احاق بهِ الويل ومن عدّ لهُ ساعدهُ ليجوز مهواةً ومن ينظر اليه ويرمقهُ بعين الملاطفـة والمواساة اذا اصابهُ المرض واعتراهُ

السقم ولعمري ما دمت حيًا فلا ازال محيطًا بمولاي لادارةِ مداراة الانسان اللعين

قال ديك : يا لك من شهمٍ فريد عصرك ويوسف وحيد مصرك

قال الخادم : أليس مرادك مرافقتنا في هذه الرحلة

قال ديك : لا شك في ذلك قلتُ لا شك في ان ارافقكما في رحلتكما الى زنجبار وابذل وسعي في صد ساموئيل عن ارتكاب هذه الجريرة

قال الخادم : لعمري انك لن تصده بتةً عن قصده لان مولاي ليس بانسان محشو مخاخهُ بطعم الخزعبلات بل اذا قصد امرًا تروَّاه من جميع انحائه وقد فعله لامحالة والمحتال بنفسه مع حيلهِ لا يوقفهُ عن اجرائهِ

قال ديك : ان شاء الله عن قريب يخيب املك

قال الخادم : وعلى كلٍ لا يخيب امل حضرتك لانهُ يكثر الصيد في بلاد افريقية وانت من الصيادين الشهيرين فلا بد من ان تجد هنالك ما يسرك ويطربك

قال ديك : ان ما يسرّني ويطربني هو ان يرجع العلامة عن غيهِ ويرعوي عن ضلالهِ

قال الخادم : ولكن لا خفي عليك ان اليوم يوم الزنة

قال ديك : وما الزنة

قال الخادم : لا بدَّ ان مولاي يزن ثقلنا ليرى ما تعادلهُ من الارطال

قال ديك : لا حول ولا قوة الَّا بالله العظيم

قال الخادم : ولا تخاف من انهُ يطلب منك قلة تناول الطعام لترق وتخف اذا وجدك ثقيلًا

الفصل السادس

في تفاصيل المركبة الهوائية من القبة والقارب والالة السرية وتجهيز حاجات الرحيل الضرورية

فلا غرو في ان المركبة الهوائيـة قد اشغلت بال العلامة ساموئيل ليلًا ونهارًا وما زال عاكفًا على تجهيزها وترتيبها باتقان لئلا يطرأ عليها في العلاء حادث من طوارق الحدثان فعزم في اول وهلةٍ على ان يقبب القبـة الحريرية بغاز الإدروجن احد عنصرَي المـاء وهو اخف من الهواء باربع عشرة مرة ونصف وحصول هذا الغاز سهل جدًا وهو ما اجدى المركبات الهوائية نفعـًا جزيلًا في ارتقائها الى الطبقات العلوية

فعلى ما حسبهُ ساموئيل بتدقيق ظنَّ ان لوازم رحلتهِ التي ينبغي عليهِ اخذها في المركبة تتطلب ثقل نحو ٦٦٦ رطلًا فاخذ يبحث كيف يجهز القبة الهوائية لتتمكن من حمل هذا الثقل وما يقتضي ان يكون وسعها

اما ثقل ٦٦٦ رطلًا فتوازي وزن ٤٤٨٤٨ قدم هواء مكعب او ١٦٦١ مترًا مكعبًا فاذا اوسع القبة الهوائية ١٦٦١ مترًا مكعبًا وملأها غاز الإدروجن عوضًا عن الهواء . وغاز الإدروجن اخف من الهواء باربع عشرة مرة ونصف فيبقى خلل في الميزانية وقدره ٦٢٠ رطلًا اذ ان غاز الادروجن لا يزن سوى ٤٦ رطلًا وهذا الفرق الكاين بين ثقل الغـاز الداخل في القبة وثقل الهواء المحيط بها هو الذي يخوّل القبة الهوائية قوة الصعود الى الطبقات العلوية

ومع ذلك اذا أُدخل القبة ١٦٦١ متر غاز مكعب امتلأت بتمامها وهذا لا يوافق بل يأتي بالضرر حيث ان القبة الهوائية بارتقائها الى الجوّ تصادف في

العلاء هواء اقل ثقلًا من الهواء الكاين على سطح الارض فيـاخذ الغاز في الاتساع والامتداد فيشق القبة في العموم لا يملأ اصحاب الفنون القبب الهوائية غازًا سوى بنسـبة الثلثين

اما العلامة ساموئيل فرغوسن فعزم على ان لا يملأ قبتهُ الّا بنسبة النصف وذلك لقصدٍ خفي كان كامنًا في ضميرهِ واذ كان في عزمهِ ان يأخذ معهُ ١٦٦١ مترًا مكعبًا من الإدروجن قد اوسع القبة اتساعًا مضاعفًا

ثم رتب القبة على الهيئة المستطيلة المفضلة على غيرها وبلغ قطرها الافقي ٧٥ قدمًا وقطرها العمودي ٥٠ قدمًا (١) فـكان وسع هذه الكرة ٩٠ الف قدم مكعب

وقد فـكر العلامة فرغوسن في صنيع قبتين هوائيتـين مختلفتي الكبر والاتساع وجعل الواحدة داخل الاخرى فالصغيرة بلغ قطرها الافقي ٤٥ قدمًا وقطرها العمودي ٦٨ قدمًا ووسعها ٦٧ الف قدم مكعب وقصد ان يجعل لولبًا ينفتح من قبةٍ الى قبة لتتصل وقت الحاجة بعضها ببعض

ولهذه الوسيلة فوائد جمة منها اذا اراد اخراج الغاز ليحط على الارض فيخرج الغاز الذي تتضمنهُ القبـة الكبرى حتى واذا أُفرغ بكمالهِ فتبقى القبة الاخرى على حالتها ويمكن اذا مست الحاجة ان يرمي عنهُ هذه القبة الكبيرة المثقلة عليه ويمكث متمسكًا بقوة القبة الثانية ومنها اذا حدث عارض او انخرقت القبة الكبرى فلا يمس القبة الصغيرة ضرر البتة

اما القبتان الهوائيتان فصُنعا من القماش الحريري المصلب ثم دُهنا بمادةٍ صمغية يؤتى بها الهند وتُعرَف عند الافرنج باسم غُتّابركا وهذه المادة تمنع الموانع

(١) لا يتعجب القارئ من هذا الكبر الفاحش فان العلامة معلّيه صنع سنة ١٧٨٤ قبةً بلغ وسعها ٢٠٠٠٠ متر مكعب وكان من طاقتها ان تحمل ٢٠ الف كيلوغرام

من ان تتخلل الاقمشة ولا يمسها انواع الحوامض ولا اجناس الغاز وجعل القماش في الافق الاعلى على طاقين حيث هناك القوة الشديدة

وصنع الحبال لحمل القارب من القنَّب الشديد الصلابة والمتانــة وقد بذل وسعهُ في اتقان اللولبين اتقاناً محكماً كما يعتني اهل السفن في احكام دقة المركب

اما القــارب العتيد ان يحمل المسافرين فبناهُ من الخيزران على هيئةٍ مستديرة وبلغ قطرهُ خمسة عشر اقدام ثم مكنهُ بلفائف حديدية حولهُ فلم يبلغ ثقلهُ مع ثقل الحبال سوى ٤٦ رطلاً

وصنع العلامة ايضاً اربعة صناديق من الصفائح الحديدية وكانت متصلة بعضها ببعض بمجارٍ ذات لوالب وضم الى هذه الصنــاديق انبوبة يبلغ قطرها باهمين وفي اخرها فرعان غير متساويين وطول الفرع الاكبر خمس وعشرين قدماً وطول الاخر خمسة عشر قدماً فقط ثم جعل هذه الصنــاديق في القارب بنوع مرتب حتى لا تشغل مكاناً واسعاً وحيث ان الانبوبة لا تترتب الآ وقت صعوده الى المركبة جعلها في مكان منفرد مع كرةٍ كهربائية وجميع هذه الصناديق لم يبلغ ثقلها مع ثقل صندوق مملوء ماء سوى ١١٦ رطلاً

اما الالات التي اراد استصحابها معهُ فهي ميزانات لمعدل الهواء (بارومتر) وميزانا للحر والبرد (ترمومتر) وابرة لمعرفة الجهة الشمالية (بوصلة) ومقيــاسان للوقت (كرونومتر) وأُفق صنعي وآلة لقيس الاشياء البعيدة

وعدا هذا جميعهُ فانهُ اخذ للقارب ثلاثة مراسٍ وسلماً حريرياً متيناً طولهُ نحو خمسين قدماً

واما الزاد للاكل والشرب فــكان شاياً وقهوة وكعكاً ولحماً مملحــاً وقليلاً من العرق وماءً عذباً ثقل مائة ليـــتر ومن الواضح البين ان هذا الزاد

يجب ان ينقص شيئاً فشيئاً وبذلك تنقص ميزانية المركبة الهوائية لان المركبة اذا نقصها ادنى ثقل عما رُكبت عليهِ يأتيهــا بتأثير ولم يهمل العلامة ان يأخذ معهُ خيمة ليغطي بها جهة القارب ولحفاً لتغطيــة الاجسام وقت الرقاد وبواريد الصياد ديك مع كمية وافرة من الرصاص والبارود

فهاك خلاصة تفصيل الاحمال المقيدة ان تجعل في المركبة الهوائية

عدد ارطال		
٢٢	ثقل	العلامة ساموئيل
٢٥	=	ديك كادي
٢٠	=	يوسف الخادم
١٠٨		القبة الهوائية الكبرى
٨٥	=	القبة الهوائية الصغرى
٤٧	=	القارب والحبال
٣١	=	المراسي والالات والبواريد
٣٧	=	الخيمة وغير ذلك
٦٤	=	المأكل والمشرب
٦٦	=	الماء
١١٦	=	الصناديق الاربعة
٤٦	=	الإدروجن
٣٦	=	من رمل يُستعمل صابورةً
٧٠٣		الجملة

الفصل السابع

في ركوب السفينة وإيضاح القوة التي ترقي القبة الهوائية وتحملها حسب المراد

ولما كان نهار ١٦ شباط وافت السفينة الانكليزية التي اتينا بذكرها آنفًا وارست بازاء غرانويش وهي متأهبة لقبول العلامة فرغوسن ومركبته الهوائية فنقلت اليها المركبة في ١٨ شباط وذلك بانظار ساموئيل لئلا يمس شيئًا ضرر البتة ثم نقل اليها ايضًا عشرة براميل مملوّة روح الكبريت وعشرة براميل مملوّة قطعًا حديدية عتيقة وذلك لاجل احصال غاز الإدروجن ولم يهمل ان يصحب مع هذا كله البراميل اللازمة لنشر الغاز وعددها ثلاثون

ثم ركب السفينة ورفيقهُ ديك وخادمهُ يوسف اما ديك فمع كونهِ قسم الايامين المبرمة انه لا يريد السفر مع العلامة فرغوسن رأيتهُ يوم ركوب السفينة نزل اليها وهو مصحوبًا بخزانة كاملة من سلاح الصيد

وفي اليوم العشرين صنعت الجمعية الجغرافية الملوكية مأدبة فاخرة للمسافرين وحضر هذه المأدبة رئيس السفينة ورجاله وقد دارت بينهم كأس المدام فشربوا المدامة بسر الاحباء متمنين لهم ان يعيشوا السنين العديدة والايام المديدة واما ديك فاتتهُ التهاني لرحلتهِ العلوية من جميع الحاضرين في ذلك المحفل فانهم بعد ان شربوا بسر فرغوسن ومجد انكلترة شربوا بسرّ رفيقهِ الشجاع ديك الصياد

وفيما هم جالسون على مائدة الطعام اذ وفد رسول من الملكة وبلغهم تهنئتها للمسافرين وتمنيها لنجاح الرحلة الجوية ففي الحال شرب جميعهم تحية

لجلالتها المخمة وبعد قليل انصرف كلٌّ الى مكانهِ ليستريحوا تلك الليلة

ولما اصبح الصباح وكان اليوم الواحد والعشرين قلعت السفينة من مرسيها وسارت بقدم السرعة قاصدة زنجبـــار في البحر الاحمر وفي ١٥ نيسان وبعد ان ارست في اماكن جمة وصلت اليها بالامن والسلام

وفي غضون سفرهم كانت المناقشة قائمة بين الركاب على الرحلة الجوية وكان يوسف الخادم فرحاً مبتهجاً ويحدث كثيرًا رفاقه نواتي السفينة فقال لهم مرةً انه بعد رحلتهم سوف يحذو كثير من الناس حذوهم اذ انه كلما ذق النـــاس مثل هذه الامور زاد ولعهم بها ونما شوقهم لمعاناتهــا ومراجعتها فـــكما انهم الان مسافرون في المركبـــة بخط منحرف كذلك يسيرون فيما بعد بخطٍ مستقيم الى ما امامهم

فقال احد السامعين : ألا ترتقون الى القمر

قال يوسف : حاشى وكلا لست احب القمر لانهُ معروف من الناس وخالٍ ايضاً من الماء فيقضي بنا العطش الى الهلاك

فقال احد محبي العرق : واذا وجدت هناك عرقًا ألا تستكفي بهِ

قال الخادم : كلا لا نريد شيئاً من القمر بل مرادنا ان نرتقي الى تلك النجوم السيارات المتلألئة في البقعة السماوية فني اول وهلة نمرّ بزُحَل

فسألهُ واحد وقال : هل زُحَل هو اللابس الخاتم

قال يوسف : نعم اللابس خاتم الزواج ولكن الى الان لم يُعرَف ماذا اصاب امراته المسكينة

فقفز احد البحرية الناظر اليهِ نظرة الدهشة وقال : أيمكنكم اذًا الارتقاء الى هذا العلاء لعمري ان مولاك فاق المحتال قدرةً وحيلة

قال الخادم : والمحتال بنفسهِ لا يستطيع على صنيع مثل هذه الامور

فقال بجوي : وهو ينتظر فرصـــةً للتكلم وبعد ان عزّمْوا بزُحّل فالى اين تتوجهوا بالسلامة

قال : نمرُّ بالمشتري ونلم دزُ المشتري فانها بلاد لا يطول بها النهار سوى تسع ساعات ونصف وهذا مما يوافق الكسالى

وهكذا كان يحدث بعضهم بعضًا بالمزاح والهرج وقد اخذ يوسف يتكلم عن نبتون والمريخ والزهرة احاديث مضحكة ومع ذلك مطربة لجميعهم لرشاقة الخادم يوسف وسكب عباراته المزاحية

وفي اثناء مناقشته مع البحرية كانت الكالمة سائرة على قدم النجــاح بين الضباط وفرغوسن بخصوص رحلته ومركبته ومسيرها فسألوهُ مرةً ماذا يرتأي عن ادارة المركبات الى حيث يشاء الراكب

فقال ساموئيل : اني لا اظن ان الناس يتوصلون الى ادارة المركبات الى حيث شاؤوا وقد فحصت جميع الهيئـــات التي ظهرت الى الان فلم ارَ واحدة منها تصلح لذلك

فاجابهُ واحد وقال : ألا يوجد نسبة عظيمة بين ادارة القباب الطيـــارة والسفن البحرية

قال فرغوسن : كلاَّ يا سيدي فان النسبة قليلة جدا وربما كلا شيء لان الهواء اخف من الماء جدا لا يحدّ فالسفينـــة لا تتغطس كلها في الماء بل نصفها واما القبة الهوائية فتخوض في الجوّ حوضًا تامًا وتبقى غير متحركة بالنسبـــة للسيال المحيط بها

قال واحد : وهل تظن اذًا انهُ غير ممكن اختراع شيء جديد بهذا الخصوص بواسطة العلوم الطبيعية

قال : كلا ثم كلا غير ان اصحـــاب العلوم يبحثون عن شيء آخر وهو

ان يستمرّ راكب المركبة الهوائية ثابتًا في الطبقات الهوائية في الجوّ الموافقة لغرضهِ لان الهواء في بعض الاماكن العالية يكون متساويًا وثابتًا في اتجاههِ ولا تغيرهُ الاودية والجبال المتكاثرة على وجه الكرة الارضية ولايخفى عليكم ان تغيير الهواء وعدم مساواة مهبهِ هو مسبب عنها في الغالب فاذا ما علا المرء هذه الطبقات وتوصل الى الاعالي فحينئذٍ يتوقف عند الطبقة الموافقة لغرضهِ كما اشرت

فقال رئيس السفينة : والحالة هذه لكي يتوصل اليها الراكب لا يقتضيه سوى الصعود والنزول وهنا الصعوبة كلها

قال فرغوسن : ولماذا

قال السردار : مآل كلامي ان هذه الصعوبة او المانع لا يكون الّا للاسفار الطويلة وليس للرحلات القصيرة المقصود بها التنزه وانشراح الخاطر

قال فرغوسن : اكرم عليّ بايرادك سبب ذلك

قال السردار : لان اذا اراد المسافر في هذه القباب الطيارة الصعود الى العلا لزمهُ القاء بعض ما يكون حاملهُ من الثقل واذا اراد النزول لزمهُ ان يفقد شيئًا من الغاز وعلى هذا المنوال لا تمضي مدة الّا ويفرغ زادهُ ان كان من الغاز وان كان من الثقل

قال فرغوسن : هنا معظم المسألة فان المباحثة ليست واقعة في هذه الايام عن ادارة المركبات حيث يُراد ولكن جلّ البحث قائم في الصعود الى العلاء والنزول الى الارض من دون ان ينقص غاز الإدروجن الذي تحويهِ القبة اي من دون ان يخسر شيئًا من قوة القبة الهوائية

فقالوا : ولكن ألم يكتشف احدٌ بعدُ هذه الواسطة

قال ساموئيل : بلى

قالوا : ومنو الذي اكتشفها

قال هذا الداعي : ولو اني اكتشفتها لما كنت حملت نفسي على المرود بافريقية لاني لا اسير مدة اربعة وعشرين ساعة ألّا ويفرغ الغاز من قبتي

قالوا : ألم تتكلم عن ذلك في بلاد انكلترة

قال : كلاّ بل ما زلت لسري كاتماً وقد امتحنت الامر بنفسي وتأكدت الفلاح فما الحاجة للتكلم عنهُ

قالوا : أتكرم علينا بكشفك لنا هذا السرّ

قال : سمعاً وطاعة ثم بدا في الكلام واخذ الحاضرون يصيخون سمعاً لخطابهِ



الفصل الثامن

في المعنى المتقدم ذكرهُ

قال ساموئيل : قد طالما اراد اصحاب الفنون ايجاد واسطة للارتقاء والنزول في المركبة الهوائية دون ان يخسر الراكب غازًا او يرمي من الثقل الذي نقلهُ معهُ فاعياهم تفتيشهم وذهب سعيهم هدرًا

اما الواسطة التي اكتشفتها انا فهي متوقفة على ان ابسط الغاز الموجود ضمن القبة واضغطهُ حسبما اريد الطلوع او النزول وذلك بواسطة الحرارة ام البرودة وهاكم كيفية العمل

لا بد انكم بصرتم مع المركبة بخمسة صناديق لا تعرفون ماذا يفيد استعمالها فان الصندوق الاول يحوي مائة ليترماء واليها أُضيف بعض نقط روح الكبريت لتزيد كهربائيتها وكما لا تجهلون فان الماء مركب من عنصرين عنصر الإدروجن وعنصر الاكسيجن فبواسطة الالة الكهربائية التي استعملها وهي معروفة باسم صفائح بنترن ينسرب الاكسيجن الى صندوق ثانٍ ويدخل الإدروجن في صندوق ثالث وهذان الصندوقان يتصلان بصندوق رابع يدعى صندوق المزج ووصيلتهما لولبان مختلفا الضخامة وفي هذا الصندوق يتزج الغازان الناشئان عن انحلال الماء ووسع هذا الصندوق ٤١ قدمًا مكعبًا وفي اعلاه قصبة من النحاس الابيض لها ايضًا لوالب

ولكن معلومًا عندكم ايها السادة ان آلتي ما هي الّا شكل قصبة يُحصر فيها غاز الإدروجن والاكسيجن وتضرم نارًا مستعرة اللهيب اشد تأججًا من نيران اكوار الحدادين واذ تقرَّر ذلك نأتي بذكر الجزء الثاني من الآلة

فمن اسفل القبة الهوائية المغلقة غلقاً محكماً يخرج انبوبتان مفترقتان الواحدة عن الاخرى بمسافة جزئية فالاولى تبتدئ من وسط طبقــات غاز الادروجين العليا والاخرى من الطبقات السفلى وكلاهما ينزلان الى القارب بل الى داخل صندوقٍ من حديد ذات هيئةٍ عمودية اسمــهُ صندوق الحرارة وهذا الصندوق مغلق بطرفيه بدوائر حديدية ايضاً

فالانبوبة البارزة من طبقــات القبة السفلى تدخل في هذا الصندوق العمودي من الدائرة التحتانية وتتلوّى داخله على هيئة البرغي وقبل ان تخرج من الصندوق تتوجه الى مخروط ذات دعائم مجوفة على شكل طاس كريّ ومن اعلا هذا المخروط تخرج الانبوبة الثانية وهي تتجه الى طبقات القبة العليا كما ذكرته آنفاً وهذا الطــاس الكريّ معمول من الذهب الابيض لئلا يذوب بقوة القصبة حيث انها موضوعة في عمق الصندوق الحديدي في وسط الانبوبة المتلوية على هيئة البرغي وطرف لهيبها يمسّ هذا الطاس الكريّ

فــكلما ذكرته لكم ايها السادة ليس هو الاشبه المدخنة المعروفــة منكم وهي المستعملة لتدفئة المخادع ولا يخفى عليكم كيف ان هواء المخدع يمرُّ بالاتابيب ويستحرّ فيدفأ المخدع

وهــكذا يصير في آلتي فان القصبة اذا سخّنت الإدروجن الكائن في الانبوبة يسخن الطــاس الكريّ ويصعــد الإدروجن بسرعة الى الانبوبة المتوصلة الى وسط القبة الهوائية ثم يحصل الخلا من اسفل ويجذب بذلك غاز الطبقات السفلى فيسخن هذا بدوره ويصعد الى اعلا ويقوم مقامه وهــكذا يتكون بين اللوالب والاتابيب مسير غازٍ سريع جداً يخرج من القبة ويرجع اليه فيزيد حرارة

والحال ان الغاز يزيد جرماً ١/٤٨٠ في كل درجة من درجات الحرارة فاذا

تأجج لهيب الحرارة بثمانية عشرة درجة ينبسط الإدروجن بقيمة ٤٨٠/١٨ او ١٦٦٤ قدم مكعب فهذا يزيد قوة القبة للصعود بستة وعشرين رطلًا واذا رفعت الحرارة الى ١٨٠ درجة ينبسط الغاز بمعدل ٤٨٠/١٨ فيقوم مقام وسع ١٦٧٠ قدم مكعب وتزيد قوّة صعودها بمائتين وست وستين رطلًا

فمن هذا ترون انهُ يحدث فرق عظيم في ميزانية القبة الهوائية مع اني ازمعت ان اقيها بمعدل النصف بنوع ان الهواء الذي يقوم مقامهُ الإدروجن يعادل قماش القبة ومحمولها من المسافرين وما يقتضيهِ السفر من اللوازم الضرورية والحالة هذه فان القبة تساوي ميزانية الهواء اي انها لا تصعد في العلا ولا تنزل من تلقاء نفسها

فلكي اصعد ارفع الغاز الى درجة حرارة عالية بواسطة القصبة فمن زيادة الحرارة يمتد غاز الكرة الهوائية وتتقبب وترتقي الى العلاء

واما وقت النزول فاني اخفف حرارة القصبة فالارتقاء كما ترون يكون اسرع من النزول وهذا من الفوائد حيث ان الاخطار هي على الارض وليس في العلاء ومع هذا كلهِ فاني حمات كمية من الثقل حتى اذا لزم الامر القيتهُ خارجًا لارتقي بسرعة واما اللولب الكائن في اعلاء المركبة فلا امسهُ بل تبقى القبة الهوائية حافظة الغاز الذي املأها بهِ وما احدثهُ من الحرارة والبرودة في هذا الغاز هو الذي يرفعني وينزلني

ولزيادة الايضاح اقول: ان من احتراق الإدروجن والاكسيجن في طرف القصبة يحصل بخار الماء فوضعت في طرف الصندوق العمودي انبوبةً لها لولب اذا انضغطت ارتفع منها البخار

وهاكم الارقام بالتمام

ان مائة واثني عشر ليتر ماء اذا انحلَّ عنصرها احصلت ٣٣ رطلًا من

الاكسيجن واربعة ارطال من الادورجن فيكون ذلك بمعدل ٧٠ مترًا مكعبًا من الاكسيجن و١٤٠ مترًا مكعبًا من الادروجن وبمزج العنصرين يكون ٢١٠ امتار مكعبة

فاذا فُتح لولب القصبة فتحًا تامًا يُشعل قدر متر مكعب في الساعة واللهيب يكون اشدّ سعيرًا من لهيب الانوار الغازية بست مرات ففي المعدل الاوسط اذا لم ارد ان ارتفع الى علو باسق لا اوقد الّا قدر ثُلث متر مكعب في الساعة فالمائة والاثني عشر ليتر ماء التي ذكرتها تكفيني اذًا لسفر ستمائة وثلاثين ساعة اونحو ستة وعشرين يومًا

والحال بما اني اتمكن من النزول ايما شئت فاستطيع ان اتزود ماء ويستمر سفري قدر ما اشاء

فهذا هو سرّي ايها السادة الكرام فانهُ سهل جدًا ويتكلل بالنجاح ان شاء المولى وواسطتي الوحيدة هي امتداد الغاز وتقلصهُ وهذا لا يلزمهُ محرك آلتي كالاجنحة او خلافها بل ان هي الّا مدخنة اغير بها الحرارة واقيم مقامها البرودة وبالعكس ثم قصبةٌ لتسخين المدخنة واظن اني جمعت بذلك كل ما يلزم لنجاح رحلتي

فاني سيد قبتي ومولاها لاني اصعد متى شئت وانزل متى شئت واقف متى ما شئت وخصوصًا اذا تهددتني مهبات الرياح باندفاعي الى اماكن لا توافقني

فقال السردار: وستلقى منها ما يدفعك في برهة ساعة الى مسافة مائتين واربعين ميلًا

قال فرغوسن: فترى هكذا انهُ بهذه السرعة يجوز الانسان افريقية في مدة اثني عشرة ساعة فانهُ ينهض من فراشهِ صباحًا في زنجبار ويذهب لينام

في مدينة سن لويس في الجهة المقابلة

فقال ضابط: وهل يمكن ان تُدفع القبة الهوائية بسرعة كهذه

قال فرغوسن: وقد جرى ذلك في الامتحان

قال الضابط: وهل لم يمس القبة ضرر

قال فرغوسن: كلاًّ وقد جرى ذلك عند تكليل نابوليون الاول سنة ١٨٠٤ فان العلاَّمة غرنرين رفع قبة هوائية من باريز الساعة الحادية عشر مساءً (قبل نصف الليل بساعة) وكان مكتوبًا على تلك القبة باحرف ذهبية العبارة الاتية: باريز في ٢٥ فريمير (هو شهر لمشيخة افرنسه بدؤُهُ من ٢١ تشرين الثاني او ٢٢ حسب السنين) من السنة الثالثة عشرة لتكليل الامبراطور نابوليون الاول

ففي الغد صباحًا الساعة الخامسة (قبل الظهر بسبع ساعات) شاهد سكان رومة تلك القبة الهوائية تحوم فوق الواتيكان وبعد ان طافت حول الحقول برهة سقطت في بحيرة براشيانو فرأيتم اذًا ايها السادة ان القبة الهوائية تعادل هذه السرعة العجيبة

فقال ديك: نعم يا ايها العلاَّمة فان القبة توازي هذه السرعة واما الانسان فلا يتمكن من ذلك

قال فرغوسن: ولماذا فان القبة الهوائية غير متحركة بالنسبة الى الهواء المحيط بها وليست هي التي تمشي بل الهواء نفسه ولو شعلت شمعة وسط القبة المذكورة فلم يكن يرتج الضوء قط فيها ولو فرضنا ان راكبها انسان فلم يكن يذوق ادنى اضطراب او اختلاج. واما انا فليس من نيتي ان امتحن مثل هذه الامور بل اينما لقيت شجرة عالية ارسيت مركبتي عندها وبت ليلتي كلها وقد حملنا زادًا يكفينا مدة شهرين واذا طالت معنا الرحلة اكثر من ذلك فان

معنا صياد مشهور يغنينا بزاده اذا اشغل قليلاً

قال احد الضباط وهو ينظر الى ديك : سوف تشتهر في تلك البلدان بصيدك ياسيدي

فقال آخر : وفضلاً عما تشعر من اللذة وقت الصيد فان مساعيك ستتوجك بتاج النصر والمجد

فقال ديك : ايها السادة اتشكر . . . معروفكم . . . على تهنئتكم اياي ولكني لست اقبلها . . .

فقال كثيرون سوية : فاذاً لست عازم على الرحيل

قال : كلاً

فقال واحد : ولا تصحب العلاّمة فرغوسن

قال : ليس فقط لا اصحبهُ بل اني اتيت معهُ لاصدهُ عن مقاصده . فنظر جميع الحاضرين حينئذٍ الى العلاّمة فرغوسن كأنهم يستفهمون منهُ عن رائهِ في ذلك فقال ساموئيل : لا تلتفتوا اليهِ ولا تجادلوهُ عن ذلك . لانهُ يتظاهر انهُ لا يريد السفر ولكن في قلبهِ يعرف جيداً انهُ يسافر بلا شك

فصاح ديك وقال : وحياة رأسك سافعل . . واصدك . . .

فاردف فرغوسن قائلا : لن تفعل شيئاً يا ديك لانك معيّر وموزون بجسمك وبارودك وبواريدك ورصاصك فارجوك اذاً ان لا تقول شيئاً

فسكت ديك ولازم الصمت مذ تلك الدقيقة الى حين وصولهِ الى زنجبار ولم يعد يتكلم عن رحلتهِ ولا عن شيء آخر

الفصل التاسع

في وصول المسافرين الى زنجبار وارتقاء القبة الهوائية الى الطبقات العلوية

وكانت الريح موافقة لمسير السفينة ومياه البحر رائقة لا يهيجها هائج فكان اهل السفينة يتفالون بهذا على ان الرحلة الجوية تكون طبق الرحلة البحرية انتظاماً وهدوءاً وقد عيل صبر الملاحين لينظروا تلك الساعة التي فيها يركب العلامة ورفقاؤهُ المركبة الهوائية ولما دخل اليوم الخامس عشر من شهر نيسان ارست السفينة في مينا زنجبار وهي مدينة في جزيرة اسمها زنجبار ايضا وكان ذلك قبل الظهر بساعة

اما جزيرة زنجبار ففي زمام إمام مسكات حليف الدولة الفرنسية والانكليزية ويطرق ميناها سفن عديدة من البلاد المجاورة لها وهي مفروقة عن برّ افريقية ببرزخ ليس بمتسع وسكانها يتاجرون بالفراء والعاج وخاصة بخشب الانوس وهذه البلاد ايضاً مقرٌّ لبيع العبيد وسوقهم رائج فيها لان فيها تحتشد الغنائم التي يكتسبها رؤساء اقوام افريقية الوسطى بمحاربتهم بعضهم بعضاً ويعرضونها للبيع وهذه التجارة ممتدة جدًّا حتى عند ارياف النيل (١)

فعند وصول السفينة الى زنجبار اسرع قنصل الانكليز لاقتبال

---

(١) ان اهل الخير ساعون كثيرًا في هذه الايام في نسخ هذه العادة السيئة التي يستنكف منها كل قلب سليم وقد نجح مسعاهم اذ حرّمت تلك التجارة شرعاً ووُضع قصاصٌ على المخالفين

العلاّمة فرغوسن في منزله لانهُ كان عارفًا بمقصده بمطالعته الصحف الاوربية وهو من جملة الذين ادخلوا رحلته في طي الخزعبلات والخرافات واول ما شاهد العلاّمة وقرأهُ السلام قال لهُ: كنت في شك وعلى ريب من رحلتك ولكن تبين لي الان انك مزمع على تنفيذ اربك فزال مني الشك وتحققت نجاح مصلحتك

فطلب العلاّمة من القنصل استعلامات عن القبطان اسبيك السائح الانكليزي فبلغهُ القنصل تحاريره ورأى انهُ متعذب جوعًا وعياء وبالكاد يمكنهُ ان يقدم في المسير على الهويناء

فقال حينئذٍ ساموئيل: اننا بحوله تعالى سنتجنب هذه الاخطار والويلات ولا نرى منها ما ينقص رحلتنا

ولما تأهب العلاّمة لتنزيل قبته الهوائية من السفينة بلغ بعض الناس القنصل ان لا يفعل ذلك في المدينة لان سكانها يمانعونها بالقوة الجبرية ولعمري لا شيء اقبح من الشهوات المتعصبة تعصبًا لا طائل تحتهُ فانهُ لما عرف سكان الجزيرة بقدوم رجل مسيحي يريد ان يطير في الجو غضبوا اوحنقوا وهاجوا وماجوا اما الزنج فاخذ منهم الغضب اشد مأخذًا من العربان لانهم رأوا بهذه الرحلة ما ينافي دينهم وظنوا ان القبة تطير قاصدة الشمس والقمر وتضر بهما ويفعل راكبوها بهما ما شاؤا فكيف يتركون ذا الامر والشمس والقمر لديهما بمقام سام واعتبار فائق فصمموا النية على مقاومة هذا العمل بجميع قواهم وحرفهم

ولما علم القنصل بجميع ذلك اطلع العلاّمة وقبطان السفينة عليه اما قبطان السفينة فقال: لا يمانعنا شيء ولا نخشى احدًا. فقال لهُ القنصل: يا صاح اننا نفوز بالنصر والغلبة على العربان والزنج وخاصةً لان عسكر الامام يعدون لنا

ساعد الاسعـاف ولكن لا يخفى على حضرتك ان سهماً واحداً لذا اطلق على القبة اذهب بقوتها وفاعليتها وبطلت الرحلة فيلزم اذًا ان تتصرف بتأنٍ واحتراز علّنا نبدد هذه المصاعب ونزيلها

قال القبطان : وما العمل فاينما اردت ان تركب تجد نفس المانع

قال القنصل : لا شيء اسهل من انـكم تنقلوا القبـة الى الجزائر الصغيرة التي ترونها بعيدة عن هذه المدينة وهناك لا يصدكم احد البتة

قال ساموئيل : هذا رأي صحيح فاننا هناك نبقى احرارًا لا يستعبدنا العبيد باهوائهم الخسعة

وبعد ذلك الحديث توجهوا حالاً ونزلوا جزيرة كمبني وجعلوا القبة في بقعة فسيحة وسط غاب ثم صنعوا صاريَين كـبيرَين يبلغ طول الواحد ثمانين قدماً ووضع الواحد بعيداً عن الآخر بمسافة طول الصاري وفوقهما البكرات وعليهـا الحبال وهكذا رفعوا القبة وكانت اذ ذاك غير منفوخة والقبة الصغيرة داخل القبة الكبيرة وترتفع كما ترتفع هذه وادخلوا الانبوبة التي منها يدخل الإدروجن عند طرف كل من القبتين واما اليوم السـابع عشر من الشهر المذكور فقضوهُ في تجهيز الالة لاحصال الغاز وكانت مؤلفة من ثلاثين برميلاً وفيها يُحلّ المـاء ببرادة الحديد والحمض الكبريتي (اسيد سلفريك) الموضوعين في كمية وافرة من الماء والادروجن يصل قبلاً الى برميل في وسط البراميل بعد ان يُغسل في طريقهِ ومن هناك ينفذ في الانابيب حتى يصل الى القبة وهكذا تملأ القبتان بكمية محدودة من الغاز

وقد تطلب هذا العمل ثلاثة الاف ومائتي ليتر من الحامض الكبريتي والفين وستمائة وثلاثـة وسبعين رطلاً من الحديد وواحد واربعين الف ومائتي ليتر من المـاء فابتدأوا بهِ في الليلة التابعة واستمر نحو ثماني ساعات وفي الغـد

كانت تتمايل القبة في الهواء فوق الزورق وقد ثُقل عليها باكياس كثيرة من الرمل

ثم رفع العلاَّمة آلتهُ لامتداد الغاز وانقباضهِ باعتناء جزيل وبعد ذلك وضعوا في الزورق لوازم السفر كما ذكرناها قبلاً

وقد تمَّ هذا الشغل نحو الساعة العاشرة من النهار وكانت الحراس تسهر حول الجزيرة لئلا يطرقها احد من العبيد ام من العربان

اما الزنج في جزيرة زنجبار فكانوا يصيحون باصوات الغضب والحمق ويطوف السحرة فيما بينهم ويبثون فيهم روح الغضب واراد بعض المتعصبين ان يأتوا الجزيرة بالسباحة لكنهم مُنعوا عن ذلك حالاً

وبدأ الرقاؤن والسحرة حينئذٍ في المناداة الى السماء لتنزيل الامطار والحجارة الحارة (والحجارة الحارة بمعنى البرَد في تأويل اهل زنجبار) ولاتمام ذلك اخذوا اوراقاً من جميع اصناف اشجار المدينة وغلوها على نار خفيفة وفي غضون الغليان ذبحوا خروفاً وادخلوا في قلبه دبوساً كبيراً لكن السماء ما زالت رائقة رغماً عن طقوسهم المضحكة وما ربحوا الا خسارة الخروف واتعابهم الباطلة

فجعلوا وقتئذٍ يشربون المسكرات ويغني كلٌ على ميله بدون ترتيب ولا انتظام

ولما كانت الساعة الحادية عشرة من النهار اخذ المسافرون يتناولون الطعام وكان جالساً معهم القبطان وجميع الضابطة واما ديك فكان يدمدم في شفتيهِ ويتمتم بعض الكلمات الغير المفهومة وعينهُ كانت شاخصة دائماً بالعلاَّمة فرغوسن

اما الحزن فكان خاطاً رسومه على وجوه جميع الحاضرين لان الافكار

لنفذت في الانشغال من دنو الساعة العظيمة وبدأ جميعهم يرددون في فكرهم ما عسى يحلّ بهؤلاء المسافرين الابطال وهل يا ترى يعودون الى الاوطان ويشاهدون الاخدان واذا حلَّ بهم ويلٌ واضطروا الى النزول بين البرابرة فما تصبح حالتهم

اما العلاَّمة فرغوسن فكان يحاول ان يتخلص من الأسف الذي لاحت لوائحهُ على جميع الوجوه لكنهُ لم يستطع ذلك فتناقل بعض الكلام مع رفقائهِ ولكنها كانت عرية من كل رونق وزهاء

ولما امسى المساء ذهب العلاَّمة ورفاقه ورقدوا في السفينة لئلا تصيبهم مصيبة وعند الصباح والشمس اذ ذاك قد بزغت اشعتها والنسيم رخيم نزل جميع ركاب السفينة في الجزيرة ووقف عشرون ملاَّحاً عوضاً عن اكياس الرمل التي كانت ماسكة القبة

وفي تلك الساعة وقف ديك امام العلاَّمة وخاطبهُ قائلاً: أ عزمتَ عزماً ثابتاً على السفر

قال العلاَّمة: ولا شكَّ في ذلك

قال ديك: فاني قد بذلت جهدي لاصدك عن رحلتك وما بقي عليَّ عتاب ولا لائمة ولهذا ارافقك في رحلتك

قال العلاَّمة: كنت مؤكداً ذلك فلك الفضل الجزيل يا ايها الخليل

ولما وافت ساعة الوداع تعانق الاصحاب مع الاصحاب ثم ركب المسافرون المركبة نحو الساعة الثالثة من النهار فشعل العلاَّمة القصبة لتمتدّ الحرارة وسط القبة الطيارة وللحال ارتفعت هذه القبة عن الارض نحو عشرين قدماً اذ ارخى الملاَّحون شيئاً من الحبال التي كانوا متمسكين بها

ثم وقف فرغوسن ورفع البرنيطة عن رأسهِ وقال: فلنسمينَّ مركبتنا باسم

يوليها الحظ والسعادة ونلقبها المنصورة (فكتوريا) فصاح الجميع قائلين فلتحيي الملكة فكتوريا فلتحيي انكلترة

واذ نمت قوة الحرارة وقد ودع المسافرون رفاقهم الوداع الاخير قال ساموئيل : ارخوا الحبال جميعًا وسوية فارتفعت المنصورة الى العلاء واطلقت السفينة المدافع اكراماً لها واجلالًا للمسافرين فرنت اصواتها في الافاق



الفصل العاشر

في مرور المسافرين في بلاد عديدة ومبيتهم على شجرة الصبّار فوق جبل دوتومي

ولما ارتفعت المنصورة الى الاعالي كانت الريح لطيفة والجو رائقاً فعلت نحو الف وخمسمائة قدم فوق الارض بخط مستقيم وقد عرف ذلك ساموئيل من انحطاط البارومتر بخمسة سنتيمترات تقريباً (١) وعند وصولهم الى ذلك العلو تغيرت الريح قليلاً ودفعت القبة نحو جنوبي غربي افريقية

وكان يتراءى لاعينهم مشهد من اجمل المشاهد اذ ان الحقول بانت متجانسة الالوان والاشكال والاشجار المائلة الاوراق تعجب النواظر وجزيرة زنجبار كأنها بقعة مستوية الارض وسكانها كأنهم هوامٌ وتتصاعد اليهم اصوات صراخ متواصل من اهل تلك الجزيرة

فسأمت نفس يوسف من السكوت في تلك الفرصة فقال : يا لهُ من مشهد جميل تطيب لهُ الخواطر ويروق للناظر

فلم يجبهُ احد على مقالهِ لان العلامة كان مهتماً بمراقبة التغييرات البارومترية ويدقق الفحص عن تفصيل صعوده وغير ذلك اما ديك فكان يحدق النظر متأملاً ذلك المشهد الغريب العجيب حال وجوده في الفضاء بين الارض والسماء

ولما كانت اشعة الشمس شديدة الحرارة وازدت قوّة القصبة فعلت القبة

---

(١) كلما انحط البارومتر سنتيمتراً يكون راكب الهواء قد ارتفع مائة متر تقريباً

عن الارض نحو ٢٥٠٠ قدم

ولم تعد حينئذٍ تبين السفينة لديهم الّا كقارب صغير وكانت رغوة البحر الاحمر تخط وحدها تخم الافريقيـــة الغربي. والارض الافريقية ملطخـــة ببقع خضراء فقال يوسف لرفيقيهِ: ما بالكما لا تتكلمان فاخذ العلامة نظارة وبدأ يتطلع نحو الارض وقال: الآن وقت النظر فعلينـــا ان ننظر ما ينبسط لابصارنا

قال يوسف: اما انا فلا اطيق السكوت

فقال لهُ سيده: تكلم قدر ما تشاء فانك بالكلام جدير

وعليهِ طفق يوسف يُعبر عما ادركهُ من الاندهال بابراز كلما يعلمهُ من الفاظ الهتاف والعجب

وفيما هم يجوزون البحر اراد العلامة ان يلبثوا محافظين على ذلك العلو وكان امامهُ ترمومتر وبارومتر فيراقبهما دائمًا ليعرف على اية حالةٍ هم في الطبقـــات الجوية بل ويمعن النظر في هيئة جانب افريقية الشرقي

وما مضى ساعتان الّا ابلغت الريح القبة الطيارة الى فوق اليابسة واراد العلامة ان يقترب من الارض فخفف حرارة القصبة ونزل حالاً الى علو ٣٠٠ قدم فوق الارض وحينئذٍ وُجدوا فوق الجهة الشرقية المعروفة باسم مريما وهناك اشجار باسقة ملتفة الاغصان والورق ومعربسة العروق وفي الجهة الغربية كان جبل أنتورو

فمرت المنصورة بقرية عرفها العلامة قرية قَوْلَهَ سندًا على الرسوم الجغرافية الواردة في الخرطة الكبيرة التي جلبها معهُ وفيما هم فوقها سمعوا ضجيجًا وصراخًا عظيمًا من سكانها ومنهم من رشق القبة بالسهام فكانت تميس باعينهم عابثةً بسهامهم وبروعتهم ساخرة

وما زالت الريح تدفع القبة نحو الجنوب فرأى العلامة ان لا بأس بذلك فانهُ تابع الطريق التي سلكها القبطانان برتون واسبيك

اما كادي فحذى اخيرًا حذو يوسف واحب كثرة الكلام فاخذا يتاقلان الاحاديث ويقول الواحد للآخر كيفك يا صاح أليس انك تكره العربات والسفن برؤيتك هذه المركبة الهوائية فقال ديك حتى والسكة الحديدية فبحّ وافّ عليها لان الراكب يسير لكنهُ لا يشاهد ما يمرّ امامهُ

فقال يوسف: قل ما احلى القبة الطيارة فاننا نطير على اجنحة الهواء ولا نتعب ولا يشق علينا المسير والطبيعة منتشرة امامنا فنعاينها بابصارنا متأملين ونسبح رب العالمين

قال ديك: وما اجمل هذا المنظر وما احلاه وما ابهى هذه الطلعة البهية لعمري أكاد اظن نفسي غريقًا في بحر اضغاث الاحلام

فقال يوسف: ان عصافير بطني تصيح فهلاً تريدون ان نتناول طعامًا

فقال سيده: نِعمَ ما افتكرت بهِ فهات بنا نأكل

فاحضر يوسف الطعام حالًا وهو خبز ولحم مقدّد وبعدما انتهوا من الطعام قام الخادم وصنع قهوة لذيذة المشرب حسب معرفتهِ الخاصة وذاق جميعهم لذة افراح سليمة تطيب لها الخواطر

ثم اخذ كلٌّ منهم ينظر الى تلك البلاد ويتأمل بها فكانت بغاية الخصب والريعان ومزدانة بوساد الخضرة والازهار ثم مرّوا بحقول مزروعة تبغًا وذُرة وشعيرًا وهي بالغة ناضجة وشاهدوا ايضًا قطعان غنم كثيرة العدد محفوظة ضمن دائرة لتبقى آمنة من غوائل الضباع وكلما مروا بسكان قرية سمعوا ضجيجًا واصوات حنق تتصاعد الى المنصورة . اما العلامة فما زال مرتفعًا عنهم

بمسافة لاتبلغ اليها السهام وكثيرًا ما لحقها الناس وهم يقذفونها بالشتائم واللعنات لكنهم لا يدرون ما يفعلون وما ابلد فعلهم

وعند الظهر تطلع ساموئيل برسومة الجغرافية فرأى انهُ فوق مدينة اوزارامو وفي هذه الناحية ايضًا كان الزرع كثيرًا والخضار فارشة تلك الارض والطيور تصدح بالانغام على الاشجار فتمنى ديك لو انهُ استطـاع ان يصطاد منها شيئًا ولكن ما الفائدة اذ لا يطيق احضارها ولو ضربها بالرصاص

وكانت القبة الطيارة تسير مسافة ١٢ ميلًا افرنجيًا في الساعة ولم تمضِ مدة الّا وصلوا الى طول ٢٠°٣٨ فوق قرية طُندا

فقال فرغوسن يا رفاق انظرا فان برتون واسبيك اتليـا بالحمى في هذا المحلّ وظنا ان اتعابهما السالفة ذهبت هدرًا ولا يستفيدان شيئًا من بعد فاذا كان التعب والضنك اعيـاهما بوصولها الى هنـا فكيف اذًا بتقدمهما نحو ينابيع النيل واضطرارها الى خوض البطاح والمفاوز التي لا حدّ لها ولا قياس

وكثيرًا ما مرّوا باقوام متسلحـين بالمكاحل ووراؤهم يتبعون المنصورة بقصد رشقها بالسهام . فاراد ديك مرة ان يقترب اليهم ليشاهدهم عيانًا فمانعهُ العلامة وقال : ألّا تعلم انهم اذا ضربونا بسهمٍ وخرقوا القبة تبدد الغاز وسقطنا على الارض متهورين

فقال ديك : دعنا اذًا بعيدين عن هولاء الجـاهلين ولكن يا ترى ماذا يحسبوننا ونحن طائرون في هذا القضاء الفسيح فلا بد انهم يعبدوننا

قال ساموئيل : دعهم يعبدوننا عن بعدٍ فاننا بذلك نربح الاضعاف ولكن الا ترى الان كيف تمرّ القرى والضياع فعن قريبٍ نصل الى جبال لا سكان فيها ولا خضار

قال : في الحقيقة اني ارى بعض الاكـام نحو تلك الجهة

قال سامويل : وعن قريب نرى سلاسل جبال اوريزارا وجبل دوتومي واومل ان نقضي ليلتنا وراءهُ ولكن ينبغي لنا الان ان نزيد حرارة القصبة لنرتفع الى علو خمسمائة او ستمائة قدم فنجوز بذرى الجبل بسهولة

ولما ارتفعوا الى العلاء شاهد يوسف اشجاراً باسقة عظيمة فقـال ويلاه ما اعظمها واجسمها فان عشرة منها تكفي لان تؤلف غاباً او حرشاً

قال فرغوسن : هذا شجر البواباب فان منها ما لهُ جزع تبلغ دائرته نحو مائة قدم وانظروا هذه الشجرة العظيمة فعليهـا رُبط الفرنسي مزان سنة ١٨٤٥ واخذ رئيس القوم الذي القى عليـهِ القبض في ان يقطع مفاصله شيئاً فشيئاً وكانت الخدام اذ ذاك يرتلون ترتيل الحروب ثم حسم حنجرته واخيراً انتشل رأسهُ وكان للفرنسي مزان من العمر نحو ٢٦ سنة فأُفٍّ على هذه القسـاوة البربرية التي تستنكفها القلوب ولا يطاق سمعها

فقال كنادي : وكيف ان الامة الفرنسية لم تنتقم لهذا الاثم الفظيع

قال ان الامة الفرنسـية طلبت القاتل فعمل سعيد زنجبار ما عمل وبذل اقصى جهده فلم يحظى بالقاتل

ولما كانت الساعة السـادسة ونصف بعد الظهر قابلت المنصورة جبل دوتومي فاضطر العلامــة الى ان يرفع القبة الى علو ثلاثة الاف قدم وهكذا مروا بالجبل ولم يمسهم ضرّ البتة

وفي الساعة الثامنــة بعد الظهر نزلوا المنحدر المقابل للجبل ورموا حينئذٍ المراسي فتعلق احداها باغصان شجرة صبار عظيمة وبقت متمسكة بها . ثم نزل يوسف الخادم بحبل المرسى ومكنهُ تمكيناً ولما اراد الرجوع الى الزورق أُنزل لهُ السلم الحريري فعـاد الى مكانهِ بكل سهولة ثم اخذوا يهيأون العشـاء لان الطبقات الجوية فتحت منهم القابليــة فسأل ديك العلامة وقال كم جزنا من

المسافة في هذه المدة

فاخذ العلامة يفحص عن ذلك في الرسم الجغرافي المسطر من صاحبه بترمان وهو في غاية الضبط والدقة فرأى انهُ انتقل الى درجتين عرضاً وهما مسافة مائة وعشرين ميلاً

وفيما هم يتناولون الطعام تفاوض بعضهم مع بعض على ان يقسموا الليل الى ثلاثة اقسام وكلّ واحد منهم يسهر في قسم والاثنان يرقدان براحة فسهر العلامة في القسم الاول وكنادي في نصف الليل ويوسف عند الفجر

الفصل الحادي عشر

في حُمّى ديك ودوائها ونزولهِ الى الارض،
مع يوسف طلبًا للصيد

فمضى الليل كلهُ بالهدء والاستكانة ولكن لما اصبح صباح السبت نهض ديك من الفراش وقد حسَّ بتعبٍ وخمول قوّة ورجفة حمى وكان قد تغير الفلك وتبقعت السماء بالسحب وتهددت الارض بالغيث والعواصف اما تلك النواحي المعروفة باسم زنغمرو فلا تزال فيها الامطار متواصلة في جميع فصول السنة الّا في شهر كانون الثاني فانها تنقطع مدة نحو خمسة عشر يوماً

وما مضت برهة الّا هطلت الامطار وسالت السيول في تلك الوديان

فقال يوسف: وما ادرى ما هذه البلاد فاني ارى ديكاً منحرف الصحة بعد مرور ليلة عليهِ

فقال الصياد: في الحقيقة اني اشعر بحمى شديدة

فقال ساموئيل: لا بدع في ذلك يا صاح لان هواء هذه البلاد من اسوء ما يكون في البلاد الافريقية وليس مرادنا البقاء فيها بل هيوا بنا نسير الى اعلى الطبقات الجوية

وفي الحال نزل الخادم ورفع المرسى ثم عاد الى محله ووفرّ ساموئيل حرارة الغاز فتصاعدت المنصورة الى الاعالي وهي مدفوعة بريح شديدة

ولما اندفع الى ما قدام اخذت البلاد في الاتسام بهيئة جديدة ومن الامور الكثيرة الحدثان في الاقطار الافريقية ان بلاداً نظيفة وحسنة الاهواء

تتأخم بلاداً سيئة المناخ والاهواء

وما زالت الحمى تعذب الصياد عذاباً اليماً فالتحف بالحاف قائلاً : الآن ليس وقت الضعف فما لي وله

فقال فرغوسن: مهلاً يا ديك عليك ان تعتصم بحبل الصبر قليلاً وعليّ ان ابرئك بعد برهة بقدرة المولى

فتعجب ديك من هذا المقــال وقال لعمري : اذا كنت طبيباً وعندك الادوية والعقــاقير فارجوك ان تُداويني حالاً لان صبري قد عيل واحب ان اكون سالم الصحة في هذا الرحيل

قال ساموئيل: ساداويك بدواء لا يكلفني شيئاً

قال: وكيف ذلك

قال: ولا اسهل من ذلك فاني عازم على ان ارتقي فوق هذه السحب وابتعــد عن هذه الطبقة الوبائيــة فقط ارجوك ان تصبر عليّ عشر دقائق لأنشر الغاز

وما مضت الدقائق العشر الّا ارتقت القبة فوق الطبقة الرطبة واشتم ديك نسيم هواء رخيم ينعش الفؤاد فترمم حالهُ ورأى نفسهُ مقبلاً على الصحة

فقال يوسف: لعمري ان هذه الادوية العجيبة

قال العلامة: بل هو امر طبيعي لا عجب فيهِ

قال يوسف: جنابك اعلم بذلك

قال العلامة: كما ان الاطبــاء توعز الى المرضى ان يرتحلوا من محلات الاهواء السيئة الى محلات الاهواء السليمة ليشتموا رائحتها وينتعشوا بها هكذا انا ارفع ديك الى طبقات الهواء السليم ليشفى من دائهِ

فقال ديك: وما اجمل من هذه المركبة الهوائية فانها كفردوس ارضي

قال يوسف: لا بل تهدينا اليهِ

اما المرأى الذي انبسط لاعين الطائرين فكان بهياً جميلاً اذ السحب تطاوي بعضها على بعض وتنعكس اشعة الشمس عليها فتجمل منظرها ثم ارتفعت القبـة الى علو اربعة الاف قدم ولم يعودوا ينظرون الارض بل شاهدوا في الناحية الغربية ذرى جبـال روبيهو وهي على حدود بلاد اوغوغو في درجة ٢٠°٣٦ طولاً. اما الريح فكان مهبها شديداً وتدفع المركبة الى عشرين ميلاً في كل ساعة اما هم فلم يشعروا بسرعة مسيرهم بل كأنهم جالسون على هودج لا يحركهُ محرك

وعب مرور ثلاث ساعات تم انذار العلامـة فرغوسن ويُرى ديك من مقمهِ تم فطر بقابلية ومسرة

ثم قال: هوذا ما اعتضت به عن سلفات الكينا وعندي انهُ افخر منهُ

قال يوسف: نعم الهواء هواء هذه الطبقات وان شاء المولى سآتي اليها لاقضي فيها آخر ايام حياتي

ولما كانت الساعة الثالثة من النهـار صحت السماء وتبددت السحـب في الافاق فشرعت المنصورة تدنو من الارض شيئاً فشيئاً واراد سـاموئيل ان يجد ريحاً تقيدهُ الى شمالي شرقي افريقيـة فوجدها في علو ٦٠٠ قدم فوق الارض وعب مرور برهة بان امامهم جبل

وفي تلك الساعة اخذت ذرى الصخور في الارتفاع واقتضى الحـال ان يتحذروا في كل دقيقة من رؤوس بعض الصخور التي كأنها تهددت المركبة

فقال ديك: ان قبتنا فيما بين هذه الصخور كالسفينة التي تسير بين الصخور المتوارية في المياه

قال العلامة: طمن بالك يا ديك فان هذه رؤوس الصخور لا تمسنا

فاخذت المنصورة تمرّ بين ذرى الصخور والجلاميد ولا يمسها ضرر ولا عارض

ثم قال فرغوسن: لو كنا سرنا مشاةً في هذه الاراضي المائية لخضنا في في بحر حماة لا منـاص منهُ ولا مفر ولكانت تضورت دوابنا عياءً وتعباً مُذ خروجنا من زنجبار الى هذه الناحيـة وكنا اصبحنا ضعفاء الجسم نحيفي البدن وهيهات ان يجلدنا الصبر ويولج فؤادنا التجمل وأنّى مني من احصاء المصائب الكثيرة والمشاق العديدة التي تحيق بالمسـافرين في النهار حرٌ لافح مضنك يكاد المرء لا يطيق احتمالهُ وفي الليل برد قارس يلسع الجسم فلا يتمكن من مقاساته ومع هذا كلهِ لا تخلو من الذباب التي قيل عنها انها تخرق الاقمشة واذ لسعت البدن خبلت عقل الانسـان هذا مع قطع النظر عن الوحوش الكاسرة والاقوام البرابرة

قال يوسف: اسأل لطف المولى ان لا يرميني في هذه المهوات

قال سـاموئيل: لعمرك اني لم ابالغ في الوصف بل اذا سمعت قصص السواح ورواياتهم في رحلاتهم الافريقية اغرتك على سكب بنات العيون من الجفون

ولما كانت الساعة الواحدة قبل الظهر مروا ببحيرة إمنجي والاقوام اذ ذاك في تلك النواحي يتهددون المنصورة بالسلاح فلم يظفروا بالنجاح ثم وصلوا الى الارض المعوجة الكائنة قبل جبل روبهو وهناك السلسلة الثالثة السامية من جبال اوزاغارا

فاخذوا يتأملون جيداً هيئة تلك الجبال فكانت الاقسام الثلاثة مفروقة بعضها عن بعض ببطاحٍ فسيحة وبين الصخور والجلاميد ترى الحجارة والحصى مشتتة ومبعثرة. فالجهة المقابلة لزنجبار هي ذات منحدر وعر جداً واما في الجهة

الغربية فالمنحدر لا يشبههُ بل هو ساحات منحنية قليلًا ولا تخلو من الجداول التي تصب في نهر كنغاني في الجهة الشرقية حيث اشجار الجميز وتمر الهندي والنخل والقرع متكاثرة بل على هيئة رياض

فقال فرغوسن : علينا الان ان نأخذ حذرنا من هذا الجبل العالي وهو جبل روبيهو الذي تأويلهُ في عرف اولئك الاقوام (مرور الرياح) فينبغي لنا ان نرتفع الى العلاء وعلى ظني اذا ما وصلنا الى علو ٥ الاف قدم فقط فلا نجو من الخطر ولا نظفر بالوطر

فقال يوسف : وهل كثيرًا ما يقتضي الحال ان نصعد الى مثل هذا العلو الشاهق

قال فرغوسن : كلاَّ لان جبال افريقية ليست بسامية الارتفاع كسائر جبال اوربا واسيا اما نحن فالنا ولها اذ اننا نعبرها بقبتنا دون صعوبة وعلى الاثر اسعر العلامة النار فازدادت الحرارة ودفعت القبة دفعًا هائلًا حتى اوصلتها الى علو ستة الاف قدم

فسأل الخادم سيده قائلًا : أنجوز هذا الحدّ من العلو

اجاب ساموئيل : اذا كانت القبـــة كبيرة فيتمكن الانسان من الصعود الى درجة اسمى من هذه كما فعلهُ بريوسكي وغاي لوساك ولكن اخذ الدم يمج من انافهما واذانهما وعدما التنفس ومنذ بضع سنين تجرأ رجلان افرنسيـــان على الارتقاء الى الاعالي فاخترقت قبتهما . . . .

فسأل ديك حالًا وقال : هل سقطا على الارض

قال ساموئيل : لا شك في ذلك لكنهما سقطا سقوط العلماء الذين لا يمسهم ضرر البتة في سقوطهم

فقال يوسف : ســـادتي انكم احرار اذا اردتم تجربة هذا الامر اما انا

فلست بعالمٍ بل جاهلٍ واوثر ان ابقى في الحالة الوسطى وقد قيل حب التناهي غلط خير الامور الوسط ولا اود ان ابقى في علو باسق ولا في وطوء دني فان الطمع ضرٌّ ما نفع

ولما بلغوا علو ستة الاف قدم اخذ يخف ثقل الهواء ولم يعد الصوت ينتقل الّا بصعوبة كلية واختلطت الاشياء على بصرهم فامسوا لا يشاهدون الّا اجراماً غير مخططة ولا تبين الطرق الّا كشباكٍ والبحيرات الّا كاحواضٍ

وكان الهواء الجوي يدفعهم فوق الجبال المكسوة ذراها بالثلوج كانها باقية على حالتها الاولى من يوم خلقها المولى سبحانهُ وتعالى

فرسم فرغوسن هيئتها وجميع ما يجاورها بتمام الضبط والدقة

ثم نزلت المنصورة الى منحدر جبل روبيهو وكان هناك غاب واحراش فيها من الاشجار اعظمها والخضار اعجبها واغربها فدنا ساموئيل من الارض والقى المراسي فتعلق احداها بشجرة جميز . ثم نزل يوسف ومكنهُ باعتناء وترك ساموئيل القصبة في حالة الحرارة ثم قال للصياد : اذهب للصيد انت ويوسف فعليكما ان تاخذا سلاحكما وتصطادان ما يحلو لخاطركما لنغتذي الان بين هذه الاحراش وننشرح برهةً

فنزل حالّاً الى الارض ولما خفت القبة ثقلاً تمكن فرغوسن من اطفاء نار القصبة

فقال لهُ يوسف من اسفل : حذارِ يا سيدي ان تطير وتتركنا

فقال فرغوسن : كن على راحة بال فان القبة متمكنة جداً فاذهبا بالسلام فاني اتمنى لكم النجاح والتوفيق ولكن كونا على حذرٍ دائماً واذا ما دهمني داهٍ فاني اطلق الرصاص حالّاً فيكون ذلك علامة لاقتضاء حضوركم السريع . وهكذا تم الاتفاق وانطلق الاثنان للصيد

الفصل الثاني عشر

في هجوم الصيادين على القبة الهوائية ووصول المسافرين الى كازه

اما الارض التي كانوا يسيرون فيها فكانت من فخار وهي تتشقق من الوضاء (شدة الحر) وشاهدوا فيها بعض اثار القوافل وشيئاً من عظام الحيوانات والناس معاً

وبعد ما مشوا نحو نصف ساعة ولج يوسف وديك غاباً ذات اشجار متنوعة وهما يرصدان طيراً ام حيواناً آخر ليصطاداهُ ولم يكونا يعرفان ما هي اجناس الحيوانات والطيور الموجودة في تلك النواحي

فقال يوسف : ان لنا نفعاً في مسيرنا على اقدامنا ولكن يا ليت هذه الارض سهلة وحسنة الانتظام

اما ديك فأومى اليهِ بالسكوت والوقوف لانهُ نظر عن بعد بعض الحيوانات الشبيهة بالايل واراد ان يكمن لها لكنهُ لم يدنُ منها قليلاً الّا احست بالخطر المحيق بها . فكانت واردة مورد الماء لتستقي منهُ فعند احساسها بدنو عدوها شرعت تلعق لعقةً وتنظر الى الهواء اما ديك فتوارى عنها ودار حول صخرٍ ثم اورى زناد سلاحهِ فولت جميعهنَّ مدبرات ولم يصب سهمهُ الّا واحدة منهن فسرَّ سروراً بليغاً لهذه الغنيمة الفاخرة ولما اقترب اليها رأى لونها ضارباً على الزرق واللون الرمادي وبطنها مع ساقيها ذات لون ابيض اشبه ببياض الثلج

فقال ديك لصاحبهِ : لله هذه الالوان ما اجملها فان مرادي حفظ جلدها

قال يوسف : ولماذا يا ديك

قال ديك : أما ترى هذا البهاء والجمال

قال يوسف : اما ترى انت ان هذا حملٌ يثقل على صاحبنا فرغوس اذ انهُ يفسد موازنة قبته

قال ديك : هذا صحيح ولكن يشقّ عليّ ترك هذا الحيوان

قال يوسف : كلاّ لا نتركهُ كلهُ بل نستنتج منهُ اولا ما يقيتنا وينفعنا ثم نترك ما تبقى واذا شئت هيأت لك الان لحمانهُ

قال ديك : افعل ما تشاء وتريد وانا ايضا لا يصعب عليّ تهيئة لحمانه كما لا يصعب عليّ صيدهُ بالرصاص

قال يوسف : لا ريب في ذلك ولكن اتركني اتحمل الان هذا التعب فيما تهيأ لي وجاقًا على ثلاثة حجارة وبعد ذلك تكلف خاطرك بجمع قليل من الحطب لنورث النار ونشوي عليها اللحمان

قال ديك : على الرأس والعين فان جميع ما امرت بهِ يتمّ برمشة عين

واخذ حالًا بانشاء الوجاق ولم تمضِ برهة الّا جمع الحطب واشعل النار فصعد لهيبها وطار شرارها وكان يوسف قد انتشل من جوف الحيوان السلسلة وغيرها من اللحمان الطرية وجعلها على النار لتشوى

وفيما هما على هذه الحال قال ديك لرفيقهِ : أتعرف ما خطر في ذهني

قال ديك : خال في ذهنك ان اللحمان ستنضج عن قريب وهي شهية للطعام

قال يوسف : كلاّ بل طرق ذهني فكر وهو انهُ ما عسى يحلّ بنا لو

ذهبنا ولم نشاهد القبة الطيارة

قال ديك : وما هذا الفكر الذي تفتكر بهِ أتظن فرغوسن يتركنا في هذه البلاد

قال يوسف : كلاَّ فليس الامر كذلك ولكن على فرض ان المرساة فلتت من الشجرة فترتفع القبة ويصعد معها مولاي

قال ديك : ومن المحال ان يفلت الانجر على هذا الحال وهبهُ جرى فان العلاَّمة سينزل في مكان اخر لينتظرنا ولعري ان آلتهُ من افخر الالات واحكمها ترتيباً وانتظاماً

قال يوسف : ولو هبت ريح شديدة فانها تدفعهُ الى حيث لا يمكننا الوصول اليهِ

قال ديك : ارجوك الصمت يا مبشراً بالسوء فان حديثك هذا لا يبسط الخاطر

فقال يوسف : يا سيدي ان جميع ما يحدث في هذا العالم هو طبيعي والحال كل امرٍ قابل للحدوث فاذاً ينبغي على المرء ان يأخذ حذرهُ قبل فوات الفرصة

ولم ينتهِ ديك من التفوه بهذه الكلمات الّا دوت طلقة بارودة في الافاق

قال ديك : مَه تُه يا يوسف . ما الذي ناب فرغوسن ليطلق الرصاص

قال : ربما احاق بهِ خطرٌ هلمَّ اليهِ راكضين

فجمع الرفيقان ما كان جهزاه من للصيد وعلقا على المسير نحو القبة الطيارة وكانت الاشجار المتكاثفة في ذلك الغاب تمنعهما عن مراقبة القبة عن بعدٍ ولم تمضِ برهةٌ الّا أُطلقت رصاصة اخرى

فقال يوسف : العجب العجاب الظاهر ان الخطر مبين فيجب علينا العجلة كيف ترى يا خليلي

قال : هلمَّ فلنسرع واظن انهُ يدافع عن نفسهِ

ولما قطعوا الغاب شاهدوا القبة الهوائية مرتكزة في محلها والعلامة ساموئيل جالساً على مركبتهِ

فقال ديك : ربي ما هذا وما الذي خطر ببالِ فرغوسن

قال يوسف : أما ترى هنالك السودان المحيطين بالقبة

فتطلع ديك جيداً فشاهد عن بعد نحو ثلاثين شخصاً يزاحم بعضهم بعضاً وهم يعزّون ويصيحون ويتسلقون على شجرة الجميز ومنهم من كان قد ارتقى على الشجرة واخذ في التقدم نحو الاغصان العالية فكان الخطر على القبة مبيناً

فقال يوسف : اواه ما هذا الخطب لسيدي

قال ديك : لا تخف بل ارمع في مسيرك وهرول راكضاً فانّا بحولهِ تعالى سنبدد شمل هؤلاء الاعداء قبل وصولهم الى فرغوسن فهيا بنا هيا

ثم أُطلقت رصاصة اخرى فاصابت حبشياً كان يتسلق على حبل المرساة وفي الحال شاهدا جسماً ميتاً تساقط من غصن الى غصن الى ان بلغ علو عشرين قدماً من الارض فتعلق جسمه في العلاء وتزلت ذراعاه وفخذاه تتذبذب في الفضاء

فقال يوسف : يا ويلاه وباي حبل يعتصم هذا القرد الكبير

قال ديك : مالك ولهُ فقد قربنا من القبة

قال يوسف : وهو يقهقه ضحكاً أما ترى يا ديك انهُ معتصم بحبل ذنبهِ فانهُ سعدان وجميع هؤلاء السود هم سعادين

وفيما هما يتثاقلان هذه الاحاديث اذا وصلا اليهنّ فدخلا فيما بينهنّ ورياهنّ شرذمة من السعادين البالغين في التوحش والبربرة ولهنّ انياب هائلة كانياب الكلاب فأخذا يطلقان عليهنّ الرصاص فبددا شملهنّ وطرحا على الحضيض كثيرًا منهنّ

ثم دنا كادي من القبة وارتقى الى المركبة على السلم واما يوسف فتوارى بين اغصان الجميز ليحلّ المرساة ثم اقتربت اليهِ المركبة فدخلها بسهولة وفي الحال ارتفعت القبة الى الاعالي واتجهت نحو الشرق بقوة هواء لطيف

فقال يوسف: لقد نجونا من معركة شديدة

قال ديك: كنا قد ظننا انك محتاط بقوم من السودان

قال فرغوسن: ولا يختلفون عنهم كثيرًا اسمًا وفعلًا اذ انهم سعادين

قال ديك: لا يمكن تمييزهم عن بعد

قال يوسف: حتى ولا عن قرب

قال فرغوسن: وعلى جميع الاحوال فانّا نجونا الان من خطب جسيم لانهُ لو فلتت المرساة من الشجرة بحراك السعادين فلا اعلم الى اين كانت اخذتني الرياح عنكم

قال يوسف لديك: اما قلت لك ذلك من برهة

قال ديك: لقد اصبت في ظنك هذا ولكن لا يخفى عليك اني كنت وقتئذٍ مهتمًا بتجهيز لحمان الصيدة ومشتاقًا لمناولة ذلك الطعام الشهي الناضج

قال فرغوسن: بالحقيقة ان لحم هذا الحيوان الشبيه بالايل لذيذ وتشتهي النفس اكلهُ

قال يوسف: ذُق منهُ اذا شئت يا سيدي فانهُ حاضر واحكم لنا بصحة الامر

قال الصياد : نعم ان هذه الحيوان وحشية لكنها انيسة للحنجرة ولا تمجها المعدة

فقال يوسف وهو يأكل : لعمري اني ارضى بان يكون لحم هذا الحيوان قوتي اليومي الى اخر يوم من حياتي ولكن ما الذه اذا كرع معهُ بعض جرعات من العرق اللذيذ ليحسن هضمهُ في المعدة

وفي الحال احضر شيئًا من هذا الشراب وناول رفاقه ثم تجرع حصتهُ وفي تلك الساعة سأل فرغوسن صاحبهُ ديك وقال قل يا صاح ما رأيك الان هل ندمت على مرافقتنا

فاجابهُ ديك وقال : لعمري ما من احدٍ كان يطيق ان يمنعني عن مرافقتكما ومساعدتكما

وكانت تلك الساعة الرابعة بعد الظهر فهبت ريح واسرعت المركبة مسيرها فكانوا يشاهدون الارض كأنها ترتفع امام اعينهم فدلهم البارومتر على انهم في علو ١٥٠٠ قدم فوق مساواة مياه البحر فاضطر العلامة الى ان يزيد حرارة القصبة لئلا تقرب القبة من الارض وعند الساعة السابعة حامت القبة فوق بحيرة كيامه وعلم فرغوسن من رسومه الجغرافية انهم في اراضٍ تأسست فيها حديثًا بعض القرى المنشئة بين اشجار البوباب وغيرها وهناك مقر احد سلاطين أُغوغو حيث خف التوحش على وجهٍ من الوجوه . لانهُ قلما باع فيها احدٌ عضوًا من عيلتهِ . اما الناس فيسكنون هناك مع البهائم وليس لمنازلهم ترتيب ولا انتظام بل كأنها اكواخ حقيرة تُشبه كراديس عشب يابس

وبعد ان جازوا بحيرة كيامه مرُّوا بأرضٍ صخرية ومحجرة الى ان بلغوا ارضًا ذات خضارٍ وزرعٍ رطبٍ ولكن كان الهواء مستكنًا ورأيت القبة واقفة غير متحركة

فانتهز العلامة هذه الفرصة الملائمة ليقيم الليل كلهُ في الجوّ اذ ليس ما يحرك قبتهُ فيستريح ورفاقه في الطبقات العلوية باستكانة وطمانينة ولذا قد ارتفع عما كان عليهِ علو الف قدم فكانت السماء اذ ذاك رائقة وفي كبدها تتلألأ النجوم والكواكب فسبح الجميع مولاهم على عجيب خلائقهِ ورقد الصياد مع يوسف لان النوبة الاولى كانت على فرغوسن ولما دخل نصف الليل ايقظ فرغوسن ديكا وفوّض اليهِ المحافظة واوصاه ان يكون حريصاً واميناً في وظيفتهِ واوعز اليهِ ان اذا دهمهُ ادنى عارض فعليهِ ان يوقظهُ حالاً من فراشهِ وقال لهُ اياك ان ترفع لحاظك عن البارومتر لانهُ لنا بمنزلة البوصلة

اما الهواء في تلك الليلة فكان بارداً لان ميزان الحرارة نزل ٢٨ درجة عن حرارة النهار وما زالت الحيوانات الخارجة من مرابضها هرباً من الجوع والعطش تضج وتصيح اثناء الليل والضفادع تنق في مراقدها وابن اوي ينبح ويعوي

ولما اصبح الصباح واستفاق الرفاق من الرقاد نظر فرغوسن الى البوصلة فعلم ان الهواء تبدل وتغير اتجاه القبة الطيارة لانها منذ ساعتين من الصباح اختطت مسافة ثلاثين ميلاً في الجهة الشمالية الغربية وتطلع برسومه الجغرافية فعلم انهُ مارٌّ ببلاد مابنغورو المحجرة وقد شاهد المسافرون فيها من حجر السيناء ذات الصقل الجميل وصخوراً كثيرة محدبة ومتنوعة البناء والخطوط وعظاماً مشتتة ومبعثرة من الفيلة والجواميس ولم يشاهدوا فيها شجراً بل عن شمالهم قامت احراش وغابات متسعة ووراءها بعض القرى والضياع

وعند الساعة السابعة تراءى لاعينهم صخر مستدير ذات مسافة ميلين شبيه بترس سلحفاة عظيمة

فقال العلامة فرغوسن : الحمد لله انا في سبيل الهدى وطريقنا مستقيمة

وها هي بلاد جيهو لمكوًا فلي رغبة في ان احلّ بها برهةً لاجدد زاد الماء الضروري لآلتي فلنجرب اذًا ان نتعلق بمكان

فقال ديك : قلما يوجد اشجار في هذا المقرّ

قال : علينا ان نجرب علنا نتعلق بخلل صخر واوعز الى يوسف ان يلقي المراسي فالقاها ولما كانت القبة قد فقدت شيئًا من قوّتها الرافعة دنت من الارض واذا بمرساة تمسكت بنقب صخرٍ فوقفت المنصورة ثابتة غير متحركة

فلا يظن القاري انهُ صاغ للعلامة اخماد الحرارة في حالة وقوفه لان موَّنة القبة حُسبت على مساواة سطح البحر والحال ان تلك البلاد هي في ارتفاع وقد بلغوا فيها علو ٦٠٠ الى ٧٠٠ قدم عن سطح البحر فعلى هذا المنوال كانت القبة تميل الى النزول وقد التزم العلامة ان يترك الغاز شاعلًا قليلًا ليحافظ على لونه في ذلك العلو من الارض

وقد نظر العلامة فرغوسن الى الرسوم الجغرافية فعرف انهُ في الجهة الغربية من سفح بلد جيهو لمكوًا حيث يوجد بعض غدران ماء فذهب اليها الخادم وحدهُ حاملًا برميلًا صغيرًا وقد شاهد المحل الذي دلهُ عليهِ فرغوسن فاملأ البرميل واتى بهِ المركبة بعد مرور نحو ثلاثة ارباع الساعة ولم يشاهد في طريقهِ شيئًا غريبًا خصوصيًا الّا حفرًا واسعة لايقاع الفيلة وقد كاد يهوى في احداهنّ

وقد احضر معهُ جنسًا من البرسيم وهو خضرة كانت تأكلهُ السعادين بتلهف فعرف العلامة ان هذه الخضرة تعرف بافريقية باسم امبنبو وهي كثيرة الوجود في نواحي جيهو لمكوًا الغربية وقد انتظر فرغوسن خادمهِ بقلق لانهُ كان يخشى من طارئ يطرأ عليهم في تلك البلدان التي لا يراعى فيها ذمام الغريب وليس لهُ امان على نفسهِ

ثم وضعوا البرميل في المركبة بكل هينة لانها كانت قريبة الى الارض

كثيراً وبعد ان رفع يوسف المرساة طلع الى المركبة وجلس امام سيده فأُضرم لهيب القصبة وامتد الغــاز وارتفعت المنصورة سائرة في طريق الرياح وكانت المركبة اذ ذاك بعيدة عن مدينة كازه ذات الاهمية العظيمة في اواسط افريقية نحو ٥ائة ميل وقد رجا المسافرون ان يصلوا اليها في النهــار ذاته نظراً لوجود الرياح الجنوبية الشرقية وكانت المركبة تسير مســافة ١٤ ميلاً في الســاعة ولكن قد صعب على فرغوسن في تلك الدقيقة ادارة مركبته لانهُ لم يكن يمكنهُ ان يرتفع الى علوٍ باسق بدون ان يمد الغاز كثيراً لان تلك البلاد كانت شامخــة الارتفاع وعلوها الاوسط ٣٠٠٠ قدم فبذل ساموئيل غاية مجهودهُ لان لا يمد الغاز كثيراً وقد مرَّ بجبال واكـــام كثيرة ثم بقريتي طمبو وتوراولس وهذه القرية كانت ببلاد اونيام وازى فيها الاشجار الباسقة ومنها شجر شبيه بالصبير يرتفع الى علو شاهق

ولما كانت الساعة الثانية بعد الظهر وكـــانت السماء صاحية حامت المنصورة فوق مدينة كازه الكائنة في مسافة بعيدة عن ساحل البحر بثلاثمائة وخمسين ميلاً

فتطلع فرغوسن وقتئذٍ في مفكراتهِ وقال رحلنا من زنجبـــار الساعة التاسعة صباحاً وبعد ان سرنا يومين طفنــا مسافة ٥٠٠ ميل جغرافي اما القبطانان برتون واسبيك فلبثا مقيمين اربعة اشهر ونصف يسيران في الطريق نفسها التي مررنا بها

الفصل الثالث عشر

في مدينة كازه وسوقها واولاد القمر وهيئة رقصهم وعادة قوم تلك البلد ليوسف وظهور قمرين في البقعة السماوية

اما كازه فليست بحصر الكلام مدينة (لان ليس مدينة في اواسط افريقية) بل هي مركز ذات اهمية جزيلة في افريقية الوسطى لكنها ليست الّا مجموع ست اودية وفيها عدة اكواخ لمأوى اصحابها وشاهدوا بعضًا منها محتاطًا ببساتين مزروعة بصلًا وبطاطة وباذنجان وجشًا (شبه الكماة) وغير ذلك مما يروق للخاطر. اما اونياواري فهي بلاد القمر ولا تخلو من الخصب وجمال المنظر وفي وسطها مقاطعة اونيه نمبه وهي بلد جميلة ايضًا وهناك يقيم بعض آل عمان من عرب العرباء الذين يتاجرون بالفراء والعاج والعبيد مع بلاد العرب والقوافل تأتيهم ببضاعة الفخفخة وغير ذلك مما هو غالي الثمن لانهم عائشون مع نسائهم وعبيدهم بصفاء البال وطيبة العيش ولا ينغص عيشهم حادث من طوارق الزمان فيتمددون ويمرحون ويدخنون اثناء الليل واطراف النهار ولقد يشاهد اكواخ كثيرة حول تلك الاودية واسواق واسعة لفرش البضائع يحيط بها اشجار كثيرة وهناك محل اجتماع القوافل فان منها ما يأتي من الجنوب مصحوبًا بالعبيد والعاج ومنها ما يأتي من الجهة الغربية مصحوبًا بالاقطان والادوات الزجاجية لاقوام البحيرات العظيمة

ولهذا ترى في تلك الاسواق اضطراب مستديم وضجيج وزعاق ولغط غريب فانك لا تقف برهة الّا وتسمع صراخ المكارين وطنطنة الطبول والزمور ودقدقة الدواب ونهيق الحمير وغناء النساء وزقزقة الغلمان ودمدمة الجمدار رئيس القافلة

وشاهدوا تلك البضائع المفروشة من العاج واسنان الفيلة المتنوعة والعسل والقطن وغير ذلك من الاشكال المتجنسة

ففي الساعة والحال عند ظهور القبة الهوائية فوق كازه بطلت الضجة وزال الصراخ وفرّ كل من ذلك القوم الرجال والنساء والعبيد والتجار والعربان والزنج مهرولاً الى كوخه ليختبيء فيه ولم يعد احد ظاهراً للوجود

فقال ديك لفرغوسن : اذا اتت قبتنا دائماً بهذا المفعول فيصعب علينا جداً تمكين العلاقات التجارية مع مثل ذلك القوم

قال يوسف : ولكن اما تفطن ان لنا الان معاملة تجارية سهلة جداً وهي ان ننزل بهدء وطمأنينة الى الاسواق ونحمل ما خفّ حملاً وغلا قيمة من دون ان نعامل التجار وبهذا نصبح من الاغنياء الموسرين

قال فرغوسن : سقياً لك اننا القينا الرعبة في اول وهلة على هؤلاء الاقوام ولكن لا نلبث ان نرى الجميع راجعين سواء كان باعتقاد باطل ام برغبة معرفة ما شاهدوهُ

قال يوسف : هذا رأيك يا مولاي

قال : لا شك في ذلك وعن قريب تراهم مقبلين ولكن حذارِ من ان نقرب اليهم لان قبتنا ليست قبة مصفحة ولا مدرعة بل اذا اطلق علينا ضربة رصاص ام اذا نبلنا بنبلٍ وخرق قبتنا هلكنا لا محالة

قال ديك : ألا تعزم على ان تخابر هؤلاء الافريقيين

قال فرغوسن : بلى اذا سمحت لنا التقادير لان مدينة كازه لا تخلو من التجار والعربان المثقفين والمتمدنين نوعاً واتذكر جيداً ما حُكي عن برتون واسبيك انهما نالا ضيافة حسنة من سكان المدينة فترى اذاً انهُ لا يوجد مانع للدخول بينهم والحادثة معهم

ولما اقتربت المنصورة من الارض تعلقت احدى مراسيها براس شجرة عالية قرب محلة السوق

وفي تلك الساعة ظهر القوم وخرج كل من خبائهِ لكنهم لم يخرجوا الّا قليلاً فقليلاً بحرص واحتراز

ثم هرول بعض السحرة المعروفين عندهم باسم وغنغـا وهم حاملون القرع المدهون بالشحم والاصداف وغيرها من الاشياء المشهورة بقلة نظافتها

ولم تمض برهة الّا وازدحم القوم واحاطت بهم النساء والغلمان وضجت الطبول بضوضاءها ثم رفعت الايدي نحو السماء

فقال فرغوسن : هذه عادتهم في الدعاء والتضرع وعلى ما ارى فانهُ عن قريب يصير لنا اهميــة جزيلة عند هؤلاء الافريقيين وانت يا يوسف لربما ستمسي عندهم الهاً

قال يوسف : لا ازهد في مثل ذلك الامر ولا اكره رائحة البخور

وفي تلك الدقيقة قام احد السحرة المعروف باسم ميانغا واومى الى الناس بالسكوت فسكتوا جميعهم ثم تقدم نحو المسافرين في المركبة وخاطبهم بلغــة مجهولة لديهم فلما لم يفهم فرغوسن كلامهُ تفوه على الفور ببعض الالفاظ العربية فاجيب على كلامهِ بهذه اللغة ايضاً

ثم خطب امامهُ الساحر خطاباً طويلاً انيقاً فلخص فرغوسن من مآلهُ ان هؤلاء القوم اتخذوا المنصورة نفس القمر وان هذه الالهــة المحبوبة تنازلت ان تدنو منهم مع اولادها الثلاثة وان هذا لشرف عميم شمل لفيف سكان تلك المدينة فاصبحوا لهــا من الممنونين ومعروفهــا هذا لا يُنسى من تلك الارض المحبوبة من الشمس

فاجاب فرغوسن بامارات العظمة والكبر وقال : فليكن معلوماً عندكم ان

القمر يطوف حول بلادهِ مرة كل الف سنــة اذ انهُ يرغب في الظهور لاعين عابديهِ ويريد منهم ان يعرضوا لحضرتهِ الالهية ما لهم من الحاجات والضرورات ولا يرتكبوا ويركوا في توسلاتهم بل يجب ان تكون غير مشوبة بالجزع والخديعة

فقال الساحر: ان سلطاننا (ويعرف باسم مواني) قد أنس فراش المرض منذ سنين عديدة فبالنيـــابة عنهُ اتوسل الى جلالة القمر ليرفق بحالهِ ويدعو اولاده يشرفونهُ بحضورهم اذا شاؤوا

فبلغ فرغوسن رفقاه تلك الدعوة فقال الصياد وهل مرادك ان تتوجه الى عند هذا الملك الحبشي

قال: وما المانع فاني ارى هؤلاء القوم حسني الالتفات نحونا ولا يأتونا بضرر وها ان الجو رائق فلا نخاف على مركبتنا

قال: ولكن ماذا تصنع هناك

قال فرغوسن: لا تخف فاني اقضي شغلي بشيء من الادواء الطبيـــة الموجودة معي

ثم التفت نحو الجمع وقال لهم: اليوم حنَّ قاب القمر على سلطـــان بني اونيام وازى وشاء بخاطره ان يسلمنا دواء شافيًا لدائهِ فليكن اذًا متأهبًا لملاقاتنا لاننا ذاهبون اليهِ

فضجت حينئذٍ اصوات هؤلاء الرهط بالغناء والبعاق واخذوا في المسير الى البيت الملوكي

ثم قال ساموئيل لرفاقهِ يجب ان نكون على حذر واهبة للرحيل اذا اضطررنا لترك هذه المدينة حالًا فليبقَ ديك في المركبة محافظًا على ما يكفي من القوة الرافعة بواسطة القصبة اما المرساة فهي ممكنة غاية التمكين ولا نخشى

عليها وانا نازل الى الارض ويرافقني يوسف الى عند طرف السلم وهناك يستريح على خاطره

قال الصياد: وهل تذهب وحدك لعند ذلك الحبشي

قال يوسف: ألا تريد يا سيدي ان اتبعك الى النهاية

قال فرغوسن. لا اقتضاء لذلك فان هؤلاء القوم ظنوا ان الههم القمر آتٍ لزيارتهم فباعتقادهم هذا الباطل لا يمكنهم مضرتنا فارحوا بالكم وليبقَ كل منكم محافظاً على وظيفتهِ

فقال الصياد: سمعاً وطاعة يا ايها المولى

اما صراخ القوم فاخذ في الازدياد وكانوا يطلبون ابن القمر ليقضي وطرهم

قال يوسف: وما هذا الامر الظاهر انهم متجبرون نحو الههم وابنائهِ

ثم نزل فرغوسن من مركبتهِ واخذ معهُ بعض الادواء المقوية وسار يوسف امامهُ ولوائح العظمة والوقار لائحة على محياه ثم جلس عند طرف السلم وقعد على ركبتيهِ حسب الزي الشرقي فاحتاط بهِ قوم من الافريقيين باحتشام لائق

اما العلامة فرغوسن فسار وراء الآلات الموسيقية الشادية بانغامها الشجية (ولله درُّها) واحاقت بهِ السحرة وغيرهم من المعتبرين وما مشوا قليلاً الّا وفد ابن السلطان الذي كان وحيد الارث الشرعي دون اخوته الشرعيين فاتى وسجد لابن القمر اما فرغوسن فانهضهُ حالاً بحركة لطيفة ثم مشي معهم في تلك الطرقات المظللة بانواع الاشجار والنباتات وما مضت نحو ثلاثة ارباع الساعة حتى وصلوا الى سراية السلطان الكائنة في سفح اكمة وهي نوع من البناء المربع المدعو في لغة اهل تلك البلاد باسم ايتيتينيا وحول جدرانها قطع

فخارية منها على هيئة رسم انسان ومنها ما كان احسن انتظاماً وهو على هيئة الحيات واما سقف المنزل فمفصول عن الجدران بعمد والهواء يتلاعب في المخدع من ذلك القلق لان الشبابيك غير موجودة فيها والبـاب يكاد يستحق اسم باب لصغره وهيئتهِ الغريبة ولمـا بلغ فرغوسن الى ذلك المحل لاقتهُ الخفراء ورجال الدولة بمزيد الاجلال وكانوا جميعهم اناساً يماثلون حسناً هيئة اقوام افريقية الوسطى ذات بنية حسنة وقوة مشهورة ومزاج سليم وشعورهم مجدولة على هيئة الضفائر منسدلة على اكتافهم وخدودهم مخططة بالحمرة والسواد والزرق من المصـادغ حتى الفم وعلى اذانهم الممدودة قطع خشب مستديرة والواح غراء سندروسي ولباسهم مبرقش وملون وكانت الجند واقفـة وهي حاملة القسي والاسنة والفؤوس والسيوف المنحنية الهيئات

فدخل العلامة ذلك البلاط الملوكي وما زال الصراخ والضجيج قائماً عند دخوله رغماً عن تدثر السلطان بلحاف السقم وشاهد عند اسكفة الباب اذناب ارانب ونواصي اعيار (جمع عير وهو الحمار الوحشي) معلقـة نظير طلاسم سحرية فلاقاهُ جمٌّ غفير من نساء السلطان وهنَّ يضربنَ بالطبل ويزمرنَ بالمزمار وكثيرٌ منهنَّ بديعات في الجمال كنَّ يشربنَ الدخان بالغلايين الكبيرة السود وهنَّ ضاحكات لا يكترثنَ بشيء وقد لبقت بهنَّ اثوابهنَّ المرقعة بقطع من الجوخ والالياف المنسدلة على حقويهنَّ برخاء

لكنهُ لحظ منهنَّ ستةً لم يكنَّ فارحات اقل من سائر رفيقـاتهنَّ وان كنَّ معدات لان يُجعلنَ في القبر حيات مع السلطان عند مماتهِ

وبعد ان رمق فرغوسن بلحظة عين جميع ما تراءى لديه تقدم نحو تخت السلطـان المصنوع من خشب وشاهدهُ رجلاً بالغاً سن الاربعين سنة وقد طرحتهُ في الفراش ودوختهُ المسكرات المختلفة ولا يمكن ابرأ دائه بدواء وعلى

الخصوص لان المرض قد نابهُ منذ سنين جمة وكان هذا السكير البـايس قد اضاع حواسهُ وزال ادراكهُ ولو جُمع لهُ جميع نشـادر العالم لما كان كافياً لان يعيدهُ الى نفسهِ

وفي مدة زيارة ابن القمر لجلالة السلطـان خرت النساء ساجدات لهُ وحنت ظهورهنَّ فاخرج العلامة شيئاً من الدواء المقوي الذي كان معهُ وسقى منهُ السلطان فتحرك جسمهُ قليلاً ولما كان قد مضى عليهِ بعض الساعات ولم يبدِ ادنى حركة تدل على بقائهِ في قيد الحياة سُرَّ القوم بالحركة التي بدت منهُ في تلك الدقيقة وضجوا بالصراخ علامة الشكـر والممنونية واجلالاً للطبيب السماوي

وعلى الاثر ارتد فرغوسن عن المريض واوسع فسحـة بين هؤلاء القوم المزدحمين حولهُ وسار قاصداً منصورته لان الساعة كانت وقتئذٍ السادسة بعد الظهر

اما يوسف فكـان منتظراً سيده بكل طمأنينة وراحة بال عند سفح السلم وحولهُ قوم من تلك المدينة يقدمون لهُ واجبات الاكـرام اللائق بابن القمر

وكانت هيئتهُ بشوشة مع عابديه المحدقين بهِ وهو يخاطبهم باحاديث لطيفة من جملتها ما كان يراجعهُ لهم بلغته الانكليزية قولهُ هذا : اعبدوني اعبدوني يا ايها الرجال ويا ايتها السيدات لاني شيطان لطيف رقيق الجانب وان كنت ابناً للقمر

وقد قدم لهُ هؤلاء القوم الهدايا استعطافاً لسمو ذاتهِ الالهية واستغفـاراً عن ذنوبهم وكانت تلك الهدايا بعض سنابل من الشعير وشراباً معمولاً من الشعير ايضاً فاضطرَّ يوسف الى ان يذوق شيئاً قليلاً من هذا الشراب ولمـا

كان مما قججة الحجرة تأثر منهُ وكشر عن اسنانهِ لشدة مرارته فحسب القوم تلك الكشرة تبسمًا لطيفًا رائقًا

وكانت الشابات تترنم باصواتهنَّ الرخيمة في ذلك المحفل الديني ومنهنَّ من كنَّ يرقصنَ افخر رقصةٍ عندهنَّ

فقال يوسف : ما لي اراكنَّ ترقصنَ وانا لا ارقص فانظرنَ اذًا لتتعلمنَ كيف الرقص في بلادنا

واخذ من ثم ان يرقص رقصة مضحكة وهو يدور ويحوم ويهزُّ برجليهِ ويديه وركبتيهِ ويتلوَّى وينعطف ويقف برهة ويكشر عن اسنانهِ وهكذا ابان للقوم الافريقيين كيف ترقص ابناء القمر

فما فرغ يوسف من حركاتهِ واطواره الغريبة الّا نهض كثيرون منهم رجالًا ونساء ولما كانوا منطويين على التقليد بنوع غريب كما يقلد السعادين اطوار الانسان شرعوا في تقليد اطوار يوسف من الدورات والحركات والتكشير عن الاسنان ورأيت من ثم هؤلاء الهمج قد هاجوا وماجوا وعربدوا وازبدوا وفيما هم على تلك الحال اذا اقبل فرغوسن متجهًا نحو منصورتهِ وكان الافريقيون حولهُ يزاحمونهُ صارخين وسحرتهم ورؤساؤهم مضطربون اما هو فيسرع في مسيره وقد تعجب يوسف غاية العجب وظنَّ بنفسهِ عسى ان السلطان هلك من مداواة طبيبهِ السماوي ويتهددوهُ ليلحقوهُ بهِ

وشاهد ايضًا كنادي اضطراب القوم وشغبهم ولم يفهم السبب ثم اقترب العلامة الى سفح السلم وكان القوم ضاربين عن المضرَّة بشخصهِ لاعتقادٍ باطل ما زال يخالج ضميرهم وكان ذلك حظًا لفرغوسن اذ انهُ تمكن من البلوغ الى السلم وبهِ الى المركبة وانبعهُ خادمهُ في الحال

فقال فرغوسن ليوسف : هلمَّ واسرع فان الوقت قد ضاق بنا ولا تكترث

بحلّ المرساة لان مرادي ان اقطع الحبل واترك المرساة

فقال يوسف وهو يتسلق المركبة: وما الذي جرى وما عسى نابَ هؤلاء القوم

ثم قال ديك وهو حامل سلاحهُ متأهبٌ لاطلاق الرصاص اذا لزم الامر: قل يا صاح وما بال هؤلاء البرابرة

فقال فرغوسن لرفيقيهِ: انظرا الى الافق

فقالا: وما الذي هناك

قال فرغوسن: هناك القمر فاشار الى القمر الوردي المتلألئ الظاهر في كبد السماء الازوردية فلا شك ان ذاك القمر المألوف

فاحتار القوم وقالوا في انفسهم: اما انه يوجد قمران في الديباجة الزرقاء واما ان الرفاق الثلاثة ما هم الّا خداعون ومكارون وليسوا بابناء القمر كما توهمنا

ولهذا لما رأوا ان العلامة قد تملص من ايديهم وكاد يطير في الطبقات الجوية رفعوا الاسنة والحراب وتأهبوا ليطلقوها على القبة فقام احد السحرة واومى اليهم ان لا يبدوا حركة فانزل جميعهم السلاح ثم تسلق الشجرة وعزم على ان يمسك حبل المرساة ويجر المركبة الى الارض فمسك يوسف في الحال سكيناً وسأل مولاه وقال: هل اقطع الحبل

فقال فرغوسن: انتظر قليلًا لاني امل حفظ المرساة ومتى اضطررنا الى قطع الحبل فلا يمنعنا مانع حتى ولا هذا العبد الخادع

وفي تلك الدقيقة كان هذا الساحر يبعد الاغصان التي هي حول المرساة فتخلصت هذه حالًا ولما كانت القبة ذات قوة رافعة جذبت المرساة وجرتها اليها وجرّت معها العبد الاسود الراكب على المراساة كانهُ على حصان ذات

اجنحة وطار المسكين مع المسافرين الى الطبقات الجوية

فاندهش القوم اندهاشاً لا مزيد عليهِ عند معاينتهم احد سحرتهم طائراً في الاهوية

وكانت القبة بقوتها الصاعدة قد ارتفعت الى علوٍ شاهق فقال ديك : لا بأس من رحلتهِ برهة في هذه البلاد لانها توليه انشراحاً بتغيير الهواء

فسأل الخادم سيدهُ وقال : هل نرخي هنا الاسود على القود

قال فرغوسن حاشا : ليس هذا من دأبنا ولكنا نقترب من الارض بعد برهة ونضعهُ بكل هدءٍ وراحة واري انهُ بعد هذه الحادثة الغريبة سيعظم شأنه لدى قومه وتزيد قوتهُ السحرية عندهم

فقال يوسف : وربما يعبدونهُ كالهٍ

وكانت القبة قد بلغت علو الف قدم والعبد الاسود مستمسك بحبل المرساة استمساكاً شديداً وعيناهُ شاخصتان بالمركبة وهو ساكت ولهان

ولما ابتعدت القبة عن المدينة خفف العلامة حرارة القصبة ودنا من الارض فلما رأى الساحر نفسهُ قريباً انتهز الفرصة فرمى بنفسهِ من علو عشرين قدماً وولّى الادبار قاصداً مدينة كازه فخف حينئذٍ ثقله عن المركبة وارتفعت حالاً الى الجوّ



الفصل الرابع عشر

في العاصفة الشديدة والنجاة منها وفي ارض بلاد القمر الاريضة ومستقبلها

فقال يوسف: هوذا قد تبنينا للقمر بلا استئذانهِ فنابنا ما نابنا وكدنا نقع بين ايدي البرابرة ونذهب فريسة لتوحشهم ولكن لم تقل لنا يا مولاي هل لم تحسن تطبيبك لجلالة السلطان فخف مقام القمر عندهم

وسأل ايضاً ديك العلامة وقال: هات اخبرنا عن ذلك السلطان الجليل الشـان

قال فرغوسن: ان السلطـان رجل نشوان سيوصلهُ سكره الى دركات المنية بعد برهة وجيزة ولايتأسف احد على فقده . اما ما ينتج مما جرى انما هو ان كل مجد زمني زائل لايلزم الانسان ان يلتصق بهِ اسفاً عليهِ

فقال يوسف: كان ذا امرٌ يوافقني فاني قد نلت اجلالاً وتبجيلاً فائقي الحد واصبحت الهاً على خاطري فحسدني القمر على ذلك وظهر حالاً في الافق ملوناً بالاحمرار وهذا مما يدل على انهُ قد ساءهُ صنيعنا

وفيما هم يتنـاقلون هذه الاحاديث اذا شاهدوا عن بعد سحباً وضباباً كثيفاً يتراكم ويزاحم بعضهُ بعضاً وهو مقبل من الشمال ثم عصفت ريح فدفعت القبة الى بين الشمال والشرق اما الديباجة الزرقاء التي فوق المركبة فكانت رائقة لا سحاب فيها ولا ضباب الّا ان الجو كان ثقيلاً جداً

ونحو الساعة الثامنة ليلاً وصل المسـافرون الى درجة ٤٠°٣٢ طولاً و١٧°٤ عرضاً ولما كانت الريح متأهبة للعاصفة كانت تدفعهم مسافـة ٣٠

الى ٣٥ ميلاً في الساعة فروا فوق صحارى أمفوتو الاريضة ذات الخضـار والنضار وكان منظرها مدهشاً يعجب الابصار

قال فرغوسن : هوذا نحن في اواسط بلاد القمر وقد دعيت هذه البلاد باسم بلاد القمر من الازمنة القديمة لقدميـة عهد عبادة القمر فيها . لعمري انها لارض رائعة الجمال

قال ديك : قلما يشاهد في العالم ارض ذات نضـارة وخصب شبيهة بهـا

قال يوسف : لو كان ذلك حول لندرة لما كان طبيعياً غير ان القلوب هامت بهِ وراقت لمشاهدتهِ الابصار ولكن يا للعجب لماذا هذا الريعان قد جعل في بلادٍ يسكنها الاقوام البرابرة والوحوش الكاسرة

قال فرغوسن : ومن يعلم هلاَّ يأتي يوم وتصبح هذه البـلاد مركزاً للتمدن لانهُ عند ما تكل الاراضي الافرنجية عن ان تنبت لسكانها زرعاً وتفرغ منها وسائط المعيشة لربما يهجرونها ويقصدون هذه المحلات ويجعلونها سكناً لهم

قال ديك : وهل تصدق في قولك هذا

قال فرغوسن : بلا شك ايها الخلّ العزيز ألا ترى جريان الحوادث في العالم منذ ابتـدائهِ الى الآن فانك اذا اتبعت على ممر الاجيـال مسير الشعوب ومعيشتهم ورحيلهم من بلاد الى بلاد توصلت الى نتيجتي نفسها . تأمل اولاً في المشرق التي كانت مهد للجنس البشري فانها قد لبثت مدة اربعة الاف سنة تنمي زرعاً وتنبت نباتاً كافياً لاعواز سكانها جميعاً ولما شاخت وفسدت اكثر اراضيها اخذت الاقوام في الانتزاح عنها واندفقت متهافتةً الى بلاد المغرب التي كانت ترهو وتتشذى بجمال الصبوة وما زالت هذه في دورها تكفي سكانها مدة الفي سنة حتى اخذ خصبها في الخمول وبدأت تنقص قوتها النامية يوماً فيوماً

وصارت الامراض تبلي محصولاتها وزرعها في كل سنة وكأنك بها انسان قد ذهبت ايام صبوتهِ فشاخ وهرم ووهنت قواه الحيوية وفسد منهُ الدم في العروق ولذاكم السبب جعلت الان الاقوام الافرنجية تهجر بلادها وتتهافت مندفقة الى البلاد الاميركانية ليرضع من حليها الخصب ولا يحسبنَّ احدٌ ان ينابيعها غير قابلة النشف بل سيأتي يوم وتنفذ كنوزها وتطعن في السن وتزول احراشها وغاباتها بفوس الصناعة وتضعف الاراضي التي انبتت زرعاً كثيراً فحينئذٍ تتجه الالحاظ نحو البلاد الافريقية ويتهافت الناس لاقتطاف اثمار كنوزها التي ما زالت تحتشد فيها من قديم الازمنة ويتعودون مناخ اقليمها في مدة قليلة وستصبح هذه البلاد التي نحوم عليها الان اكثر ريعاناً من غيرها وتقوم فيها المالك العظيمة وفيها تكتشف الاكتشافات الغريبة التي تفوق لربما البخار والكهربائية عجباً ودهشةً

فقال يوسف: سيدي حبذا لو رأيتُ ذلك

قال فرغوسن: مهلاً مهلاً يا يوسف فقد ابتكرت في رغبتك

قال ديك: وقد بان لي ان الجيل الذي فيهِ تقتني الصناعة جميع الكنوز الارضية سيكون جيلاً سنتاً وعندي انهُ لا تلذ فيهِ المعيشة لان الناس لكثرة ما يخترعون من الالات والادوات الجنسة سيكون مصيرهم ان يُبتلعوا منها وقد خال ببالي دائماً ان اليوم الاخير يكون اليوم الذي فيهِ يسخن الناس ماعوناً عظيماً ببارٍ تعادل قوتها قوة ثلاث مليارات من حرارة الهواء فتتأثر كرتنا من هذه القوة النارية العجيبة وتطير متشتتةً في الفضاء الفسيح وتذهب كالهباء المنثور

قال يوسف: ويكون الاميركان لم يتقاعدوا عن الاهتمام في اختراع مثل تلك الآلة

فقال العلامة: نعم ان الاميركان قوم يحبون شغل المواعين اعني بذلك

اختراع الالات ولكن ما لنا ولهذه الاحاديث علينا ان نتأمل بمناظر هذه الارض البهية حيث اوتينا مشاهدتها

فكانت اشعة الشمس الاخيرة تتلألأ في تلك الاراضي المزينة بالاشجار الباسقة والحشائش والخضار الجميلة الشاهقة المثمرة ثمرًا عجيبًا ولم تخلُ الغاب والاحراش من فضاء فسيح في وسطها فكان مبنيًا فيها بعض القرى وحولها الاجام والسياجات العظيمة

ثم شاهدوا نهر الملغزاري الذي يصطب ببحيرة تنغانيكا وهو ينثني بين الخضار ويتناول المجاري الكثيرة المتجمعة في الاراضي الخزفية وقت فيضان المياه اما الطائرون في العلاء فكانوا يشاهدونها كنسيج شلالات ملقاة على الجهة الغربية من تلك البقعة

ثم شاهدوا المواشي السمان ترعى في الغياض الاريضة وتتوارى بين الحشائش المنتصبة اما الاحراش فتراآت كباقة زهر تحتمي فيها الأُسد والضباع والثورة ليأمنوا فيها من شرّ حرارة النهار

فقال ديك: ما احلى هذه البلاد للصيد فان رصاصةً واحدة اذا أُطلقت على الخيرة اصابت طريدة جديرة بها فيا ترى هل لا يمكنا نحن الامر

قال فرغوسن: كلاَّ ايها الخليل فان الليل يتهددنا بالعاصفة والعواصف شديدة في هذه البلاد لان ارضها المسخنة نيران الشمس تشبه المدافع الكهربائية

قال يوسف: تكلمت في الصواب ايها المولى لان الحرّ متزايد والهواء فاسد وكل ما يحس بقرب حدوث شيء خارق العادة

قال فرغوسن: ان الجوّ محمل بالكهربائية وكل ذات حية تشعر بحالة الهواء السابقة تناقض العناصر واقر معترفًا باني لم اتأثر قط من ذلك مثل هذه المرة

قال ديك : حيث الامر كذلك ألا يوافقنا النزول الى الارض

قال فرغوسن : احبُّ عليَّ الصعود من النزول ولا اخشى سوى ان يدفعني الى خارج طريقي تصلب المهبات الجوية

قال ديك : أتريد ان تسير الى جهة غير التي سرنا اليها حتى الان

قال فرغوسن : اذا استطعت فاني اتجه ذات الشمال مدة سبع الى ثمانٍ درجات لعلي ارتقي الى عروض يسابيع النيل الموهومة واشاهد هنالك بعض اثار لرحلة القبطان اسبيك او لقافلة دي هكلين وهوذا نحن الان في الدرجة ٣٢°٤٠′ طولًا وارغب في ان اقفو اثر خط الاستواء باستقامة

فقاطعهُ ديك في الكلام وقال لهُ : انظر الى هؤلاء البراق كيف تتسلق الارض لتخرج من البحيرات وهؤلاء التماسيح التي تصيح ملتمسة الهواء لتستنشقهُ

قال يوسف : لقد ضاق تنفسها ولكن اما تنظران الى هذه زمرة الحيوانات التي تزاحم بعضها بعضًا في مسيرها لربما هي ذئاب واظن انها تبلغ عدد المائتين

قال فرغوسن : كلاَّ يا يوسف فان هذه الا زمرة كلاب وحشية باسلة لا تخشى . ضارعة السباع واذا التقى بها مسافر فيالتعاسته لانها تمزقهُ آرابًا في الساعة والحال

فقال الخادم : وانا لا اخذ على نفسي ان اضع لهنَّ الكمامة واذا كانت الشراسة من دأبهنَّ فما لي ولهنَّ

ثم تكاثف الهواء فاصبح الرفيق لا يسمع صوت رفيقه واختبأت الطيور في الاشجار ودلت الطبيعة كلها على انهُ عن قريب ستغمر الارض بمياه امطار وابلة

وفي الساعة التاسعة مساء حامت المنصورة فوق ضيع قطر مسنة وكانت بالكاد تماز للبصر لتكاثف الظلام

فقال ديك وهو يستنشق بملء رئته من ذلك الهواء المتراخي : وما هذه الحال فان اوشك ان اختنق والباين اننا لا نتحرك في هذا الفضاء هلاَّ يوافق نزولنا الى الارض

فقال فرغوسن وهو في اضطراب : ألا تبالي بالعاصفة المقبلة

قال ديك : اذا كنت تخشى ان يدفعك عصف الرياح فلا حيلة لك الّا النزول وتطمأن هناك من كل غائلة

فقال يوسف : وربما لا تبدو العاصفة في هذه الليلة لان السحب عالية جدًا

قال فرغوسن : وهذا الامر مما يجعلني ان ارتاب في الارتقاء الى فوقها حيث يلزمنا الصعود الى علو شاهق جدًا ولا نعود نعرف ليلتنا كلها اذا كنا سائرين ام واقفين

قال ديك : بدارِ ان تبتُ رأيك الان لئلا يفوتك الاوان

قال يوسف : لسو حظنا سقط الهواء ولو ذلك لكان دفعنا بعيدًا عن مقرّ العاصفة

قال فرغوسن : ان ذا مما يوجب الكدر فان السحب هي لنا ذات خطرٍ مبين حيث انها حاوية مجاري متضادة قابلة ان تدمجنا في هباءها وبروقًا نارية نخشى منها ان تحرقنا . ثم اذا نزلنا الى الارض وربطنا المرساة في رأس شجرة فان هبة واحدة من الريح العاصفة ترمينا الى الارض وتوهي قوانا وقوة منصورتنا

قال ديك : وما العمل اذًا وما الحيلة

قال فرغوسن : عندي ان نبقى في طبقـة وسطى بين ويلات الارض واخطار السماء لبينما يفرجها المولى ويفتح لنا باب الرحمة ولهُ الحمد فان عندنا ماء غزيرًا لاضرام نار القصبة وثلاثة وثلاثين رطلًا من ثقل الرمل نلقي منهُ عند الحاجة

فقال الصياد : ونسهر معك في هذه الليلة

قال فرغوسن : لا حاجة الى ذلك يا خليليَّ بل ضعا زادنا في الحمى وناما بسلام واذا مست الحاجة ايقظتكما حالًا

قال يوسف : ولكن ألا يوافق ان تنام انت ايضًا اذ ليس ما يتهددنا الآن

قال فرغوسن : كلَّا يا يوسف فاني احبُّ السهاد ونحن الان غير متحركين واذا لم يحدث شيء فنبقى غدًا في المحل نفسه الذي نحن فيهِ

فتدثر ديك ويوسف بالحاف وتمددا في المركبة ورقدا ومكث فرغوسن وحدهُ ساهرًا في السماء الوسيعة

ثم اخذت الغيوم بالنزول رويدًا رويدًا وتكاثفت الظلمات وتراكمت بعضها فوق بعض واحاطت السوداء كدائرة حول الكرة الارضية كأنها مزمعة ان تسحقها

وعلى الاثر ضاء برقٌ سريع في ذلك الظلام ولم ينتهِ من لمعانهِ الَّا قصف الرعد ودوى صوتهُ في اعماق السماء

قال فرغوسن : هيا بنا يا رفاق انهضا

فللحال نهض ديك ويوسف من قوة قصيف الرعد الذي ردفهُ صوت فرغوسن ووقفا ينتظران اوامر العلامة

فقال ديك : وهل ننزل

قال فرغوسن: كلاَّ فاننا لا نطيق النزول ولكن هيا بنا ان نصعد الى العلاء قبل ان تتحول هذه السحب الى مياه وتعصف زوابع الرياح

ثم اضرم نار القصبة بقوةٍ واخذت المنصورة في الارتفاع

اما العواصف في تلك البلاد فانها تمتد سريعاً وتشتد كثيراً وما مضت برهةٌ الَّا اومض البرق ولمع في الغيوم ثم ارتدفهُ عشرون برقاً اخر حتى امست السماء مخططة بشررٍ كهربائية اخذت في التساقط مع الامطار الوابلة

قال فرغوسن: قد تأخرنا في تنفيذ مرامنا وينبغي علينا الان المرور بمنطقة ناريةٌ بقبتنا المفعمة هواء قابل الاشتعال

اما ديك فما زال يراجع كلامهُ ويقول علينا في النزول علينا في النزول

قال فرغوسن: سواءٌ صعدنا ام نزلنا فلا يزال خطر الصاعقة محيقاً بنا وردِ على ذلك اننا اذا نزلنا الى الارض تشققت قبتنا حالًا باغصان الاشجار

فقال ديك: ارى اننا نعلو الان

قال فرغوسن: طلاعِ طلاعِ

وما برحت البروق المتتابعة في وميض ولمعانٍ كالاسنة في القتال والرعد في قصيف وعجيج وشوهدت السماء كأنها شعلة نارية ماججة اللهيب والريح تهب هبوباً شديداً في دامس الظلام وتلوي لها السحب المستنيرة بالبروق وكأن آلة نارية عاملة من العلاء على اضرام النار ونشرها

ومكث فرغوسن محافظاً على قوّة حرارة القصبة والقبة تمتد وتصعد الى العلاء وكان ديك جاثياً على ركبتيهِ وسط المركبة وهو ماسك باطراف الخيمة لكن القبة كانت تدور دوراناً يدوخ الراس وقد اضطرب المسافرون من شدة حركتها والرياح تصدم القبة وتجوّرها في بعض الاماكن فتنضغط ضغطاً عظيماً ثم اخذ البرَدُ في الهطلان واتبعهُ ضجة ولغط واما القبة فما انفكت تسير مرتفعةً

وحولها تدور البروق بخطوطٍ نارية يلاقي بعضها بعضاً

فقال فرغوسن: في حفظ الله تعالى ها نحن بين يديهِ فليفعل بنا ما يشاء ومنهُ وحدهُ نرجو نجاتنا من تهلكتنا وعلينا يا صاحبيَّ ان نكون على حذرٍ من كل طارقةٍ وبلية وربما تحترق قبتنا فلا يكون سقوطنا الى الارض سريعاً جداً

فلم يكاد يبلغ صوت فرغوسن اذان الرفيقين لكنهما كانا يشاهدانه في صفاءِ وهدءِ تامين وسط البروق وعيناه شاخصتان باجيج النيران المحيقة بقبتهِ

وما انفكت القبة تدور وترتقي الى فوق فمضت ربع ساعة واذا قد تجاوزت حدود منطقة السحب واخذ المسافرون حينئذٍ في مراقبة تلك الاشعة الكهربائية تحتهم كاكليل ناري يتوج السحب وكأن ذلك الاكليل مركوز في اسفل المركبة وكان هذا المنظر من اجمل المناظر الطبيعية التي يشاهدها الانسان لان العاصفة اسفل والسماء اعلا مرصعة بالنجوم والكواكب وهي صافية لا غيم فيها والقمر يلقي اشعتهُ على تلك الغيوم المضطربة

فتطلع فرغوسن في البارومتر ورأى انهم في علو اثني عشر الف قدم عن الارض ونظر الى الساعة فكانت الحادية عشرة ليلاً

ثم قال: شكراً لمولانا فقد زال عنا الخطر وبلغنا منانا وينبغي علينا ان نحافظ برهة على هذا العلو

فقال ديك: ويلاه ويلاه ما كانت ارهب تلك الساعة

قال يوسف: وقد شاهدنا هذه المرة شيئاً جديداً في رحلتنا واني مسرور الخاطر لمشاهدتي العاصفة من المعالي فانهُ مشهد يروق للناظر

الفصل الخامس عشر

في بحر الحضرة ومصارعة الغيل والعشاء في البرية والمبيت فيها

ولمـا دخلت الساعة الرابعة صبـاحاً تراءت الشمس من وراء الافق وتبددت السحب من السماء وهبَّ في تلك الدقيقة نسيم الصباح وهو نسيم رخيم ينعش الفؤاد

ثم ظهرت لديهم الارض المتأرج عرفها اذ انهم لم يحيدوا عن الناحيـة التي مكثوا فيها مدى الليل كلهُ فخفف فرغوسن حرارة القصبـة وابتدأت القبة بالنزول وذلك لكي تتجه الى الناحية الشمالية فبذل العلامة مجهوده ليجد طبقة هوائية موافقة لغرضهِ فما نجح مسعاه بل ما برح الهواء يدفع المســافرين الى الجهة الغربية حتى اتوا على مرأى من جبال القمر المشهورة التي هي على هيئة نصف دائرة حول رأس بحيرة تنغانيكا وسلسلتهـا الظاهرة في الافق اللازوردي والوعرة جداً والصعب الصعود عليها واشبهت بحصن منيع يصـد المسافرين عن المرور وفي بعض ذراها قامت ثلوج مستديمة

فقال فرغوسن: هوذا نحن في بلاد لم يأتيها المسافرون للفحص عنهـا وقد توغل القبطان برتون كثيراً في الجهة الغربية لكنهُ قط لم يتوصل الى هذه الجبال العظيمة بل انهُ انكر وجودها خلافاً لراي رفيقهِ اسبيك الذي اثبت وجودها وزعم برتون انهـا خالت في عقل رفيقهِ كشبحٍ خيالي. اما نحن الان فقـد تأكدنا وجودها ولا يعترينا الريب بذلك

فسأل ديك وقال: هل نجوز هذه الجبال

قال فرغوسن: ان شاء المولى فلا نفعل ذلك واومل وجود طبقة هوائية

يكون فيها مهب ريح تدفعنا الى خط الاستواء واذا لزم الامر انتظر برهة الى ان تهب ريح موافقــة لغرضي كما يُفعل في المراكب التي تلقي المراسي في البحار عند هبوب رياح مخالفة لسيرها

واذ كان يمتحن ساموئيل الطبقــات الهوائية صادف ما وافق مسعــاه فسارت القبة في جنوبي شرقي افريقية بسرعة وسطى

فتطلع في البوصلة وقال: ها نحن سائرون في الجهة الموافقة ونعلو على الارض بنحو٠ ايتي قدم وليس ما يصدنا عن مشاهدة الاصقــاع التي نمر بها ولما كان القبطان اسبيك منطلقاً الى اكتشاف بحيرة اوكروي سار الى الناحيــة الشرقية ومرَّ على خط مستقيم فوق مدينة كازه

قال ديك: وهل يطول مسيرنا هكذا

قال فرغوسن: ربما يطول قليلاً حيث مرادنا ان نتقدم الى جهة ينــابيع النيل ولكي نبلغ الحد الذي بلغهُ المسافرون المقبلون من الشمال فيجب علينــا المسير مسافة ستمائة ميل ونيف

فقال يوسف: وهلاَّ ننزل الى الارض لنحرك اقدامنا المتخدرة

قال فرغوسن: بلى ومع ذلك يجب علينا توفير زادنا ولكن عند نزولنــا سيأتنا ديك لحماً طري

قال ديك: هنذا بين يديك يا خليلي

قال فرغوسن: ويلزمنا ايضاً ان نجدد زاد الماء ولا اعلم هل تدفعنا الريح الى اصقاع قاحلة وبناء عليه يلزمنا ان نأخذ احتياطنا من ذلك القبيل

وعند الظهر حامت المنصورة في درجة ٢٩°١٥' طولا و٣°١٥' عرضا وقد اجتازت بقرية ايوفو وهي حدّ اونيــام وازي الشمالي بعد مرورها على بحيرة اوكروي

اما الاقوام القريبة من خط الاستواء فتفوق تمدنًا على غيرها من اواسط افريقية ويتولاها ملوك ذات سلطة مطلقة فيجورون على رعيتهم ويبغون بغيًا عظيمًا والاقليم الذي تكثر فيهِ السكان المتألفون بعضهم مع بعض هو الاقليم المعروف بقراغوا

فاجتمع راي المسافرين الثلاثة على ان ينزلوا الى الارض في اول محلة مناسبة لغرضهم وكان مرادهم ان يمكثوا عليها برهة طويلة ثم نظر فرغوسن الى القبة وجمع اطرافها ليرى اذا كان اعتراءها شيء من الخلل. فخفف العلامة حرارة القصبة وبعده تدلت المراسي فاخذت تجرعلى حشائش كثيفة مساوية السطح يبلغ علوها نحو سبعة الى ثمانية اقدام

ولم تكن تلوي تلك الخضار لمرور المركبة فوقها ولا تتخللها حجارة ولا اشجار بل انها كبحرٍ عرمرم لا هادية فيهِ

فقال ديك: ارى اننا نسيركثيرًا في هذا المرج الفسيح لاني لا ارى شجرة يمكن ان تتعلق بها واظن انهُ قد قامت دون الصيد موانع ومصاعب كثيرة في هذه الاماكن

فقال فرغوسن: مهلًا يا ديك مهلًا ألا ترى انك لا تستطيع الصيد بين خضار تعلو قامتك فاننا عن قريب نصل الى مكان يوافقنا

وفي الحقيقة كان مسيرهم الهوينا في ذلك البحر الخضر المفاقةُ مهبُّ النسيم مما يطرب الفؤاد ويسر الخاطر وقد اتى اسم المركبة طبق المسمى لانك كنت تراها كأنها تشق الامواج والطيور ذات الالوان البهية تتطاير احيانًا من تلك الخضار متناغية باصواتها الشجية في تلك الروضة الزهية وقد خطت المراسي المتدلية خطًا شبيهًا بالخط الذي ترسمهُ السفينة في البحار

وفيما هم سائرون هكذا اذا صدمت القبة شيئًا انتفضت منهُ فظن

المسافرون ان المرساة تعلقت باحدى الصخور المتوارية بين تلك الخضار

فقال يوسف: قد تعلقنا يا مولاي

فقال ديك: عليك في القاء السلم

فما تفوه بهذا الكلام الّا ضجّ صراخ حادّ في ذلك الفضاء فاندهش المسافرون من ذلك ورفع جميعهم صوتًا واحدًا قائلين: وما هذا

فقال واحد: هذا صوت غريب

وقال آخر: العجب العجاب اننا سائرون

وقال آخر: قد انحلت المرساة

فقال يوسف: وهو ماسك بالحبل محاول جره: البائن انها مستمسكة جيدًا

فقال ديك: ويحك وهل يسير بنا الصخر

فما مضت برهة الّا شاهد المسافرون شيئًا مستطيلًا ومتلويا فوق الخضرة

فقال يوسف: لا ريب في انها حية رقطاء تمشي بنا

فقال ديك: أهي حيةٌ . . وددك سلاحهُ متأهبًا لاطلاق الرصاص عليها

قال فرغوسن: كلاّ ولم تصيبا بظنكما يا خليليّ فان ما هذا الّا خرطوم فيل والفيل هو الذي يجرنا

فتأهب الرفيقان واستعدا لاطلاق الرصاص عليهِ

فقال فرغوسن: اصبرا قليلًا فان ينطلق بنا الى ناحية موافقة لنا

وبعد ان سار الفيل في ذلك البحر الاخضر تراءى لاعينهم في بقعةٍ خالية من الخضرة باكثر جلاء وامتياز ومن قامتهِ الشاحخة العلو علم فرغوسن انهُ ذكر

من طائفة حسنة جداً ولهُ نابان يلمعان بياضاً ذات انثناء لطيف ويمكن ان طولهما يبلغ ثمانية اقدام ثم بصروا بالمرساة ان اطرافها تعلقت بنابيهِ وتمكنت بهما

فما برح الفيل يسعى ويحاول التملص منهُ فذهب سعيهُ هدراً

فقال يوسف وقلبهُ طافح بالسرور: هيا بنا هيا يا فيلًا اميناً فقد تنوعت كثيراً هيئة سفرنا في هذه البلاد اذ اخذ فيلٌ يجرُّ مركبتنا كما تجر احياناً السفن بعضها بعضاً ونعم السفر على هذا النحو

فقال ديك: والى اين ينطلق بنا (وكان سلاحهُ بيده وقد عيل صبره من انتظار امر فرغوسن لاطلاق الرصاص)

قال فرغوسن: اعتصم قليلًا بحبل الصبر يا خليلي لاننا منطلقون الى جهة حسنة

اما يوسف فما زال يحث الفيل بكل انواع الالفاظ والعبارات اللطيفة ويصرخ باعلى صوتهِ: حُوحُو هيا يا هجين الدراري الافريقية سِرْ بنا سِرْ بنا الى قدام

ثم ابتدا الفيل في العدو السريع وهو يلوي خرطومهُ ذات اليمين وذات الشمال وفي قفزه كانت تهتز القبة هزة شديدة فهيأ العلامة فأساً ليقطع الحبل المعلقة عليهِ المرساة اذا الجأته الى ذلك الضرورة

لكنهُ قال: لا ارغب في ان اعتقهُ الّا وقت الضيق

فدامت تلك التجارة نحو ساعة ونصف والفيل لا يحس بتعب ولا كلل وقد قيل عن هذه الحيوانات ذات الخرطوم انها تعدو عدواً بليغاً ومن يوم الى يوم تشاهد في امكنة بعيدة بعضها عن بعض بمسافات شاسعة وتشبه كثيراً بحيتان البحر العظيمة بجسمها وسرعة عدوانها

فقال يوسف: في الحقيقة ما صنيعنا الّا ويشبه صنيع صيادي الحيتان لاننا دايما لخطاف فتعلق بهِ الفيل كما تتعلق الحيتان بخطاطيف صياديها

اما فرغوسن فاضطرَّ الى ان يغير مسيره وينفك من قائده لما تراءى امامهُ في شمالي المرج من تغيير هيئة تلك الاراضي اذ شاهد عن بعد ثلاثة اميال حرشاً فيهِ الاشجار المتكاثفة فاوعز الى خليلهِ ديك قائلًا: دونك والفيل فانهُ يجب علينا توقيفه عن مسيره فرفع ديك سلاحهُ واطلق الرصاص ولما كان في مركز لا يتمكن بهِ من تحكيم طلقتهِ اصابت الرصاصة راس الفيل فانبسطت على جلده لكنهُ لم يتزعزع من تلك اللطمة بل عند ما طرق آذانهُ دوي تلك الضربة دمع في سيره واخذ يعدو عدواً شبيهاً بسباق الخيل

فقال ديك: ويلاه فان الرصاص لم يؤثر في راسهِ

قال يوسف: ان راسهُ لاصلب من الصخر

قال ديك: ومرادي ان اطلق الرصاصة على كتفهِ ثم دكَّ سلاحهُ واورى الزناد فصاح الفيل بصوت هائل وما برح يعدو

فقال يوسف: سيدي ديك يلزمني ان اتي بايدك والّا لا ينتهي العارض فدكَّ سلاحهُ واطلقا كلاهما رصاصتين فاصابتا جوانب البهيم

فعند ذالك وقف الفيل برهة ورفع خرطومه ثم عاد الى جريه وهو يهزّ براسهِ ودمهُ يسيل من جراحهِ سيلاناً وافراً

فقال يوسف: علينا ان نجعل ناراً دائمة

فقال فرغوسن: وناراً مستعرة اللهيب لاننا لا نبعد عن الغابة اكثر من ستين ذراعاً. فاوقدوا النار الدائمة فقفز الفيل قفزة هائلة وارتجت لها القبة ارتجاجاً عظيماً حتى اوشكت ان تتمزّق قطعاً ووقع الفأس حينئذٍ من يد العلامة الى الارض

فاصبح المسافرون حينئذٍ في حالة مخيفة اضطربت لها افئدتهم لان المرساة كانت ممكنة في الفيل فلا يمكن قطع الحبل بالسكاكين التي كانت مع المسافرين وما انفك الفيل يتقدم نحو الغاب وعند دنوه منهُ رفع راسهُ قليلًا فاصابتهُ رصاصة ففقأت عينهُ فوقف ساعتئذٍ واضطرب ثم انثنت ركبتاهُ وكشف جانبهُ الى الصياد

فقال ديك : هاك رصاصة في قلبك يا فيل السوء ورماه برصاصة اخيرة

فزأر الفيل وزمجر وهمهم كمدًا ومنازعة ثم نهض على قوائمهِ وعقف خرطومه فسقط بثقلهِ كله الى الارض على احد نابيهِ فتحطم حطماً وكانت تلك الساعة ساعتهُ الاخيرة

فقال ديك : قد تحطم نابهُ وهو من العاج الذي يسوى في بلادنا كل عشرين رطلًا ٣٥ ذهباً انكليزيًا

فقال يوسف وهو نازل الى الارض وماسك الحبل في نزولهِ : فانهُ غالي الثمن على حسابك

قال فرغوسن : وماذا ينفعك اسفك ياخليلي ديك هل ترى قد اتينا لنتاجر بالعاج ونلتمس الغنى والاموال في هذه البلاد فصمت الصياد

اما يوسف فنظر الى المرساة فرآها محكمة التعليق بباب الفيل الباقي سالمًا ثم قفز العلامة وديك الى الارض ولبثت القبة المنفوخة بنصفها مرتكزة على جسم الحيوان

فعند نظر ديك الى الفيل قال: وما اجملهُ واعظمهُ فاني لم ارَ في بلاد الهند فيلًا لهُ قامة شبيهة بهذه القامة النمرودية

قال فرغوسن : لاعجب في ذلك لان الفيلة في البلاد الافريقية تسمو طرافة

وجمالًا وطالما قد سعى في صيدها اقوام في سواحل الجنوب ولذا قد هجروا الى خط الاستواء حيث ستراهم مجتمعين بشرذمات

فقال يوسف : اما الان فاني عازم على ان اطبخ طعامًا لذيذًا مدهنًا من هذا الحيوان وانت يا ديك اذهب واصطد ما شئت مدة ساعة او ساعتين ريثما سيدي يناظر القبة ويصلح فيها ما شاء

قال فرغوسن : هاك اوامرًا مناسبة فافعل اذًا يا يوسف ما شئت

قال ديك : اما انا فاني منطلق لاصطاد مدة الساعتين التي تنازل يوسف ان يسمح لي بهما

فقال فرغوسن : انطلق يا صاحبي ولكن كن حريصًا ولا تبتعد عنا كثيرًا

فتسلح ديك ببارودته ودخل الغاب وجعل يوسف يهتم بتتميم وظيفته فاحتفر في اول الامر ثقبًا في الارض يبلغ عمقهُ قدمان واملأهُ خشبًا يابسًا كان منتشرًا بكثرة على الارض ومحطمًا من فيلةٍ قد مرت من هنالك كما دلَّ عليهِ آثارها وبعد ان امتلأ النقب ووضع فوقهُ حطبًا كثيرًا عاليًا عن الارض بنحو قدمين واضرم فيها النار

ثم اقبل الى الفيل الساقط بعيدًا عن الغاب بنحو ثلاثين ذراعًا وحسم خرطومهُ البالغ عرضهُ نحو قدمين في مخرجهِ ثم فصل قُدرةً من لحمهِ وضمَّ اليها احدى قوائمه اللذنـــة جدًا فان القوائم في الفيل هي القطع الافخر والالطف من جميع لحومهِ كالرجل في الدب وكالراس في الخنزير الوحشي

وبعد انحلال النيران في الثقب قام يوسف الرماد والحطب منهُ فكانت حرارة قوية وسط الثقب فلفَّ قدر اللحم بورق العشب ووضعها في عمق ذلك النقب المتأجج حرارةً ثم غطاها برماد سخن ووضع حطبًا فوق الرماد وبعد ما اشعلها مدة رفعها فوجد اللحم قد شوي ونضج على احسن اسلوب

فاخذها وجعلها على اوراق خضراء ثم رتب الطعام على الحشيش الرطب واحضر الكعك والعرق والقهوة ثم استقى ماء عذبًا من ساقية كانت جارية في تلك الخضار

فاضحت تلك الوليمة مما يطرب الخاطر وظنّ يوسف ان تناول الطعام شانهُ ان يزيد النظر بهجة وسرور

وقد قال في نفسهِ: ما احلى والذّ من هذه المعيشة لاننا نسافر في اقطار وسيعة بلا تعبٍ ولا خطر ونأكل ونشرب في الاوقات اللازمة فما تراهُ خائفًا علينا ومع هذا كلهِ لم يكن للخواجا ديك يشاء مرافقتنا

اما العلامة فرغوسن فانشغل بفحص مدقق عن ادوات القبة الهوائية فرأى انها قد قاومت ما حصل لهــا من الضغط مذ مدة ولم يحصل لها خلل من ذلك ثم قاس علو تلك الارض المقيم فيهــا وحسب قوّة القبة الرافعة فسرّ لرؤيتهِ انهــا لم تفقد شيئًا من الإدروجن ونظر الى الغطاء الخارج فشاهد ان المادة الصمغية المدهون بها الغطــاء لم يعترها ادنى فساد ولا يمكن ان يتخلل القبة بجهة من جهاتها لا الهواء ولا الماء

ثم نظر الى الزاد فكان غزيرًا وقد مكثوا في رحلتهم من زنجبــار الى ذلك المكان مدة خمسة ايام ولم ينفذ منهُ الّا ما قلّ ولم يحتج العلامة سوى الى التزود بالماء من جديد

اما الانابيب وغيرها من ادوات تخفيف الحرارة ونحوها فلبثت سالمةً من كل غائلة ولم يضر بها قط ما حصل للقبة من الاضطراب وقت ارتقائهــا فوق الغيوم وامتطائها الفيل

وبعد ما فرغ من الفحص عن منصورتهِ اخذ يرسم هيئة تلك البرية المحيطة بهم مع المرج الواسع والحرش المقابل لهم ورسم ايضًا القبــة منتصبة على الفيل

ذات الجثة الباهظة

وفي غضون ساعتين من الزمان اقبل ديك ومعهُ الاحجال المدهنة وافخاذ بعض الحيوانات اللذيذة ففوض الى يوسف ان يشوي منها شيئاً زيادةً على ما هيأهُ من العشاء

قال لهم يوسف : هوذا العشاء حاضر فتفضلوا نأكل في الحال قد جلس ثلاثتهم على ذلك البساط الاخضر وتناولوا الطعام ووجدوا لحم الفيل لذيذاً جداً وشهياً للاكل ثم شربوا على ذكر الاوطان واخذوا في تدخين التبغ في تلك الاراضي الزهية التي لم يسبقهم الى التدخين فيها احد قط منذ نشأتها .

وكان ديك يأكل ويشرب بفرح وطرب ويتكلم كثيراً وقد بلغ منهُ مبلغ الثمول حتى انهُ عرض على رفيقهِ العلامة بجدٍ ان يبنوا لهم هناك كوخاً وان يمضوا فيها ما بقي لهم من الايام في الرغد والهناء وعليهِ يعيشون هكذا عيشة رُبنسون الشهير فيكون يوسف بمنزلة صاحبهِ الملقب بوندردي (اي الجمعة)

ولما رأى العلامة ان هذا الصقع خالٍ من سكان قد اطمأنَّ فعزم على ان يبيت ليلتهُ مع رفيقيهِ على الثرى فقام يوسف وهيأ متراساً من النيران حول فرشهم لكي يمنع وثبات الوحوش الكاسرة التي لا بد من وجودها في تلك القفار فضلاً عن انهُ يمكن ان رائحة لحم الفيل تجتذب في تلك الليلة بعضاً من الضباع وابناء آوي وغيرها من الحيوانات فأطلق كادي الرصاص مراراً عليهنَّ ولكن مضت ليلتهم كلها دون ان يدهمهم عارض سوء البتة

———ooo———

الفصل السادس عشر

في ما كان من بحيرة اوكارُوِه ومبيت المسافرين على جزيرة قفرة ومشاهدتهم عيون النيل وامضاء اندريا دينو

ولما اصبح الصباح واستيقظ الرفاق من الرقاد نحو الساعة الخامسة اخذوا يتأهبون للرحيل فحطم يوسف نابي الفيل بالفأس الذي وجدهُ بعدان وقع من يد العلامة كما ذكروا ثم جلس ثلاثتهم في المركبة ولم يعد يعيقها عائق ارتفعت الى العلى ودفعت الريح المنصورة الى الجهة الشمالية الشرقية فقطعت ١٨ ميلًا بالساعة

وكان قد حسب فرغوسن درجة مركزه من علو النجوم في الليلة السالفة فعرف انهُ في درجة ٢°٤٠ عرضًا تحت خط الاستواء اي على مدى منهُ بمائة وستين ميلًا جغرافيًا ثم مرُّوا بقرى عديدة غير مكترثين بما كانوا يسمعون من الصراخ والضجيج المتصاعد اليهم من الذين كانوا يشاهدونهم مارين فوق رؤوسهم واخذ فرغوسن رسم تلك الاراضي مع ما تراءى لهُ من المناظر ثم جاز بربوات رو بعهي الوعرة كرؤوس جبل اوزاغارا ولما وصل الى تنغا شاهد بداية ذرى سلاسل كراغواه التي ظنها مشتقة من جبال القمر وقد قرب الى الحقيقة ما كان يقال في الحكايات القديمة ان هذه الجبال هي مهد لبحر النيل لانها متأخمة لبحيرة اوكارُوِه . وقد زعم كثيرون ان هذه البحيرة هي للجامع الذي منهُ تجري مياه ذلك النهر العظيم

ثم شاهد اخيرًا فرغوسن من الافق تلك البحيرة المشتهاة التي بصر بها القبطان اسبيك بدون تحقيق في اليوم الثالث من شهر آب سنة ١٨٥٨ وكان

نظر العلامة اليها من كافورو وهي مقاطعة وسيعة لتجار تلك البلاد

فتحركت عند ذلك شعائر فؤاده لانهُ قرب الى مركز احدى المقاصد ذات الاهمية لجزيلة التي عانى بشأنها تلك السفرة الجوية فوضع المنظرة على عينيهِ وجدَّ في التجر فيها والتأمل بجميع نواحيها واطرافها فكانت الارض تحت اقدامهِ جدباء قاحلة وقلما يصادف فيها بعض الوديان النابتة زرعاً

ولما كانت الارض مرتفعة في جملة اماكن رآها آخذة في استواء سطحها كلما قربت الى البحيرة ثم بدأت تتراءى لاعينهِ حقول الارز ويليها حقول الشعير وغيرها من النبات التي يستقطر منهُ الخمر ثم الموالي وهو نبات يقوم مقام القهوة وهناك عاصمة كراغواه المؤلفة من نحو خمسين كوخاً يُغطيها القش وتحيط بها بساتين مزدانة بالزهور

وقد بصر المسافرون من منصورتهم هيئات ذلك القوم لجميلة الباهتة الضاربة الى لون الاصفر المسمر وشاهدوا ايضاً النساء ذات الجسم الضخم المتماشية في حقول الزراعة وقد تعجب يوسف وديك لما اعلمهما فرغوسن ان سمن هؤلاء النساء مسبب عن اتخاذهنَّ اللبن قوتاً يومياً لهنَّ

فعند الظهر وصلت المنصورة الى درجة ١°٤٥ من العرض لجنوبي وعب مرور ساعات من الزمن دفعتها الريح الى ما فوق البحيرة

وقد دعا القبطان اسبيك تلك البحيرة باسم نيانزا فيتوريا وفي تلك الجهة اخذ فرغوسن يقيس البحيرة وكان ثمانين الف متر وعند طرفها الجنوبي لتي القبطان جملة جزائر فسماها جزائر البنغال ثم تقدم الى موانزا في الجهة الشرقية وهناك قابل السلطان فاواهُ بالاكرام واضافهُ بلياقةٍ ولطفٍ ودار حول زوايا البحيرة الثلاثة لكنهُ لم يتمكن من وجود قارب واحد ليعبر بهِ البحيرة ويصل الى جزيرة اوكاروِه الكبرى الكثيرة السكان وقد قيل عنها انها

مسادة من ثلاثة سلاطين مع انهُ لم يتحقق عنها الا انهـا شبه جزيرة عند انخفاض المياه المحيطة بها

فانحازت المنصورة الى البحيرة من الجهة الشمالية على كره من العلامة الراغب في ان يجدد دائرتها على جهة الجنوب اما سواحلها فكانت مملوءة ادغالًا كثيرة الاشواك واجمات ملتفة بعضها على بعض وتغطيها ربوات من البعوض الحالة عليها وهي متجمة اللون ولا يظن عن تلك المحلات انها مسكونة ام قابلة السكنى وكثيرًا ما كانت تتمرّغ افراس الماء باحراش القصب ثم تعود راكضةً الى البحيرة لتتوارى في مياهها البيضاء

اما الافق المشاهد على مدى البحيرة فكان عريضًا ولذا يخال للناظر انها بحر متسع والمسافة طويلة بين الطرفين فلا يمكن لمن وقف على جهة ان يبصر شيئًا من الجهة المقابلة سوى الماء المتراكم ولم تتألف العلاقات بين سكان كليهما وخصوصًا لان الانواء والزوابع فيها شديدة وغالبة الحدوث والرياح فيها عاصفة لانها عالية ومكشوفة

فشق على فرغوسن الاتجاه فوق تلك البحيرة وكان يخشى ان تدفعهُ الريح الى الجهة الشرقية ولكن وافقهُ الحظ ودُفع ذات الشمال ولما صارت الساعة السادســة حلت المنصورة على جزيرة مقفرة في درجة ٣٠ ١° عرضًا و٥٢ ٣٢° طولًا وهي بعيدة عن الساحل بنحو عشرين ميلًا افرنجيًا

فعلق المسافرون مرساتهم على شجرة ولما امسى المساء سكن الهواء فقضوا الليلة بالهدء والطمانينة وفي تلك الجزيرة لا يستطيعون النزول الى الارض لان الناموس والبرغش تستر الارض كسحاب متكاثف ولما نزل يوسف الى الشجرة لتمكين المرساة ثم عاد الى مركزه احسّ بلسع الهوام ولدغها من كل جانب ولكنهُ لم يسوءهُ ذلك بل قال ان اللسع من دأب تلك الهوام

اما العلامة فرغوسن فلم يستصوب ان تفعل فيهِ طبيعة تلك الهوام بل رخى ما استطاع من الحبل خشية من ان يتصاعد اليهِ شيء من تلك البعوض البالغ اليهِ هديرها الخيف

وقد عرف فرغوسن علو البحيرة فوق مساواة سطح البحر فكان ثلاثة الاف وسبعمائة وخمسين قدماً كما حددهُ القبطان اسبيك

فقال يوسف وهو يفرك بكفيهِ: ها نحن مقيمون بجزيرة

فقال الصياد: كنا نستطيع ان نطوف حواليها في برهةٍ وجيزة ولكن لا يسكنها ساكن الّا هذه الهوام اللطيفة الرقيقة الجانب

قال فرغوسن: ان جزائر هذه البحيرة ليست سوى اكام عالية ومغمورة في المياه وقد اصابنا حظ بمصادفة هذا الملجأ على هذه الجزيرة لان سواحل البحيرة لا يسكنها الّا اقوام برابرة فارقدا اذًا يا خليليَّ بسلام لان الليلة رائقة

قال ديك: وهل لا تحذو حذونا

قال فرغوسن: لا استطيع ان اطبق جفوني فان هواجسي تجلب لي السهاد ويجافيني النعاس من جراها واما غدا فاذا وافقتنا الرياح سرنا الى الشمال بخط مستقيم وربما اكتشفنا السر المكنون وهو عيون النيل فهل تظن انني ارقد وانا قريب من ينابيع هذا النهر الشهير

فرقد ديك ويوسف بمحافظة رفيقهما العلامة لان الاهتمامات العلمية لم تكن تسبب لهما الهواجس والافكار

ولما اصبح صباح الاربعاء في ٢٣ نيسان رفعت المنصورة مرساتها وكانت وقتئذٍ الساعة الرابعة وكان غيم الظلام المحيق بالبحيرة يتبدد قليلًا فقليلًا ولكن قد هبت الريح بعد برهة وضحلت غيمًا كثيفًا كان مظللًا مياه البحيرة فارتفعت المنصورة الى المعالي واضطربت في اول وهلة ثم اتجهت نحو الشمال

فصفق العلامة بكفيهِ علامة الفرح والابتهاج وصرخ قائلًا : ها نحن في سبيل مستقيم وان شاء المولى نشاهد اليوم عيون النيل والَّا فلا نعود نراها ابداً ونجوز الان بخط الاستواء وندخل في نصف الكرة الشمالي

قال يوسف : وهل تظن يا سيدي ان خط الاستواء مارٌّ ههنا

قال فرغوسن : نعم يا خليلي الامين

قال يوسف : فارجوك اذاً ان تأذن لي لكي اشرب على صحتهِ حالًا اذ اني ارى ذلك مناسباً

فضحك العلامة وقال : افعل ما بدا لك واشرب كاس عرقٍ اذ شئت ولعمري ان لك فنًّا خاصًّا بك لكنهُ لا يخلو من الفطنة والحكمة

وعلى هذا النسق كان احتفال مرورهم بخط نصف الكرة الارضية من اعلا مركبتهم الهوائية

ثم عجت الريح فاسرعت المركبة بالمسير فسارت ثلاثين ميلًا بالساعة فشاهد المسافرون الساحل الغربي منخفضاً قليل العوج وسهلات أُوغندا وأُزوغا المرتفعة بعض الارتفاع

وشاهدوا مياه البحيرة الهائجة تعلو بعنفٍ كامواج البحر واستنتج العلامة ان البحيرة عميقة جدًّا من مشاهدتهِ بعض الامواج تترجرج مدةً بعد سكون الهواء فمرُّوا بتلك البحيرة كلها ولم يبصروا فيها سوى قاربًا او قاربين

فقال العلامة : لا بدع ان هذه البحيرة المرتفعة المركز هي الحوض الطبيعي الذي منهُ تجري مياه الانهر التي في شرقي افريقية وما تجتذبهُ السماء اليها من الابخرة تغشيه بالامطار وعندي انهُ امر ماكد ان منبع النيل من هذه البحيرة

قال ديك : وهذا سنحققهُ ان شاء الله

وعند الساعة التاسعة اقترب المسافرون من الجهة الغربية فكانت قفرة وُمخشبة ثم هبت الريح نحو الشرق فدفعت المنصورة الى الساحل الثاني من البحيرة فكان منحنياً وفي آخرهِ زاوية مكشوفة في درجة ٤٠ ٢° من العرض الشمالي وفي هذه الجهة الاخيرة جبال شاهقة ذات رؤُس قاحلة ويخترق هذه الجبال مضيق عميق ذو ثنيات عديدة يجري فيهِ نهر مزبد المياه

اما العلامة فكنت تراهُ محدقاً نظرهُ بتلك المحلات مع اعتنائهِ بادارة المركبة وكان باذلاً جهدهُ ان لا يفوتهُ شيء مما وُجد بتلك النواحي

ثم نادى رفيقيهِ وقال لهما: لقد صدقت حكايات العرب المتداولة بينهم بقولهم عن نهر منهُ تتحوَّل بحيرة اوكارُوه الى الشمال لان هذا النهر موجود بالحقيقة وها نحن سائرون فوقهُ ومياهُ تجري سريعاً وتحاكي سرعتها سرعة منصورتنا وكل نقطةٍ مما نشاهدهُ من هذه المياه الجارية تحت اقدمنا تسير الى ان تصب في البحر الابيض وما هي الّا من مياه النيل

فصاح ديك قائلاً : ها هوذا النيل وقد شارك العلامة رفيقه بابتهاجهِ وتحيهِ معاً

اما يوسف فقال: حيَّ الله النيل. ومن عادة يوسف ان يحيي ايًا كان وقت طربهِ وسرورهِ

وقد قامت صخور وجلاميد بين ضفتي هذا النهر السري فاعاقت مسير مياههِ ومما حقق العلامة في تخميناتهِ مصادفتهُ كثيرًا من مجاري المياه السريعة والشلالات المحكي عنها

وشاهد سيولاً كثيرة لا يُحصى عديدها نازلة من اعلاء تلك الجبال المحدقة بالنهر والساقطة فيهِ وفي الجهة الغربية كانت تنفجر مياه السواقي وتسير جميعها وفي مسيرها تحتشد سوية وتتسابق في الوصول الى ذلك النهر الآخذ

في التعاظم والتجسم شيئاً فشيئاً

فقال العلامة : لا شك في ان هذا هو النيل ولقد اشطَّ العلماء بالتفتيش عن اصل اسمهِ كما اشطوا باستقراء منبعهِ فنهم من اصَّلهُ من اللغة اليونانية ومنهم من اصَّلهُ من القبطية ومنهم من اصَّلهُ من الهندية القديمة (١) ولكن ما لنا الان ولاصل اللفظة اذ قد أُوتينا مشاهدة منبع المياه

قال الصياد : وكيف نؤكد ان هذا النهر ليس هو الّا ذاك الذي شاهدهُ المسافرون الذين اتوا من الجهة الشمالية واخبروا عنهُ

قال فرغوسن : اذا وافقنا الهواء سنجد بحولهِ تعالى عما قريب براهين ثابتة مقنعة لا رادَّ لها

ثم افترقت الجبال بعضها عن بعض وقامت مقامها القرى والضياع الكثيرة والحقول المزروعة سمسماً وذرة وقصب سكر ولما مرت المنصورة فوق سكانها هاجوا واضطربوا واظهروا الغضب والعدوان عوضاً عن ان يتأهبوا للعبادة اذ احسوا ان المسافرين اناس غرباء لا الهة وكأن من قصد عيون النيل حاول ان يسرق منهم كنزاً مكنوناً او جوهرة ثمينة فاضطرت المنصورة ان تمكث سامية الارتفاع لئلا يبلغ اليها برقيل العبيد (والبرقيل آلة يُرمي بها البندق)

قال ديك : لا نستطيع ان نحط في هذه الاراضي بدون خطر

فجاوبهُ يوسف وقال : انما هم الخاسرون لانهم يعدمون لذة محادثتنا

قال فرغوسن : لا بد من النزول في هذا المكان ولو ربع ساعة وإلّا فلا يمكني ان اثبت نتائج رحلتي

قال ديك : وهل لا بد من ذلك

(١) وقد جمع احد العلماء اليونانيين ارقام نيلوس على ما في اللغة اليونانية القديمة فبلغ عددها ٣٦٥ يوماً وهي عدد ايام السنة تماماً

قال فرغوسن: لا بد منهُ ولو اضطرتنا الامور الى المحاربة والمناضلة

قال ديك: هذا مما يسرني واخذ في ملاطفة بارودتهِ وتأهب لاذخارها

قال يوسف: نحن بين يديك فمر بما تشاء واستعد هو ايضاً للمبارزة والقتال

قال فرغوسن: لا تكون هذه المرة الاولى التي استنجد فيها العلم قوة السلاح لان ذا الامر جرى في اسبانيا لعلامةٍ فرنسي وهو يقيس ربع الدائرة الارضية

قال ديك: طمئن روعك يا فرغوسن وثق بمحافظين ماهرين

قال يوسف: وهل وصلنا يا سيدي

قال فرغوسن: كلا وينبغي لنا اولًا ان نرتفع الى العلاء لنشاهد رسم هذه الناحية حق المشاهدة

فامتد الإدروجن واذا بالمنصورة علت برهة عشر دقائق الفين وخمسمائة قدم فوق الارض ومن هناك بصروا بشبكة انهر لا يحصى عديدها مختلطة بعضها ببعضٍ تصب مياهها في النهر العظيم وغيرها ايضاً كانت تجري غرباً بين الاكام الكثيرة المحيقة بها الحقول الخصبة

وفيما كان العلامة ينظر الى الرسم الجغرافي قال: لسنا بعيدين عن غندوكورو تسعين ميلًا بل لا نبعد عن الحدّ الذي بلغوهُ المسافرون الآتون من الشمال بخمسة اميال فلنقترب اذًا من الارض بتأنٍ واحتراز

فهبطت المنصورة نحو الفي قدم ونيف

وحينئذ قال العلامة: يا رفيقيّ كونا على حذر فاننا لا نعلم ماذا يطرأ علينا

قال ديك ويوسف: ها نحن على حضر

فسارت المنصورة متتبعة اثار النهر وهي تعلوهُ نحو مائة قدم وحسب تخمين العلامة بلغ عرض النهر في ذلك المكان مائة متر وشاهد المسافرون سكان تلك القرى الكائنة على ضفتيهِ في اضطرابٍ وشغبٍ وفي الدرجة

الثانية شلالة قائمة علوها عشرة اقدام ولا يمكن النزول بها

فقال العلامة: هذي هي الشلالة التي دلَّ عليها موسيو ديبنو

وكان حوض النهر آخذاً في الامتداد رويداً رويداً وبدأ المسافرون يشاهدون جزائر كثيرة منتصبة في وسطه اما العلامة فما زال محدقاً بها ومشدداً نظرهُ اليها لكنهُ كان كالمحتار في امرهِ اذ جعل يبحث عن مركز خفيّ ولم يكن يقع بصرهُ عليهِ

فتقدم بعض السودان في القارب الى ما تحت المركبة فقرأهم ديك سلاماً جميلاً باطلاقهِ عليهم الرصاص فلم يصب احداً بل القى في قلوبهم الرعب والهلع ولذا هرولوا راكضين الى ضفة النهر

فودعهم يوسف وقال: بحفظ الله وامنه يا خلاّن ولو كنت مكانكم لما تجرأت قط على الرجوع الى هنا لكنت اخاف جداً من وحش جوي يرمي الصواعق من العلاء على من يشاء

وفيما هم على تلك الحال اذ امسك العلامة نظارتهُ على الفور ووجه بصرهُ الى جزيرة منتصبة وسط النهر

وقال: هاك اربع اشجار

وفي الحقيقة كانت اشجار اربع مرتفعة في طرف تلك الجزيرة

ثم قال: هذه جزيرة بنغا

قال ديك: وبعدهُ ماذا يكون

قال فرغوسن: ان شاء المولى ترلنا هناك

قال يوسف ولكن ارى ان العبيد حالون عليها

قال ديك: ان كلام يوسف طبق واقعة الحال فاني اعاين نحو عشرين رجلاً مجتمعين في هذه الجزيرة

قال فرغوسن : وهل يعيقنا هؤلاء عن انفاذ مرغوبنا فاننا نبدد شملهم

قال ديك : اذا حسن ذلكُ لديك فانا في يدكِ

وعند ما اقتربت المنصورة من الجزيرة كانت الشمس قد وصلت الى السمت وناهزت الغروب

اما العبيد الذين هم من قبيلة مكادوفاذ شاهدوا القبة الهوائية ضجوا في الصراخ ورفع واحد منهم قلنسوتهُ عن رأسهِ وجعل يهزها في الهواء فاتخذها ديك هدفًا لهُ ورماها برصاصةٍ فسقطت من يده متفرقعة وذهبت شذر مذر فولت الشجاعة عن قلوب العبيــد مدبرة وخافوا من تلك اللطمة الجوية خوفًا عظيمًا وللحال اسرعوا جميعًا بالنزول الى النهر وجازوهُ بالساحة ومن هناك اخذوا يضربون القبة بالمجانق والجلاهق والاسنة لكنها لم تصبها قط ضربة واحدة ثم تعلقت مرساة المنصورة بثقب صخر ونزل يوسف الى الارض في الساعة وللحال

فقال لهُ العلامة : انصب لنا السلم وانت يا ديك تعالَ معي

قال ديك : والى اين ولِمَ

قال : هلمَّ بي نذهب سويةً لانهُ يعوزني شاهد

•قال ديك : هانذا بين يديك

قال فرغوسن : وانت يا يوسف كن امينًا في حراستك

قال يوسف : كن مرتاح البال من هذا القبيل فاني مسئول بالجميع

ثم ذهب العلامة برفيقهِ الى مجموع صخور منتصبة عند رأس الجزيرة وهناك جدَّ في الفحص والتفتيش واخذ ينبش في الاجام حتى تخضبت يداهُ بالدم ثم مسك فجأةً بيد رفيقهِ وقال لهُ انظر الى ههنا

قال : ارى حروفًا

وفي الحقيقة كان حرفان منقورين في الصخر وظاهرين للعيان بجلاءٍ وبيان

وهما A. D اي ا . د .

قال فرغوسن : اعلم يا رفيقي وفقــك الله ان ا. د. هما اول حرفي اسم اندريا ديبنو وهو من سبق جميع الذين قصدوا اكتشاف عيون النيل في التقدم الى هذا المكان

قال ديك : ان ذا امرٌ لا ردَّ عليهِ

قال العلامة : وهل عندك اشكال في الامر الان

قال : انما هذا النيل ولا ريب فيهِ

ثم نظر فرغوسن الى هذين الحرفين الثمينين نظرةً اخيرة واخذ رسمها بدقــة تامــة

وبعد ذلك قال الى رفيقهِ : هلمَّ بنا لنعود الى قبتنا

قال ديك : فلنسـرع لان بعض العبيد يتــأهبون لعبر النهر والاتيان الى هذا المقر

قال العلامة : لا يهمنـــا الان شيء اذا دامت الريح برهةً دفعتنا ذات الشمال نصل الى غندوكورو ونعاين ابناء الاوطان

وما مضت عشر دقائق الّا خفقت المنصورة بصعودهـــا الى الاعالي ثم نشر فرغوسن الراية الانـكليزية في تلك البطاح دلالةً على فوزه بالنجاح

الفصل السابع عشر

في الجبل المرتجف واقوام نيام نيام وما كان من احاديث العرب عن تلك البلاد

فاذ شاهد ديك رفيقـهُ العلامة ناظرًا الى البوصلة سألهُ قائلا : وما هو اتجاهنا·

قال العلامة : اننا نسير الى جهة شمال الشمالي الغربي

قال ديك : ويلاهُ ان هذه لجهة ليست الشمالية

قال العلامة كلاَّ : واظن انهُ يعسر علينا جدًا الوصول الى غندكورو وذلك مما يكدرني · غير انهُ على كل الاحوال فاننا قد وصلنا حبل اكتشافات الجهة الشرقية بالشمالية فعليهِ لايليق بنا الاسف

واخذت المنصورة تبتعد رويدًا رويدًا من النيل

ولاحت من العلامة التفاتة الى تلك درجة العرض التي امتنع على اعظم السواح قطعها وقال : هاك تلك القبائل العاصية التي عنى عنها بتاريك ودارنو وميانى والشاب لجان الذين تركوا لنا احسن الفوائد المتعلقة بالنيل الاعلى

قال ديك : ولحالة هذه قد ايَّدت اكتشافاتنا سابق تخمنات العلماء

قال فرغوسن : اي نعم قد ايَّدتها كثيرًا فان ينابيع البحر الابيض مغمورة في بحيرة عظيمة كالبحر وكثيرًا ما نُظمت الاشعار بشانهِ فحاولت ان تأصلهُ من ينبوع سماوي وقد دعاهُ القدماء باسم اوقيانوس وقرب الى ظنهم انهُ جارٍ من الشمس بخطٍ مستقيم · ولا شك ان مثل هذه التخيلات الشعرية تخسر شيئًا من رونقها فعلينا ان نستقي من مياه الفوائد التي يأتينا بها العلم فننبذ ما نراهُ

عرياً عن الصحة ونستمسك بما فيهِ صحة الرأي

قال يوسف: وهناك شلالات ايضاً

قال فرغوسن: انما هي شلالات مكدو في ثلاث درجات عرضاً ولا شيء ادق من ذلك واقني لو كنا تمكنا من الرحيل فوق خط النيل

قال الصياد: وكأني ارى عن بعدٍ رأس جبلٍ

قال فرغوسن: هذا جبل لكويك المعروف عند العرب بالجبل المرتجف وقد طاف اندريا دِبُنو حول هذه البلاد وهو منتحلٌ لنفسهِ اسم لطيف افندي اما الاقوام الساكنون بالقرب من النيل فهم اعداء بعضهم لبعضٍ ولا ينفكون من القتال والمصارعة وعليهِ فلا بدَّ من ان يكون دِبُنو المذكور قد عانى من المشقات والمصاعب والمحذورات معظمها

وقد حملت الريح على اجنحتها منصورة المسافرين الى الجهة الشمالية الغربية وجدَّ العلامة في ان يجد طبقة هواء منحرفة عن الاتجاه الى جبل لكويك للتنحي عنهُ

فقال العلامة: خليليَّ مُذ هذه الساعة تبدا رحلتنا الافريقية لاننا فيما سبق لم نتبع الآثار من سلفنا وها نحن الان نرمي بانفسنا في بحر هذه المفاوز المجهولة منا فقولا لي هل تخمد همتكما ويبرد نشاطكما

فصاح الرفيقان بصوتٍ واحد وقائلين كلاَّ ثم كلاَّ

فقال فرغوسن هيا بنا هيا يا خليليَّ ولنسير بحفظ المولى

ولما دخلت الساعة العاشرة وقد مرَّ اذ ذاك المسافرون فوق وهداتٍ واحراش وقرى متفرقة وصلوا اخيراً الى جانب الجبل المرتجف ففاتوهُ ومضوا بغير عاقة

وفي ذلك النهار المخلد الذكر اي في ٢٣ نيسان مرُّوا ببرهة خمس عشرة

ساعة مسافة ثلاثمائة وخمسة عشر ميلًا جغرافيًا وذلك بقوة ريح شديدة

ولكنك كنت تراهم في هذه المدة الاخيرة ملتحفين بشعار كآبةٍ لا سبب ظاهرٌ لها وقد ملك السكوت المطلق في افئدتهم فهل يا ترى كان فرغوسن غارقًا في بحر التأملات من جرى اكتشافاته ام كان رفيقاه حاملين على عاتقهما عبء الاهتمام بالرحلة العتيدة وسط البلاد القفرة والمفاوز الشاسعة وهم اذ ذاك لا يعرفون لها بدءا ولا نهاية فلا شك في ان جميع هذه الامور تخللت افكار المسافرين وقد خالجها التذكر بالاوطان والخلان

اما يوسف فما لاحت على محياه الّا لوائح عدم الاكتراث بشيء واذا خطر له على بال ذكر هوى الاوطان قد قال : لم تغب عني الاوطان بل انا غبت عنها وهذه علة غربتي ومع ذلك قد نظر الى سكوت رفيقيه بعين الحرمة والاعتبار

فعند الساعة العاشرة مساء القت المركبة مرساتها في جرار الجبل المرتجف وتناولوا العشاء بالهناء ثم رقدوا بحراسة كل منهم

وفي الغد طرقت اذهانهم الافكار الصافية وكان الجو رائقًا والريح تتلاعب في تلك الافاق ومهبها من الجهة الموافقة فقام يوسف وقدم لرفيقيه فطورًا لذيذًا فانتعشت منهم الاكباد وتحولت اخلاقهم من دار العبوس الى دار الايناس

واما البلاد التي جابوها في ذلك اليوم فهي شاسعة جدًا وتخومها من جبال القمر الى جبال درفور وتلك المسافة تكاد تبلغ مسافة اوربا من اولها الى اخرها

فقال العلامة : اننا مارُون الان بالبلاد التي زُعم عنها انها مملكة أُزوغا وارتأى بعض اهل الجغرافية ان بحيرة عظيمة ممتدة في اواسطها فسنعلم ان كان

في هذا الامر بعض ظواهر الحقيقة

قال ديك: وكيف امكن افتراض ذلك الرأي

قال فرغوسن: انهم افترضوهُ من حكايات العرب الذين يكثرون من الاخبار والاحاديث فان بعض المسافرين عند وصولهم الى كازه او الى البحيرات العظيمة تلاقوا بعبيدٍ من الاقاليم المتوسطة فاستعلموا منهم عن بلادهم ثم سخنوا رزمة اوراق بتلك الاخبار واستنتجوا منها أقيسة وذهبوا فيها مذاهب شتى وهي في جوهرها لا تخلو من بعض الصحة والحقيقة وقد رأيت الان ان حكاياتهم عن منبع النيل وقعت موقع الحقيقة وان لم تؤْخذ قبلًا على محمل الصدق

قال ديك: في الحق تكلمت

فاستتلى فرغوسن كلامهُ وقال: انهُ بواسطة هذه الاوراق والاخبار سُطرت الرسوم الجغرافية ولهذا سأسير في طريقي طبقًا لهذه الرسوم واصلحها اذا مست الحاجة

قال يوسف: يا مولاي وهل هذه البلاد مسكونة بالاهالي

قال العلامة: لا ريب في انها مسكونة ولكن بئس السكنى وجميع هؤلاء الاقوام يُعرَفون باقوام نيام نيام وما وُضع هذا الاسم الّا مماثلة للمضغ والعلك

قال يوسف: بالتمام والكمال نيام نيام نيام نيام فكأني ضامغٌ

قال العلامة: لو كنت سببًا لهذا اللقب لما طابت لديك

قال يوسف: فسر لي كلامك يا سيدي

قال فرغوسن: اعلم ان هؤلاء الاقوام معدودون اغوالًا يأكلون لحم بني آدم

قال يوسف : وهل ذا امر لا يشوبهُ ريب

قال العلامة : ولا ريب فيهِ ومن النـــاس من قال عنهم ان لهم اذناب كالدواب والبهائم ولكن تحقق عندهم فيما بعد ان هذه الاذناب خاصةً بجلود بعض الحيوانات التي كانوا يتردون بها

قال يوسف : وما احلى من الذنب فانهُ يصلح لطرد الناموس والبعوض

قال فرغوسن : ربما يصلح لذلك ولكن ينبغي ان ندخل هذه الحكايات في طي الخرافات معما نسبهُ احد السواح من رؤوس الكلاب الى بعض الاقوام

قال يوسف : ولا احلى من رؤوس الكلاب ايضاً لانها تصلح للعواء حتى وتنفع لأكل بني البشر

قال فرغوسن : ان الامر المثبوتة صحتـــهُ والموجب كل اسفي انما هو ان هؤلاء الاقوام متولعون جداً في تلقف بشرة الانسان وطالبونها بغرامٍ عظيم

قال يوسف : اودّ ان لا يغرموا في جسدي

قال الصياد : وهذا حسبك يا يوسف

قال يوسف : اذا طرأ علينـــا يوم قحطٍ وجوع ومست الحـــاجة الى ان أؤكل فارغب في ان تنتفع بي انت وسيدي ولكن اذا وقعت في ايدي هؤلاء البرابرة وقُضي عليّ بان اكون لهم غذاء لا بد من ان اموت خزياً وكمداً

قال الصياد : حياك الله يا يوسف فقد تم الاتفاق بيننا وعوّلنا على ان نعتمد عليك وقت الحاجة

قال يوسف : سادتي انا بالخدامة

قال العلامة : انهُ يتفوّه بهذا الكلام لنعتني بهِ ونقيته قوتاً جيداً فيسمن ويضخم

قال يوسف: ان ذا رأيٌ محتمل استوحذ عليهِ حب الذات المفرط لان الانسان حيوانٌ

ولما كان بعد الظهر تظللت السماء بضبـاب سخن يتصاعد من الارض ويمنع المسافرين عن تمييز الاشياء في طريقهم قد عوَّل العلامة على ان يرمي المرساة الساعة الخامسة خشية من ان تصدم المركبة رأس صخرة وهم لا يشعرون بذلك

فقضوا ليلتهم حيثما كانوا ولم يطرأ عليهم طارق غير ان مثل ذلك الظلام اوجب عليهم مضاعفة السهر والاحتراز

وعند الصبـاح قد هبت الريح بشـدةٍ وصار الهواء يدخل متعمقاً في اسفل القبة ويحرك الآلة التي كانت تدخل فيها انابيب امتداد الغـاز فمنعوا اضطرابها بحبال شُدَّت بها وقد تمم يوسف هذا الامر باحكام وفطنة

وتمعن يوسف في فوهة القبة الهوائية وحقق انها مسدودة سداً محكماً

فقال العلامة: لنا فائدة من جهتين بسدادة الفوهة فمن الجهـة الاولى لا يتلف الغاز الثمين ومن الجهة الثانية لا نترك وراءنا ذنباً قابل الاشتعال لانهُ يخشى عليهِ اخيراً ان يلتهب ويحرق القبة

قال يوسف: ولا اردأ من هذا حادث السوء في رحلتنا

قال ديك: وهل اذا لا سمح الله بُلينا بهِ تهوَّرنا الى الارض بسرعة

قال العلامة: كلاَّ فلا نتهوَّر بسرعةٍ بل يأخذ الغاز في الاشتعـال رويداً رويداً وننزل قليلاً فقليلاً وهذا ما جرى للسيدة الفرنسية بلنشار وهي راكبة مركبة هوائية فقد اشتعلت قبتها وهي ترمي بالاسهام النارية من مركبتها لكنها لم تسقط حالاً ولو لم تصدم في نزولها مدخنة قابت قاربها لما كان اصابها ما اصابها من السوء

قال الصياد: اومل ان لا ينوبنا مثل هذا العارض المشئوم لاني الى الان لم ارَ خطرًا في رحلتنا ولا ارى سببًا يصدنا عن الوصول الى اربنا

قال العلامة: ولا انا ايضًا واعلم يا صاح ان العوارض التي طرأت على راكبي المركبات كانت دائمًا مسببة عن قلة فطنتهم او عن قصورٍ بدا منهم في بنا القبة والآلتها ومع هذا كلهِ فلم نسمع عن حوادث سببت الموت لراكبي المركبات الَّا مّا قلَّ ويكاد يبلغ الواحد في الالف ولكن في العموم ليست الاخطار الَّا في الارتفاع فوق الارض والنزول اليها ولذلك ينبغي لنا ان نكون على حرصٍ وحذر وان لا يبدو منا قصورٌ وتوانٍ في الاعتناء الكامل

قال يوسف: هذا وقت الغذاء يا سادتي فنستكفي حاليًا في ان نتناول لحمًا قديدًا وبعدهُ نشرب القهوة الى ان يتمكن ديك من ان يصطاد لنا بعض الوحوش ذات اللحوم اللذيذة

الفصل الثامن عشر

في الانة السماوية والاثمار السامية الارتفاع والمذبحة الشنيعة التي تخللتها الوسائط الالهية

ثم اشتدت الريح وهبت من جهاتٍ مختلفة ولم يُعرَف لها اتجـاه ولذا كانت المنصورة تثب وثبات شديدة مديدة تارة نحو الشمال وطوراً نحو الجنوب ولم يستطع فرغوسن ان يصادف مهباً ثابتاً

فلما نظر ديك الى الابرة المغنـاطيسية ورآها تضطرب وتتذبذب كثيراً قال: اننا نسير بسرعة هائلة لكننا نتقدم قليلًا الى ما قدام

فقال العلامة: ان المنصورة تسير اقلهُ مسافة ثلاثين ميلًا في السـاعة وعليك يا ديك ان تميل بعينيك الى اسفل فترى كيف تتوارى الحقول عن ابصارك وانظر الى هذا الغاب ايضاً فكانهُ مسرعٌ الى ملاقاتنا

قال الصياد: اما ترى ان الفدفد قد قام مقام الغاب فما مضت برهة الّا تكلم يوسف وقال: هاك القرية قد قامت مقام الفدفد فتأملا في السودان كيف ان الدهشة استولت على محياهم يا ما ابلدهم

قال العلامة: ومن الامور الطبيعية ان تستولي عليهم البهتة والدهشـة فان الفلاحين الفرنسيين عند مشاهدتهم القباب الطيارة في المرة الاولى ظنوا انها وحوش جوية فاطلقوا عليها الرصاص ولهذا لا عجب اذا حدقت السودان ابصارهم متفرجين على قبتنا

وكانت المنصورة مارة فوق قريةٍ وهي لا تعلوها اكثر من مائة قدم

فقال يوسف: طرق ذهني ان الّتي لهؤلاء الانام المنفرجين انية فارغة ان أذنت لي يا سيدي فاذا وصلت الى الارض سالمة من كل غائلةٍ عبدوها كالهة واذا تحطمت كسراً اتخذوا تلك الكسر كطلمات سحرية .

فما فاه بهذا الكلام الّا ورمى بالانية فتكسرت ارابًا اما السودان اضطربوا وضجوا في الصراخ ثم طفقوا يأوُون الى كهوفهم خوفًا من الغوايل الجوية

وبعد ان ساروا برهةً قال ديك: ها هو شجرة غريبة الشكل لانها من جنسٍ في اعلاها وجنسٍ آخر في اسفلها

قال يوسف : ويحك يا ديك ان الاشجار في هذه البلاد تنبت بعضها فوق بعض

قال العلامة: انما حقيقة الامر هو ان جزع شجرة تين عليهِ تراب نباتي فهبت الريح يومـاً ودفعت بزرة نخلٍ على ذلك التراب فنمت النخلة كانها زُرعت في حقلة

قال يوسف: لعمري انها لصناعة جميلة ساهتم بحولهِ تعالى في ان اجريها بحدائق لندرة ان ذلك مما يطرب الخاطر ويعجب الناظر وهي وسيلة ظريفة لتكثير الاشجار ذات الاثمار لارقاء الحدائق الى الجو ولا بدَّ من ان يسرّ بهذه الصنيعة اصحاب العقارات والاملاك الصغيرة

ثم اضطرت المنصورة الى ان تعلو الارض كثيرًا لتمرّ فوق اشجار باسقة يبلغ علوها نحو ثلاثمائة قدم ونيف وهي من جنس البان الطويل العمر

قال ديك: وما احلى هذه الاشجار وما اجملها لعمري لم ارَ في حياتي مشهداً بهياً كمشهد هذا الحرش ذي الاشجار القديمة الايام وارجوك يا فرغوسن ان تتمعن فيهِ قليلًا

قال فرغوسن : في الحقيقــة ان اشجار هذا الغاب من اعجب العجــاب ولكن الاعجب من ذلك هو انهُ في البلاد الاميركانية توجد اشجار اشمخ وابسق منها

قال ديك : واعجباه وهل من شجر اسمى علوّاً وارتفاعاً من هذه

قال العلامة : لا شك في ذلك وتلك الاشجار ندعوها باسم مموث تريس اي اشجار مموث فقد وجد في بلاد كاليفرنيا ارزة بلغ علوها اربعمائة وخمسون قدماً وهذا العلو يفوق برج لندرة (وهو من الابراج المشهورة في العلو) حتى واعظم اهرام مصر واما قاعدتها فبلغت دائرتها مائة وعشرين قدماً وقد أُستدل من الطبقات الظاهرة فيها ان عمرها ينوف الاربعة الاف سنة

قال يوسف : والحالة هذه فلا عجب في علوها وشموخهــا لان من عاش كثيراً طال كثيراً والشجرة التي عاشت مدة اربعة الاف سنة فمن الضرورة ان يوافق علوها طول عمرها

ولكن ما تمت حكاية العلامة وجواب يوسف الّا توارى الغــاب عن انظارهم ووصلوا فوق اكواخٍ مبنية حول ساحةٍ مستديرة ووسط تلك الســاحة شجرة وحيدة فلما نظر يوسف اليهــا قال : ويلاه اذا كانت هذه الشجرة تأتي بمثل تلك الاثمار منذ اربعة الاف سنة فلا احييها بالسلام ولا اسرُّ برؤيتها

قال هذا واومى الى جميزةٍ سامية العلو وقد غطي جزعها بكومــة من عظام بني آدم وقد اعنى يوسف بالاثمــار عن رؤوس مقطوعة حديثاً كانت معلقةً على خناجر مشكوكة في قشرة الشجرة

قال العلامة : يا لها من حرب شنيعة تشبــه حرب البسوس فان الهنود في مثل هذه الحروب يسلخون رأس الاســير الذي يقع تحت غائلة القتل واما الافريقيون فيقطعون راسهُ تماماً

قال يوسف : فان لكل فريق عادةً

فما مضى برهةٌ الّا تركوا وراءهم تلك القرية ذات الرؤُوس المخضبة بالدماء غير انهم وصلوا الى قرية اخرى شاهدوا فيها منظرًا يفتت الاكباد ويزقها تحسرًا وتأسفًا اذ بصروا بجثث بعض القتلى المأكولة الى نصفها وعظامًا مجردة عن اللحم واعضاء اجسام بشرية مبعثرة هنا وهناك وتجذب رائحتها الضباع وابناء آوي ليتلقفوا منها ما بقي من اللحوم

قال العلامة : لا ريب في ان هذه اجسام المجرمين وفي بلاد الحبشة ايضًا يُعاقب الاثمة بعقاب ليس اقلّ شناعةً ورداءةً اذ يلقونهم عرضة للوحوش الكاسرة فبعد ان خنقتهم هذه بنهشةٍ من نهشاتها المميتة تأخذ في ان تتبطقهم على خاطرها وهواها

قال الصياد : ليس هذا العقاب امرٌ من المشنقة بل انما هو اشنع واقبح كثيرًا

قال العلامة : ان عقاب المذنبين في بلاد افريقية الجنوبية هو انهم يُجعلون في اكواخهم مع ماشيتهم واحيانًا مع عائلتهم ثم تُضرم فيها النيران فيحترق الجميع معًا وانا اسمي هذا العقاب توحشًا لكنني اقرُّ معترفًا مع صاحبي ديك ان المشنقة عقاب بربري ايضًا وان كان اقل قساوة وشناعة من ذاك

اما يوسف فتوضح الجولةُ فلمح بصرهُ بعض شرذمات من الطيور الكاسرة تحوم في الافق

فنظر اليها ديك بالمنظرة وقال : انما هي نسور جميلة وسرعة طيرانها تضاهي سرعة مسيرنا الجوي

قال العلامة : وقانا الله من صدمة تصدم بها هذه الطيور قبتنا فاني اخشاها اكثر من الوحوش الضاريات والاقوام المتوحشين

قال ديك: ولما هذه المخافة ألا تعلم اننا نبدد شملها بالرصاص

قال العلاَّمة: احبُّ عليَّ ان لا احتاج الى حذقك هذه الدفعة لان قماش قبتنا ليست من حديد ليقاوم نقرة من نقار منقارها غير اني اراها قد اختشت قبتنا ولم تجذبها الينا غوابة منصورتنا

قال يوسف: ولكن طرق ذهني فكرٌ يا خليليَّ فان الافكار تداهمني اليوم بالعشرات والميئات وهو لو امكنا ان ناقط زمرةً من النسور الحية ونربطها بمركبتنا لقد جرتنا في الجوّ على اجمل منوال

قال العلامة: وقد عُرضت هذه الطريقة بجدٍّ انما الذي يمنع نفوذ الامر هو الخلق الجموح المنفطرة عليهِ تلك الطيور

قال يوسف: وهلاَّ يمكن ترويضها وتهذيبها وعوضًا عن اللجام تُجعل عصابة على عيونها فاذا حُجبت عين اليمين سارت النسور ذات شمال والعكس بالعكس واذا حجبت العينان وقفت بغتةً الطيور

قال العلامـة: أذن لي يا حبيبي ان أُفضل ريحًا موافقـة على نسورك المقطورة لان الريح لا تأكل نظيرها وتُرى لي اين

قال يوسف: الاذن معك يا سيدي لكني ما زلت ضابطًا ما رأيتـهُ من الرأي

قال العلامة: لا بأس في ذلك

وكان الظهر والمنصورة اخذت في سير الهوينا في تلك البطاح وعلى الفور طرق آذان المسافرين ضجيج وعرير وصفير فتطلعوا من مركبتهم الى اسفل واذا ترأى لاعينهم ما حملهم على التأسف والكدر وفجع افئدتهم غمًا وكربًا وهو مشهد قبيلتين متهوشتين في معمعة القتال يبارز بعضهم بعضًا ويقتل بعضهم بعاندةٍ وضغنٍ شديد وبينما هم يقاتلون ويتباجون مباجة الكلاب اذا مرت

المنصورة فوقهم ولم يشاهدوها وكانوا نحو ثلاثمائة نفر محتبكين في حومة المعركة وكثيرون منهم خائضون في دماء قتلاهم ومنظرهم مما تمجه الاعين وتأنف منهُ القلوب

فعند ما بصروا بالقبة الطيارة وقفوا لحظةً وازدادوا ضجيجًا وبعاقًا وجعلوا يرمونها بالسهام فوصلت منها واحدة بالقرب منها وتمكن يوسف من امساكها بيده .

فقال حينئذٍ فرغوسن : فلنرتفع الى الاعالي لئلا يصيبنا سهمٌ ولا نكوننَّ قليلي الفطنة فانهُ لا يجوز لنا ان نستقر في هذه الدرجة فاخذت المنصورة بالارتفاع وما زال الذبح والبراز جاريين على قدم وساق فنفذت النبال وتكسرت النصال وتحطمت السمر الطوال واحمرَّ بساط الارض من هدر الدماء في ذلك القتال وكلما تجندل عدوٌّ الى الحضيض قتلهُ خصمهُ بضربةٍ فقطع رأسهُ للحال وقد تداخلت النساء في تلك المعمعة الهائلة فكنَّ يتسابقنَ على جمع الرؤوس السابحة في الدماء المتفجرة وينهبنَ بها الى آخر ساحة القتال وكثيرًا ما تصارعْنَ للحظوى بتلك غنائم الظفر الكريهة المنظر

فقال ديك وقد شقَّ قلبهُ سهام الكدر والنفور مما شاهدهُ في تلك الملحمة الهائلة : ويلاهُ ما افجع هذا المشهد وما اسواهُ

قال يوسف : ان المحاربين اناس ذوو صورة قبيحة ولكن لو لبسوا الثياب العسكرية لكانوا كسائر الجنود في الحروب المدنية

فقال ديك : ارغب جدًا في ان اتوسط بين هؤلاء المحاربين في هذه المعركة الهائلة

قال هذا ومسك سلاحهُ متأهبًا لاطلاق الرصاص

قال العلامة حذارِ حذارِ من هذا الصنيع فانهُ لا يأتينا الّا بالاذية والضرر

فلنهتم بما يعنينا وقل لي ايضاً هل تعرف مَن من الطائفتين هي المذنبة لتتوسط بينهما وتستنصر لاحداهنَّ . فالخليق بنا ان نفرَّ من هذا المنظر البشع الذي تنفر منهُ القلوب . فلو اشرف رؤساء الجنود في الحروب على ساحات الحرب وتأملوا ما يجري فيها من سفك الدماء لذهب ذلك المشهد برغبتهم في المحاربة وجني الفتوحات

وكان احد رؤساء الطائفتين يمتاز بطول القامة وعرض الجسم فانهُ كان يخترق صفوف العدو ويضرب بالفأس ويشك الرمح ثم القى لحظة رمحهُ بعيداً عنهُ وكان مغمساً في الدم ورمى بنفسهِ على احد الجرحى ثم جذم ذراعهُ بضربةٍ واحدة من الفأس ومسكهُ بيدهِ رافعاً اياه الى فهِ وجعل يعضهُ بتواتر

قال ديك : ويلاهُ ما هذا الوحش المفترس لقد عيل اصطباري

قال هذا واطلق عليهِ رصاصةً فاصابتهُ في جبهتهِ وصرعتهُ الى الارض مستلقياً على ظهرهِ فعند سقوطهِ استولت الدهشة والرعب على قلوب اتباعهِ وارتاعوا من موت رئيسهم العجيب وهاجت منهم الافكار اما اخصامهم فازدادوا شجاعةً وحماسةً وعليهِ قد فرّ نصف المحاربين من حومة القتالْ

فقال العلامة : هلموا بنا نرتقي الى طبقةٍ اعلى لنجد ريحاً تدفعنا الى مكان بعيد عن مشهد هؤلاء البرابرة لانهُ قد جن في قلبي حاسة الغم والكدر ولا عدت اطيق النظر اليهِ

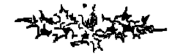
وبعد ان رحلوا برهةً شاهدوا عن بعدٍ الطائفة المستظهرة قد انقضت على القتلى والجرحى انقضاض الجوارح وجعلت تتنازع على لحومهم السخنة لتأكلها بشراهةٍ وحرص

فقال يوسف : أُفٍّ أُفٍّ ان ذا لموجب الاستكراه الفرار الفرار

واما المنصورة فشرعت في الارتفاع والامتداد وتبعهم قوم من اولئك

البرابرة المسوخ وهم يضجون في الصراخ والعريرولكن لما دفعتها الريح الى الجنوب توارت عن المذبحة الهائلة ومآكلة اللحم البشري

فكانت الارض في تلك المحلات مختلفة الهيئة والمنظر وتخططها مجاري المياه الكثيرة السائلة الى الجهة الشرقية ولا بدَّ انها تسكب مياهها في مصاب البحيرة نُواو في نهر الغزلان الذي اتى عنهُ المسافر لجان بفوائد غريبة الاشكال والالوان ولما امسى المساء القت المنصورة مرساتها في درجة ٢٧° طولًا و٢٠° ٤ عرضًا شماليًا بعد ان قطعت مسافة ١٥٠ ميلًا



الفصل التاسع عشر

في الغارة الليلية والصوت الصارخ اليَّ اليَّ وبذل الاجتهاد
في نجاة المرسل

وكان ظلام الليل حالكاً لم يسمح للعلامة فرغوسن ان يميز تملك البلاد ويعرف مركزهُ ولما كان متعلقاً بمركبتهِ فوق شجرةٍ عالية فبا لكاد تمكن من رمق اوراقها المتكاثفة في ذلك الظلام الدامس

وقد توكل لحراسة بمدة الثلاث ساعات التي يليها نصف الليل فقام ديك ليحرس مكانهُ فحرصهُ فرغوسن على ان لا يغفل في حراستهِ عن مراقبة ما يمكن ان يطرأ عليهم من الحوادث وقال: خال لي اني سمعت تغمغماً ولغطاً تحتنا ولا ادري ما هو

قال ديك: لربما سمعت اصوات بعض الوحوش الكاسرة

قال العلامة: كلاَّ فاني اتخذتهُ شيئاً آخر وعلى كل حال عليك ان تيقظنا عند ما يروعك ادنى شيء

قال ديك: لا بد من ذلك

وبعد ان امال العلامة باذنيهِ الى اسفل ولم يسمع شيئاً ارتمى على فراشهِ وتدثر باللحاف ونام

وكانت السماء مظللة بغيوم كثيفة ولكن الريح في استكانةٍ وهدوء ولم تتذبذب قط المنصورة وان تكن معلقة بمرساة واحدة

فلبث ديك مناظراً قصبة القبة وكان ساندًا ذراعهُ على المركبة ويتأمل احياناً بما حولهُ من السكوت العميق وينظر تارةً الى الافق لكن يستفحص عن

امر وهو في اضطراب وقلق وحسب انهُ يشاهد ضياء مبهماً

وفي لحظــة ظنَّ انهُ شاهد جلياً ضياء ساطعاً عن بعد نحو مائتي قدم لكنهُ كان كالبرق السريع اذ توارى عن بصرهِ ولم يبقَ لهُ اثر

فلم يكن ذلك الضياء الّا كتلك الاحساسات المضيئة التي تتراءى لاعين المتأملين في ظلمات الليل الحتبكة

فسكن روع ديك وذهب اضطرابهُ وجعل يتأمل في الفضــاء واذا بصفير حادٍ دوى في جوّ تلك الافاق .

فسأل ديك في نفســهِ قائلاً : هل هذا هو صوت حيوان ام طير الليل او هل هو صراخ ابن آدم

وكاد ديك يبقظ رفيقيه لخشيتهِ من خطبٍ يلمُّ بهِ وهو على تلك الحال لكنهُ قال في نفسهِ : ان كان هؤلاء رجالاً او وحوشاً فهم غير قادرين على الوصول الى قتنا ثم نظر الى سلاحهِ واخذ مظرة الليل وجعل يحدق بصرهُ في الفضاء

فخيل لهُ انهُ رأى تحت القبة خيالاتٍ تتسلق على الشجرة ثم ارسل بدر الليل شعاعاً طفيفاً من بين سحابتين فتمكن ديك من مشاهدة بعض اشخاص متحركين وماشين في الظلام

وطرق حينئذٍ ذهنهُ تلك السعادين اللآتي صارعهــا العلامة وهو اذ ذاك مقيم وحدهُ في المركبة ولساعتهِ وضع يدهُ على كتف العلامة

فاستيقظ فرغوسن للحال وقبل ان يستفهم من رفيقهِ عن واقعة الحال قال لهُ ديك : صهْ يا فرغوسن ولا تتكلم الّا بصوتٍ منخفض

قال العلامة : وهل من حادث طرأ

قال : نعم فليستيقظنَّ يوسف

فلما استفاق يوسف من الرقاد اخذ الصياد في التخبير عما تراءى لهُ

فقال يوسف قبح الله السعادين فانها تودّ ان تقلقنا

قال العلامة : وعلينا باخذ الاحتياط اللازم

قال ديك : اني انزل مع يوسف الى الشجرة بالسلم لنفك المرساة

قال العلامة : اما انا في غضون ذلك ساعدّ الآلة لنتمكن من الصعود الى العلاء بسرعة وخفة

فقال يوسف . هلمَّ يا ديك ننزل

فقال لهما العلامة : اياكما ان تستعملا السلاح اذا لم تحوجكما الى ذلك الضرورة القصوى لان لا فائدة لنا ان يدري بنا احدٌ في هذه النواحي

فاومى ديك ويوسف الى العلامة بالاشارة جوابًا عن سواله ثم نزلا الى الشجرة وارتكزا على اغصان كبيرة كانت المرساة متعلقة باحداهنَّ

ثم وقفا لحظةً ناصتين فسمع يوسف حكًا في قشر الشجرة

فمسك بيد رفيقهِ وقال : انصت باذنيك واسمع

قال : اني سامع واخال الصوت يقرب ما

قال يوسف : عسى ان يكون ما سمعتهُ صفير حية

قال : كلاَّ لانهُ كان يشبه صوتًا بشريًا

قال يوسف : احبُّ عليَّ ان يكونوا اقوامًا برابرة من ان تكون افاعي مسمة فاني لا اطيقها

ثم مضت برهةً وقال ديك : ان الضجة تزداد رويدًا رويدًا

قال يوسف : نعم فان الآتي الينا يتسلق ويصعد

قال ديك : انت قم في حراسة هذه الجهة وانا اتوكل حراسة الاخرى

فكانا كلاهما منفردين على ذروة غصن كبير نابت بخطٍّ مستقيم في وسط تلك شجرة البوباب التي تضاهي حرشًا بكبرها واتساعها

فزاد كثيف الاوراق ظلاماً على كثيف الظلام ولكن قد دنا يوسف من رفيقهِ واومى اليهِ ان ينظر الى ناحية الشجرة السفلى وقال: انهم عبيد سود

ثم سمع الرفيقان كلاماً تداولتهُ العبيد من اسفل

فرفع يوسف سلاحهُ مستعداً لايراث النار

فقال لهُ ديك: مهلاً رويداً يا يوسف

وفي الحقيقة كان بعض العبيد السود قد تسلقوا الشجرة وهم هائجون ومائجون وكانوا ينسربون على الاغصان كالافاعي وقد تحقق دنوهم مما اباحهُ اجسادهم من الروائح الكرهة لكونها ممروخةً بالشحم المنتن

ثم تراءى لابصار ديك ويوسف راسان وذلك بمساوات الغصن المقيمان هما عليهِ

فقال ديك: هيا يا يوسف اطلق النار

فاطلق الرصاص معاً وسمع لطلقتهما دويٌّ اشبه بقصيف الرعد ثم خمد الدوي ما بين اصوات الاكتئاب وعب مرور دقيقة من الزمن غابت تلك الشرذمة السوداء

واما الذي القى اصحابنا الثلاثة في بحر القلق والحيرة هو انهم سمعوا صوتاً تخلل ذلك الضجيج ولم يكن يخطر لبالهم انهم يسمعوهُ وظنوهُ مستحيلاً وهو صوت بشري نطق الكلمات الآتية باللغة الافرنسية بوضوح وجلاء وهي: A moi ! A moi! اليَّ اليَّ

فانذهل ديك ويوسف عن هذا الصوت العجيب وعادا مسرعين الى المركبة

قال لهما العلامة: أسمعتما

قال ديك: سمعنا الصوت العجيب الصارخ اليَّ اليَّ

قال العلامة: عساهُ صوت رجل فرنسي رماهُ التعس في ايدي هؤلاء البرابرة

قال ديك: ربما هو سائحٌ افرنسي

قال يوسف: او احد المرسلين

فقال الصياد: واهًا على حظهِ فانهم يقتلونهُ ويذيقونهُ عذاب الشهداء الاليم

فقال العلامة وقد خالج صدره شعائر الاضطراب والتأسف: لا شكَّ في ذلك وهو ان احد الفرنسيس قد اضحى فريسةً لتوحش ذلك القوم المكروه ولكن لا نرحل من هنا الّا بعد ان نكون بذلنا جدنا وجهدنا لتنجيهِ من تهلكتهِ ولا ريب انهُ لسماعهِ طلقة البارودة يكون قد خطر لهُ في بالٍ ان يد غريبة قد اتت لمعونتهِ ووساطة عجيبة من العناية الالهية ادركتهُ فلا نخيبنَّ اذًا املهُ يا خليليَّ. كيف رايكما

قال ديك: ان ذا الراي راينا يا فرغوسن وها نحن بين يديك فمرنا بما تشاءُ

قال فرغوسن: علينا ان نهيئَ منذ الان شغلنا وغدا عند بزوغ الفجر نجدُّ في انتشالهِ من ايدي قاتليهِ

فسأَل ديك رفيقهُ قائلًا: ولكن كيف نبدد شمل البرابرة السودان

قال العلامة: تحقق لديَّ الان انهم لا يعرفون الاسلحة النارية لانهم خافوا منها خوفًا عظيمًا وذهبوا راكضين مرتعدي الفرائص فيلزم اذًا ان نغتنم فرصة اضطرابهم بهذه الواسطة ولكن لا نبدا في امرٍ الّا عند الصباح حتى نرى هل يوافقنا المكان

قال يوسف: لابد من ان يكون هذا المسكين قريبًا منا لانهُ. . . .

فما فاه باللفظة الاخيرة الّا اعاد الصارخ صوتهُ قائلًا : اليّ اليّ

فقال يوسف وهو مختلج الفؤاد : تعساً لهؤلاء البرابرة وبحٍ لفعالهم فانهم لا يزالون يعذبونهُ وعساهم ان يقتلوهُ هذه الليلة

فمسك ديك يد العلامة وقال لهُ : أَ سمعت ما قالهُ يوسف عساهم ان يقتلوهُ هذه الليلة

قال فرغوسن : ان ظنكما بعيد عن الحقيقة لان هؤلاء الاقوام المتوحشين لا يقتلون اسراهم الّا في النهار ويقتضي انفاذ فعالهم الرديئة سطوع اشعة الشمس المضيئة

فقال ديك : وهل يا ترى لا يوافق ان انتهز فرصة الظلام وانزل منسرقاً اليهِ وانتشلهُ من غائلتهِ ثم اتي بهِ الى المركبة

فقال يوسف : سيدي وانا اذهب برفقتك

فقال فرغوسن : مكانكما يا خليليَّ رويداً رويداً فان قصدكما هذا هو برهان واضح عن خلوص طويتكما وشجاعتكما لكنكما ربما تضران بنا جميعاً وعوضاً عن ان توليا ذلك المبتئس حظاً سعيداً فانكما تجعلان نصيبهُ التعس والويل

قال ديك : وما سبب ذلك فان هؤلاء البرابرة ذهبوا متخوشين مرتعبين ولا عادوا يرجعون الى هذا المكان

قال العلامة : اتوسل اليك طالباً ان تسمع لمقالي ولا تنقاد لشعائر حنيتك التي تحثك على بذل اقصى جهدك في خلاص المتعذب

قال ديك : أوّاهُ كيف يكون حال هذا المسكين المضطرب الفؤاد الذي لا يجيب احدٌ سؤالهُ ولا يأتيهِ معين ولا مجير وربما ظنَّ ان قد خدعتهُ حواسهُ وليس ما سمعهُ من صوت الطاقة الّا هباء منثور واضغاث احلام

قال العلامة: فها انني اطمئن نالهُ الان

ثم استوى قائمًا وسط المركبة ورفع صوتهُ صارخًا باللغة الافرنسية وقال: طأمن من روعك يا ايها الاسير المكتئب وثق بثلاثة اصحاب يحرسونك

فعرَّت البرابرة باصواتهم للحادثة وضجوا صارخين وهكذا منعوا الرفاق الثلاثة من ان يسمعوا جواب الاسير

فقال ديك: واسفاهُ عليهِ فانهم يذبحونهُ او هم مستعدون لذبحهِ وستذهب وساطتنا هدرًا ولا تكون نفعت الّا لتعجيل ساعة قتله وشدة عذابهِ فعلينا اذًا ان نشتغل الان في امر نجاته

فقال العلامة: وكيف العمل وما الحيلة وما الذي تظنهُ مناسبًا لنعملهُ فيما بين هذا الظلام الدامس

قال يوسف: آه لوكانت تتبدد هذه الظلمات بنور ساطع

قال العلامة: وما الذي تصنعهُ اذا تبدد الظلام واستنار هذا المكان

قال الصياد: وحينئذ تسهل علينا الامور فاني انزل حالًا الى الارض وابدد شمل هؤلاء الانذال بضرب الرصاص وافعل ما اشاء

فقال العلامة: وانت يا يوسف ما الذي تصنعهُ

قال يوسف: سيدي اني اسير في الطريق الايمن واتصرف تصرفًا خاليًا من الخطر وهو اني اعلم الاسير المبتئس ان يهرب الى صوبٍ معلوم

قال فرغوسن: وكيف تعلمهُ ذلك

قال يوسف: اعلمهُ بواسطة هذا السهم الذي مسكتهُ لما كان طائرًا في الجوّ فاني اربط فيهِ ورقة واصلها اليهِ او استعمل واسطةً اخرى وهي اني اخاطبهُ بصوتٍ مرتفع اذ لا يفهم السودان لغتنا

قال العلامة: ان مقاصدكما صعبة النفوذ ولا تصلح لنجاة الاسير الضنوك

لانهُ لم يصعب عليهِ الفرار من ايدي معذبيهِ واما قصدك يا ديك فانهُ ربما ينجح اذ تُلقي اسلحتنا النارية الرعب في قلوب البرابرة وتجعلهم يذهبون شذر مذر ولكن اذا خاب مسعاك وحبط عملك فانك تمسي في خطر مبين ونعود نضطر الى الاهتمام بنجاة اثنين عوضًا عن الواحد فالاوفق اذًا ان نهتم ونجد بدون ان نكون عرضةً للخطر

قال الصياد: عليك ان تهتم في الامر حالًا

قال يوسف: سيدي هل انت قادر على ان تبدد هذه الظلمات

قال العلامة: ان ذا ليس بمستحيل

قال يوسف: اذا تمت هذا الامر دعوتك اول علماء عصرنا

فسكت فرغوسن لحظةً وخاض بحر الفكر متروياً في امر النجاة وكان رفيقاهُ محدقين بهِ بعجب وقلق اذ جاشت انفسهم من موقعهم الخارق العادة وما مضت برهة الّا اخذ فرغوسن في التكلم وقال: انصتا لمقالي يا خليليَّ فاني فكرت فكرًا وهو انهُ لم يزل عندنا نحو ٣٦ رطلًا من الثقل حيث ما حملناهُ من الرمل باقٍ على حالهِ ولم نمسهُ قط فاظن ان هذا الانسان مع شدة ضنكه وترضرضه تحت مطارق العذاب لا يزن اكثر من واحدٍ منا فيبقى اذًا عندنا نحو ١٢ رطلًا يمكنا ان نلقيها لنرتقي بسرعة الى الاعالي

قال ديك: وكيف يكون اجراء الامر

قال العلامة: انك تسلم معي اني اذا تمكنت من وضع الاسير في المركبة والقيت عني ثقلًا يوازي زنتهُ فلا يحدث خلل في موازنة القبة ولكن اذا رغبت حينئذٍ في ان ارتقي بسرعةٍ الى الجوّ لافر هاربًا من هؤلاء المتوحشين فيلزمني ان التجئ الى قوةٍ مضاعفة لقوة القصبة والحال اذا القيت ما بقي من الثقل في الوقت المعلوم فلا شك انني اصعد بسرعة عجيبة

قال ديك : ان الامر بينٌ لا شبهة فيهِ

قال العلامة : نعم القول ولكن هنــا محذور وهو اني عند ما اريد النزول فيما بعد يلزمني ان افقــد كمية من الغاز مقابلة لما اكون القيتهُ من الثقل الزائد والحال ان هذا الغاز ثمين جداً مع ذلك لا يسوغ لنا ان نأسف على فقدهِ عند ما تمس الحاجة لنجاة انسان من الهلاك

قال : في الحق تكلمت يا خليلي ومن الواجب ان نبذل كل ما في وسعنا لنجــاتهِ

قال العلامة : فلنبادر اذاً الى العمل وفي بدء الامر اجعلا اكياس الرمل على طرف المركبة لكي نتمكن من القائها دفعةً واحدة

قال يوسف : وهذا الظلام الكثيف

قال فرغوسن : ان هذا الظلام يستر استعدادنا واهبتنا ولا يتبدد الا عند نهاية شغلنا واما انتما فكونا على حذر وضعا اسلحتكما بالقرب منكما عسى ان تمس الحاجة لاضرام النار وعدنا هنا الطبنجة والبارودتان والرفلفران فجميعها ترمي سبع عشرة رصاصة نطلقها في برهة ربع دقيقة اذا شئنا ذلك . ولكن ربما لا نضطر الى هذه الطريقة القصوى فلناخذ الان بالعمل أ لعلكما على حضر

قال يوسف : ها نحن بين يديك وقد وُضعت الاكياس على طرف المركبة والسلاح بالجانب منهم

قال العلامة : هيا تحرَّصا شديداً فان يوسف مفوَّض بالقاء اكياس الرمل وديك بنشل الاسير ووضعهِ في المركبة ولكن لا يفعلنَّ احدٌ منكما شيئاً قبل ان امرهُ بهِ وانت يا يوسف اذهب الآن وحلَّ المرســاة وارجع حالًا الى المركبــة

فنزل يوسف متدلياً على الحبل وفعل ما امرهُ بهِ سيده وعاد الى مكانهِ

في برهة وجيزة فعامت حينئذٍ المنصورة في الهواء وكادت لا تتحرك

فنظر فرغوسن الى صندوق المزج وتأكد ان عنده كمية كافيـة من الغاز لكي يضرم القصبة عند الحاجة ولا يضطر الى استعمال كرة بازن الكهربائية ثم رفع الانبوبتين المتفرقتين عن بعضهما وهمـا المستعملتان لحلّ الماء من عنصريهِ وبعدهُ نبش من كيس السفر قطعتي فحم مبريتـين وفي آخرهما رأس حادّ فاحكمهما في طرف كل من الانبوبتين

فشخص رفيقاهُ متأملين فيما كان يصنعهُ دون ان يفهما غايتهُ اما هو اي العلامة فبعد ان قضي شغلهُ استوى على قدميهِ في وسط المركبة ومسك في كل من يديهِ قطعة من الفحم وقرب رأسيهـا الى بعضهما

ففي الساعة والحال استنار المكان بضياء عجيب وكانت قطعتا الفحم كشعلة نارية فبدد ذلك النور الكهربائي ظلمات الليل الحالكة المحيقة بهم

فقال يوسف متعجباً: يا هيّ يا سيدي

فقال العلامة: مَهْ صَهْ يا يوسف لا تقل شيئاً

الفصل العشرون

في المرسل العازاري وانتشالهِ من ايدي الاسارة وسيرتهِ واوجاعهِ الاليمة وحسن مداراة العلامة فرعوس لهُ

فحوَّل فرغوسن توجيــه شعاع النور الكهربائي من مكان الى مكان ثمَّ وجههُ الى مكان سمع فيهِ اصوات اضطراب وشغب وجعل رفيقاهُ يتفرسان في ذلك المكان

فشاهدا ان شجرة البوباب المتعلقة بها المرساة مرتفعة بين حقلين حقل سمسم، وحقل قصب سكر ويتخللهما نحو خمسين كوخاً متشتة المراكز ويطوف حول تلك الاكواخ رجال الطائفة الحالة في تلك البقعة

ثم بصر الرفاق الثلاثة بخشبة مرتكزة على الحضيض نظير الساري وذلك عن بعد نحو مائة قدم من قبتهم وعند اسفل الخشبة شاب مضطجع يبلغ عمرهُ نحو ثلاثين سنــة ذو شعر اسود مستطيل وجسدهُ عريٌّ نصفهُ عن الثياب نحيفٌ مهزول العافيــة مخضب بالدماء مثخن بالجراح ورأسهُ مائل الى صدره كما كان المسيح على الصليب

وشاهدوا في قمة رأسهِ شعراً محلوقاً مستديراً اشبه اكليل الكهنة

فصاح يوسف وقال: انما هو مرسل هو كاهن ولا شك

قال ديك: واسفاه واحسرتاه عليهِ

قال العلامة: سننجيهِ الان بحولهِ تعالى يا صاح كن مرتاح البال يا خليلي

فلما بصرت الطائفة السوداء بالقبة الهوائية الشبيهة بالنجم ذات الذنب ولها ذنب ذو نور ساطع بلغت منهم الدهشــة والانذهال اشد مبلغ وضجوا في صراخ الفزع والهلع فرفع حينئذٍ الكاهن رأســهُ ولمع اذ ذاك نور الامل

على محيـاهُ ثم مدَّ يداهُ نحو مخلصيهِ كأنهُ يتوسلِ اليهم ضارعاً وهو كمن يرى مناماً

قال فرغوسن : حمداً وشكراً لباري البرايا الذي نجاه من الهلاك اما نحن فلا يعسر علينا نشلهُ لان الرجال السود تكبلوا بسلاسل الخوف والرعشة وسهدوا لنا سبيل الخلاص فهل انتما على حضر يا خليليَّ

قال ديك : نعم قل ما تشاه

قال فرغوسن : اطفِ القصبة يا يوسف

فتمم يوسف امر سيده ودفع النسيم الرخيم قبة المسافرين فوق الاسير فيما كانت القبة تأخذ في النزول مع تقلص الغاز لما فرغوسن فكان يميل بنوره نحو اولئك الرهط ويحركهُ قليلاً ليضيء لامعاً كوميض البرق فاضطرب السودان اضطراباً عظيماً وبادروا مسرعين الى اكواخهم ومكث الاسير منفرداً وحدهُ في محلّ عذابهِ وقد اصاب فرغوسن قبلاً اذ وثق بما تلقيهِ المنصورة مع نورها الكهربائي من الرعشة في قلوب العبيد

فلما اقتربت القبة من الارض رجع بعض العبيد الاكثر جسارة وجراءة الى اسيرهم اذ دروا انهُ عن قريب سينجو من ايديهم وكانوا يصرخون صراخاً هائلاً . فمسك ديك سلاحهُ ليرميهم بالرصاص فمنعهم فرغوسن عن ذلك

وكان الكاهن جاثياً على ركبتيهِ اذ ليس لهُ قوّة ان يستوي قائماً وهو ليس بمعلق على الخشبة ولا مربوطاً بها اذ لا حاجة الى رباط لشدة ضعفه وهزله . فلما وصلت المنصورة الى الارض وضع ديك سلاحهُ في مكانهِ ومسك الكاهن من تحت ابطيهِ رافعاً اياهُ الى المركبة والقى يوسف وقتئذٍ اكياس الرمل التي اشرنا اليها

فكان فرغوسن يؤمل الارتقاء سريعًا وبخفة عجيبة ولكن القبة خيبت منهُ الامال اذ مكثت في الجوّ غير متحركة بعد ان ارتفعت نحو اربعة او خمسة اقدام

فلاحت على وجههِ لوائح الفزع وصاح بصوت يخالجهُ الرعب وقال : ما الذي يمسكنا

وللساعة هرول بعض العبيد وهم يصوتون بصراخ الوحوش الضاريات

فمال يوسف برأسهِ الى خارج المركبة وقال : سيدي ان احد هؤلاء السود تعلق بمركبتنا

فقال فرغوسن : اياك يا ديك وصندوق الماء

ففهم ديك مقصد العلامة وفي ساعتهِ اخذ صندوقًا من صناديق الماء الذي يبلغ وزنهُ نحو عشرين رطلًا ونيف ورماه حالًا الى الارض

فلما خفت القبة فجأة قفزت قفزة هائلة الى الجوّ وبلغ علوها نحو ثلثمائة قدم فشمل القوم السود الخزي والخجل اذ فلت الاسير من بين ايديهم وانتشل ملتحفًا بشعاع نور ساطع

ثم قفزت القبة قفزة اخرى فجائية وعلت عن الارض نحو الف قدم

فقال ديك وقد اوشك ان يفقد موازنة جسمهِ : وما هذا

قال فرغوسن : لا تخف يا ديك فقد رخى النذل الاسود قبتنا

فمال يوسف للحال برأسهِ الى اسفل وشاهد العبد الاسود ناشرًا ذراعيهِ وهو يدور في الهواء كدولابٍ ثم سقط على الارض فتهشم

فابعد وقتئذٍ العلامة السلكين الكهربائيين وعاد الظلام الى احتباكهِ وكانت الساعة اذ ذاك الواحدة بعد انتصاف الليل

وفي تلك الدقيقة استفاق الفرنسي من غشيانهِ وفتح عينيهِ فقال لهُ

العلامة: ابشرك فانك نجوت من الهلاك

فاجاب المرسل باللغة الانكليزية وقال وهو يتبسم تبسم الاكتئاب: نعم اني قد نجوت من ميتة شنيعة فاني اشكر معروفكم يا اخوتي على صنيعكم وجميلكم ولكن ارى ان ساعتي قد اقتربت وايامي فنت فعن قريب ارحل من هذه الدنيا الى الآخرة

ثم عاد الى سباتهِ اذ كان جسمهُ مضنوكًا الى الغاية

فقال ديك: واسفاه عليهِ فانهُ في حالة النزاع

قال العلامة: كلاَّ يا ديك ثم كلاَّ لكنهُ خائر القوى لشدة العياء والعذاب فلنجعلهُ تحت الخيمة ليرقد هناك

فمدوا ذلك الجسم النحيف المهزول تحت الخيمــة بلطافةٍ وغطوهُ بلحفهم وكان اذ ذاك مغموراً باثار العذاب والجراح المخضبة بالدماء وقد اثر فيها الحديد والنار تأثيرًا بليغًا. فغسل العلامة جراحهُ ثم غطــاها بنسال صنعهُ من خرقةٍ كتان وكان حاذقًا في هذه الصنعة ويداوي المريض كطبيب ماهر ثم اخذ قليلًا من الدواء المقوّي من لجزانيتهِ وسكب نقطاً منهُ على شفتي الكاهن

فمسك المريض حينئذٍ بيد طبيبهِ دلالة على الممنونية والحظوى وبالكاد تلفظ بكلام الشكران اذ قال لهُ: اشكر معروفك ... ايها الفاضل...

ثم رأى فرغوسن ورفيقاه ان يترك الكاهن لينام ويأخذ راحةً تامة لجسده فجرَّ حواليهِ ستار الخيمة ورجع الى مركزه لادارة القبة الهوائية

وقد خفت موازنة القبــة مع وجود الضيف الجديد ثقل ثلاثين رطلًا فوالحالة هذه لم يكن فعل القصبة لازمًا ليستمرّ المسافرون في علوّ مناسب وعند بزوغ الفجر هبت ريح لطيفة فدفعتهم نحو غربي شمال الغرب

فذهب فرغوسن برهةً لينظر الى الكاهن فرآهُ مغميًا عليهِ

فقال ديك : حفظ لنا المولى هذا الضيف لجليل الذي بعثهُ الينــا . قل يا فرغوسن هل لنا امل بشفائهِ

قال فرغوسن : الامل بهِ تعالى واظن انهُ يبرأ بالمداراة وطيبة هذا الهواء الرائق

فقال يوسف وهو مضطرب الفؤاد : أواه كم كابد هذا المبتئس من مرّ العذاب ولكن أتعلمان يا خليليّ انهُ اكثر شجاعةً منا اذ تجرأ على الاقدام الى هذه البلاد وحدهُ دون رفيق

قال الصياد : لا شك في ذلك

فما اراد العلامة في ذلك النهار ان يقطع رقاد المريض بل تركهُ نائمًا في مفاور غشيانهِ العميق لكنهُ كان يتأوّه احيــانًا ويتذمر من اوجاعهِ وهذا ما اقلق بال فرغوسن بشأنهِ

وعند المســاء مكثت القبة ثابتة في الجوّ وسط الظلام واستمرّت مدى الليل كلهُ واراد فرغوسن ان يحرسهم جميعًا واعتاض عن الرقاد بالسهاد

وفي الغد عند الصباح كانت القبة قد اتجهت قليلًا نحو الغرب واستبان النهار رائق الجوّ خاليًا من كل غاشيةٍ ونادى المريض اصحابهُ بصوت حسن فسرّ لذلك الرفاق الثلاثة ورفعوا عنهُ ستار الخيمة فاستنشق ذلك النسيم الرخيم نسيم الصبا ببهجة قلب وفرح لا مزيد عليهِ

فسألهُ فرغوسن قائلًا : كيف حالك اليوم

قال الكاهن : ربما احسن من البارحة ولكن انتم من انتم يا اصحابي لاذكركم في صلاتي الاخيرة فاني ما شاهدتكم الى الان الّا كني حلم وبالكاد اعرف ما جرى لي ولكم عند ما سعيتم في تخليصي من التهلكة

فقال العلامة : نحن مســافرون انكليزيون قد قدمنا على ان نجوز بلاد

افريقية بالقبة الهوائية وفي مرورنا تشرفنا بانقاذك من ايدي معذبيك

قال المرسل : ان للعلم ابطالًا

قال الصياد : وللدين شهداء

قال العلامة : وهل انت مرسل

قال : اني كاهن من رسالة الآباء العازارية وقد هداكم المولى لتأتوا اليَّ وتنشلوني من العذاب فليتمجد اسمهُ تعالى اما حياتي فقد قدمتها ضحية ولكن ارجوكم ان تخبروني عن احوال اوربا وخصوصاً عن احوال البلاد الافرنسية اذ انتم قادمون من اوربا وانا لم اسمع قط خبرًا عن تلك البلاد منذ خمس سنوات

قال ديك وقد خطت الدهشة رسومها على محياه : انت اذًا مقيمٌ وحدك بين هؤلاء البرابرة منذ نحوه سنوات يا للعجب

قال المرسل . انها انفس ثمينة مات السيد مخلصنا ليفديها وما هم الّا اخوتنا لكنهم جهلاء متوحشون وليس ما يعلمهم ويعدنهم سوى الديانة وحدها

اما فرغوسن فاخذ يحدث المرسل عن احوال البلاد الافرنسية بشرح مطول

فاصاخ المرسل باذنيهِ سمعًا لمقال فرغوسن وكانت عيونهُ تسكب العبرات من الاماق ثم هيأ لهُ العلامة شيئًا من شراب الشاي وسقاه اياه فشربهُ بسرور وابتهاج وحينئذ تمكن من ان ينهض قليلا من فراشهِ واستوى عليهِ وتبسم ثغره بلطافةٍ اذ شاهد نفسهُ محمولًا على اجنحة الرياح في جوّ رائق كثير الصفاء

ثم قال لاصحابهِ : انكم في الحقيقة ، سافرون ذوو شجاعة وبسالة وستنجحون في مسعاكم وتشاهدون الاقارب والخلان والاوطان

وللحال أمسك عن التلفظ بكلمة اخرى اذ خارت قولهُ واضطرَّ الى ان ينبسط على الفراش وقد انحطت قواه انحطاطاً شديداً حتى انهُ لما ارتمى بين يدي فرغوسن مدة بعض ساعات كان كالميت لا يبدي بحركة ولم يتماسك العلامة عن اظهار جاشهِ وكدره وقال في نفسهِ : هل ترى يفارقنا سريعاً هذا المرسل المسكين الذي انتشلناه من ورطة هلاكهِ

ثم ضمد جراحهُ من جديد واستعمل كثيراً من ذلك الماء الباقي عندهُ ليبرد غليل احشائهِ الملتهبة وبذل غاية جهدهِ وذكائهِ في مداراتهِ وملاطفتهِ . فكانت تنتعش روح المريض رويداً رويداً بين يديه واخذت حواسهُ اذا لم نقل حياته في الرجوع اليهِ

فاخبر المرسل المسافرين سيرة حياتهِ بوجيز العبارة وقد تلقن العلامة كلام الكاهن من فيهِ بصعوبة اذ خالجتهُ اللغلغة والهتهتة لشدة ضنكه وعيائهِ وقد كان طلب اليهِ فرغوسن ان يتكلم باللغة الافرنسية لكونها اسهل عليهِ اما هو فيفهم بسهولة ما يقال فيها

اما المرسل فكان قد وُلد في قرية ارادون من مقاطعة مُربيهان في شمالي فرنسا وقد عطف منذ نعومة اظفاره الى اعتناق العيشة الكهنوتية فدخل رسالة الاباء العازارية المؤسسة من القديس المجيد منصور دي بول قاصداً بذلك خوض المشاق في الاسفار مع كفرهِ بذاتهِ وزهدهِ في الدنيا واباطيلها ولما بلغ من العمر زُهاء ٢٤ سنة هجر وطنهُ قادماً الى سواحل افريقية ثم اوغل في البلاد حتى وصل الى القبائل الحالة في مصبات النيل الأعلى بعد ان قاسى ما قاساهُ من المشقات والاتعاب والجوع والعطش وهو مع ذلك صابرٌ على حالهِ مسرور القلب والخاطر متضرّع الى ربهِ تعالى مجدّ في ارشاد تلك الاقوام وهدايتها الى السبيل المستقيم غير انه لم ينجح ورُذِلت ديانتهُ

وذهبت غيرته باطلًا وعومل سوء المعاملة جزاء على احساناته وخيريته فحبس عند قوم بربري من قبائل نيامبرَّة وكابد في سجنهِ مرَّ الشتائم والاهانات والعذاب . لكنهُ ما برَحَ يعلّم ويعظ ويبتهل اليهِ سبحانهِ وتعالى واذا في ذات الايام تبارزت طائفة مع تلك الطائفة التي كان محبوساً عندها فشتّتت شملها ومزقتها خرائق واذهبتها طرائق وانزلت فيها البوائق كما هي من عادة تلك الاقوام الوحشية ولو لم يُحسب الكاهن الاسير قتيلًا لكان نابهُ التعس والويل . واذ نجا لم يشاء ان يرجع الى ورائهِ بل دخل في اواسط افريقية وهو يقضي مصلحتهُ في الرسالة والهداية وكانت ايامهُ زاهرةً حين أُعدَّ مجنونًا وذلك لمواظبته على تعليم الدين المسيحي واحتمال ما يلمُّ فيهِ من المشقات والاهانات . ثم طاف حول تلك الاقاليم البربرية مدة سنتين مستطيلتين متسلحًا بترس تلك القوة الالهية الفائقة الطبيعة التي كانت تدفعهُ اليها . ومنذ سنة كان قد اقام عند قبيلة من قبائل نيام نيام المدعوة برافري وهي من البالغات في التوحش وكان من برهة بعض الايام قد مات كبيرهم فتظلموا الكاهن وقالوا انهُ هو السبب في موتهِ الغير المنتظر وعزموا على ذبحهِ وكانوا يعذبونهُ منذ نحو اربعين ساعة وقد قرَّ رائهم على ان يقتلوهُ في الغد عند الظهر لحسب رأي العلامة . ولما سمع طلقة الاسلحة النارية صاح بصوتهِ وقال : اليَّ اليَّ وقد خيل لهُ انهُ تائه في مفازة الحلم واذا بصوت العلامة قد اتى وطأن بالهُ وروعهُ

وعند ما انتهى من قصتهِ قال : لا اتأسف على ذهاب روحي الى خالقها ومخلصها

فقال لهُ فرغوسن : لا تيأس بعدُ من الحياة فاننا بالقرب منك ونجيك بعونهِ تعالى من الموت كما نجيناك من آفة العذاب

فقال الكاهن وهو صابر على مصابهِ : حسبي ما نلت من كرم المولى

فليتمجد اسمهُ تعالى لاني حظوت قبل موتي بمشاهدة اصحابٍ افاضل وسمعت لغة وطني

ثم عادت قواه الى ضعفهـا وقضى النهار بين الرجاء والخوف وكان ديك مرتاع الفؤاد ويوسف يمسح من عينيهِ الدموع على انفراد

وكان مسير المنصورة غير سريع وكأنك بالريح قد ارادت مداراة حملهـا النفيس وملاطفتهُ

ولما امست قد لمح يوسف في الافق الغربي ضياء عظيماً فلو وُجدوا في عروض ارفع لحسبوهُ فجراً شمالياً اذ تراءَت السماء شاعلة ناراً فاخذ العلامـة في الفحص عنهُ بتدقيق ثم قال انما هذا هو بُركان يقذف النيران

فقال الصياد: ولكن الا ترى ان الريح تدفعنا الى ما فوقه

قال العلامة: هب انها دفعتنا اليهِ فاننا نجوزهُ في علوّ نأمن بهِ من غائلة نيرانهِ

وغب مرور ثلاث ساعات بلغت المنصورة جبـلاً بدرجة ١٥° ٢٤ طولاً و٤٢° ٤ عرضاً وامامهُ فوهة البركان النارية تقذف سيول موادّ مذوّبة مختلفـة الاجناس وتدفع منها قطع صخور الى علوّ شاهق . ومن المجاري النارية ما كان يشبه الشلالات المزبدة بتساقطها من الفوهة الى اسفل . فرقب المسافرون ذاك المشهد البهي لكنهُ كان ذا خطر عظيم لان الريح ما زالت تهبُّ مهبها وتدفع المنصورة الى ذلك الجوّ المضطرم لهباً

ولما لم يمكنهم تجنب هذا العائق بل لزمهم ان يجوزوهُ فاضرم العلامة حرارة القصبة الى ان بلغت المنصورة علوّ ستة الاف قدم وكانت بينهم وبين البركان مسافة نحو خمسمائة ذراع

وقد استطـاع الكاهن المريض من فراشهِ ان يشرف على ذلك الجبل

الناري ويتأمل بمواده المزبدة المدفوعة منهُ بشدة كسهام ملتهبة

ثم قال: انهُ مشهد بهيّ فسبحان من كوّن الكون واعجب في خلائقه الرفيعة والهائلة معاً

واما المواد النارية المندفقة من ذلك البركان فكانت تنزل متساقطة على سفح الجبل وتبسط على الارض فراشاً من لهيب النار المتقدة والمتأججة. وفي الليل كنت ترى اسفل القبة مضيئاً من سطوع النيران المتصاعدة ومعها كانت تتصاعد الى القبة حرارة شديدة. فما تماسك فرغوسن ان بادر بالترحال هرباً من وقوع الويل والاخطار

فقبل انتصاف الليل بساعتين من الزمان لم يعد يبين الجبل الناري الّا كنقطة حمراء في الافق وما زالت المنصورة سائرة بالامن والسلام في طبقة جوية اقل ارتفاعاً

الفصل الحادي والعشرون

في موت الكاهن ودفنهِ والنقر الذهبيـة واضطراب يوسف في جمع الاموال وما حصل لهُ من النكاية

وكانت ليلة بهية تطرب الخـاطر فاضطجع الكاهن واهي القوى ونام غائباً عن حواسهِ

فقال يوسف : أواه على هذا الشـاب الذي لم يبلغ بعدُ من العمر سوى ثلاثين سنة فان رقادهُ ربما هو الرقاد الاخير

قال العلامة : سينطفئ نور حياتهِ بين اذرعنا وقد ضاق تنفسهُ اكثر مما كان قبلاً وما لي حيلة لافرجهُ

فقال يوسف بغضب وحنق : قبحهم الله اولئك الصعاليك المجرمين الذين انزلوا فيهِ للتنكيل وترى كيف قد وجد هذا الكاهن المبتئس باعثاً ليشفق عليهم ويعذرهم ويسامحهم على زلتهم واثامهم

قال العلامة : ها قد أوتي من السماء بليلةٍ بهية عساها ليلتهُ الاخيرة ولكن لا يعود يذوق عذاباً شديداً ولا يكون موته الّا رقاداً رائقاً

ثم تلجلج المنازع ببعض كلمات فدنا منهُ العلامة ورأى ان نفسهُ ضاق جداً والتمس الهواء فسحب لهُ ستـار الخيمة واستنشق حينئذٍ نسيم تلك الليلة الشفافة حيث النجوم والكواكب ترسل اليهِ نورها المرتجف والقمر يحتفهُ ببياض شعاعهِ

فقال بصوت ضعيف : اني متوجه راحل عنكم الان يا اصحابي جازاكم الله على جميلكم اسالهُ تعالى ان يوفي عني احسانكم ويبلغكم مناكم

قال لهُ ديك : لا تقطع الرجاء بعـدُ فان ما هذا الّا الاضعف وقتي زائل وكيف يأتي الموت في مثل هذه الليلة المبهجة

قال المرسل: ان الموت نصب عيني ولا منه مناص فدعوني اتأمله فانه بداية الامور الابدية ونهاية الاهتمامات العالمية ارجوكم يا اخوتي ان تجعلوني جاثياً على ركبتي

فانهضه ديك قليلاً وقد استولت الخنية على قلبه اذ رأى اعضاءه الخائرة الفاقدة القوى قد ترضرضت

ثم صاح قائلاً: الهي الهي كن لي راحماً وشفوقاً

وقد اضاء وجهه لامعاً كانه لابس انوار الحياة الجديدة وصاعد الى الاعالي بارتفاع عجيب عن الدنيا التي لم يذق فيها فرحاً ولا ملذة وذلك في تلك الليلة التي كانت تلقي عليه رونقها اللطيف

ثم منح البركة لرفقائه الذين لم يوانسهم سوى يوم واحد وكانت تلك البركة حركته الاخيرة وارتمى بعد ذلك بين اذرع الصياد المغرورقة عيناه بالدموع السخينة

فاشرف عليه العلامة وقال: هذه دقيقته الاخيرة يقضي فيها نحبه وللحال ركع الرفاق الثلاثة سجداً ليصلي كلٌّ على حدةٍ بسكوت تام

وبعد برهة قال فرغوسن: غداً عند الصباح ندفنه في هذه الاراضي الافريقية التي سقاها بعرقه ودمه

وفي تلك الليلة اقام كلٌّ من الرفاق الثلاثة بحراسة الميت في الاوقات المعينة لهم ولم يتفوه احدٌ منه بكلمة بل اعتاضوا عن التكلم بذرف الدموع وصدعة الفؤاد

ولما اصبحت كان مهب الريح من الجنوب والمنصورة سائرة سيراً بطيئاً فوق صفصفٍ كائن على جبلٍ وصادفوا في طريقهم افواه براكين مطفئة وخنادق مزروعة والارض كلها خالية من نقطة ماء واحدة وقد اتضح لدى

المسافرين محل تلك الاراضي وجدبها مما شاهدوا من الجلاميد المتفاقمة بعضها فوق بعض والاراضي المحورة

ولما عزم العلامة على دفن الميت عند الظهر اراد النزول الى خنـدق بين صخور ذات كنهٍ اصلي ليكون لهُ ذلك الخندق بمنزلة ملاذٍ يأوي اليهِ قبتـهُ لئلا تصدمها الرياح عند نزولها الى الارض حيث ان تلك الناحية كانت خالية من اشجار يلقي عليها المرساة ولكن لم يعد يمكنهم النزول الّا بفقد كميـة وافرة من الغاز لسبب القائهم اكياس الرمل عند انتشال الكاهن الى القبة كما كان انبأ بهِ العلامة رفيقهُ ديك

ففتح حينئذٍ فرغوسن لولب القبة الخارجة واذا بالإدروجن قد اخذ في التنقص ونزلت المنصورة في الخندق نزولًا بطيئًا

وعند ما مسَّ القـارب ارض الخندق اغلق العلاَّمة اللولب . اما يوسف فقفز الى الخارج حالًا وما زال ماسكًا بيده الواحدة طرف المركبة وفي اليد الاخرى يلقط من الارض حجارة ويضعها في المركبة حتى وازت ثقلهُ ثم جعل يجمع بيديه الاثنتين ويكوم حجارة اخرى الى ان بلغ وزن ما وضعهُ نحو ثمانين رطلًا ولساعتهِ استطاع العلاَّمة ورفيقه ديك ان ينزلا الى الارض ومكثت المنصورة في موازنة تامة وكانت قوَّتها الصاعدة غير قادرة على رفعها عن الارض في تلك الحالة

الّا انهُ لم تلجئهم الضرورة الى وضع حجارة كثيرة لان ما جمعهُ يوسف من القطع الصخرية كان ثقيلًا جدًا وحمل فرغوسن على ان ينتبه اليهِ ثم تطلع في الارض فكانت مفروشة بالقطع الصخرية الكثيرة والجلاميد البرفيرية فقال في نفسهِ: هذا شيء جديد كشفناهُ

اما ديك و يوسف فابتعـدا قليلًا ليجدا محلًا يصلح لدفن الميت وفي ذلك

الخندق احسّ المسافرون بحرارة زائدة لان شمس الظهر كانت ترميه باشعتها الملتهبة على الخط المستقيم

ولما وجدا المحل المناسب رفعا اولاً نقر الصخور المفروشة وعزقا الارض وحفرا فيها ثقبًا عميقًا لا تستطيع الوحوش الكاسرات ان تنبشهُ وتنال جثة الميت لتغتذي بها

ثم وضعا فيه جثة الشهيد باحترام ووقار

وبعد ذلك طمّا القبر بالتراب ووضعا فوقهُ حجارة صخرية على هيئة ضريح .

اما العلامة فكان خائضًا بحر الفكر ولم يصغِ سمعًا لصوت رفيقيهِ لكي يذهب معهما ويطلب ملجا يلطي فيهِ من حرارة الشمس الشديدة

فقال لهُ ديك : وبمَ تفتكر يا عزيزي ساموئيل

قال : انأمل يا ديك بمضادة غريبة في الطبيعة وصدفة عجيبة في القدر أتعلم يا ديك في اي ارض دفن هذا المسكين البائس الذي كفر بالعالم وباطيلهِ وبذاتهِ ايضًا

قال الصياد : ما قولك يا صاح

قال العلامة : ان هذا الكاهن الذي نذر الفقر يرقد الان في معدن ذهب

فصاح ديك ويوسف قائلين بعجب : ويلاهُ كيف يرقد في معدن ذهب

قال العلامة : نعم في معدن ذهب لان الحجارة التي ندوسها كانها بدون قيمة ولا ثمن انما هي معدن ذهب كلي النقاوة

قال يوسف تكرارًا : ان ذا لمن المستحيل يا سيدي

قال العلامة : اذا فحصت قليلًا فلا تلبث ان ترى بين الحجارة الخزفية والصخرية كثيرًا من النقر الذهبية الخالصة

فبادر يوسف للحال كانسان فاقد العقل وجعل يجمع تلك القطع المتشتتة وكان ديك راغبًا في ان يحذو حذوهُ واذا بالعلامة قال ليوسف: كن رائق البال يا صاح ولا تدع الطمع ....

قال يوسف : تكلم ما تشاء يا سيدي

قال: ما هذا وكيف فيلسوفٌ نظيرك ....

قال يوسف: لا توجد فلسفة تصدني عن جمع هذه الاموال

قال فرغوسن : مهلًا يا يوسف تأمل ماذا تنفعنا هذه الاموال اذ لسنا قادرين ان نحملها معنا

قال يوسف: ولمَ لا نقدر ان نحملها

قال: لانها تثقل قبتنا وقد كنت لرغب في ان لا اطلعك على هذا الامر خشيةً من ان يجلب عليك الاسف والندم

قال يوسف: وكيف نرحل تاركين هذه الكنوز المذخورة لنا . نعم هي لنا أيليق ان لا نكترث بها

قال: احرص على ذاتك يا صديقي لئلاَّ تصاب بحمى المال ألم تتعلم من الميت الذي دفناهُ الان ان تحتقر اشياء العالم الباطلة

قال يوسف : بالحق قلت ولكن على جميع الاحوال هذا ذهب : وانت يا سيدى ديك ألا تساعدني لاجمع قليلًا من الكرات والربوات الذهبية

فقال الصياد مبتسمًا : وما الذي نفعل بها هل اتينا نطلب الغنى والثروة فما لنا ولها

قال العلاَّمة: ان الكرات والربوات ثقيلة ولا تودع في الجيوب بسهولة

فقال حينئذٍ يوسف : أَ فلا نستطيع ان نحمل من هذا المعدن بدلًا من ثقل الرمل

قال العلامة : لا بأْس فاني اسمح لك بذلك ولكن على شرط انك لا تعبس عند ما تلقي ربواتٍ من ذهبك خارجًا عن المركبة

قال يوسف : ويلاه كيف نلقي ربوات من الذهب ولكن هل كل هذا ذهب خالص

قال نعم يا ايها العزيز فان هذا المكان حوض كوَّمت فيهِ الطبيعة كنوزها مذ اجيال وهنا ما يُغني بلادًا واصقاعًا بتمامها . فان الكنوز التي أُودعت بطن هذه المفازة القفرة تحاكي كنوز بلاد أُستراليا وكاليفرنيا

قال يوسف : اهًا لجميع هذه الكنوز ستذهب هدرًا لا ينتفع بها مرءٌ

قال : انه من الممكن ان لا ينتفع بها انسان ولكن على كل حالٍ فاني اسلي عنك الهمّ والكدر المستحوذين على قلبك

قال يوسف وقد لاحت على وجههِ شعائر الندم : لعمري ان ذا امرٌ عسيرٌ

قال العلامة : مرادي ان ارسم لك اعلامًا راهنة تدل الى مركز هذا المكان فاذا رجعت الى الاقطار الانكليزية اعلمت بهِ رفاقك اذا خال لك ان الاموال الغزيرة توليهم السعادة والحظوة .

قال يوسف : دعني من هذا الحديث يا مولاي فاني ارى الحقّ في كلامك ومن الواجب عليَّ الصبر والتحمل واما الان فاسمح لي ان املأَ المركبة من هذا المعدن الثمين ومهما بقيَ عند نهاية السفر يكون ربحًا لنا

ثم اخذ ينقل الحجارة من الارض الى المركبة ببهجة الفؤاد وما لبث ان جمع نحوًا من الف نقرة من النقر الصخرية المذخور فيها الذهب كي صوان ذي

صلابة عظيمة

وكان ينظر اليهِ العلامة متبسمًا وفي غضون ذلك تطلع على مركز مدفن الكاهن فوجد انهُ في درجة ٢٣°٢٢ طولًا و٥٥°٤ عرضًا شماليًا ثم رمق رمقة اخيرة لقبر ذلك الرجل الفرنسي وعاد الى مركبتهِ

وقد رغب في ان يرسم صليبًا من خشب ولو غير متقن ليضعهُ على القبر وسط تلك القفار لكنهُ لم يجد شجرة واحدة نابتة في جوارهم فقال الى رفيقهِ الصياد ان الله عارفٌ بهذا المكان وكفى

وكان فكر فرغوسن مشغلًا في امر مهم جدًا وهو انهُ لكان اكرم بمال جزيل من تلك الكنوز الثمينة لو أُوتي وقتئذٍ بشيء من الماء تعويضًا لصندوق الماء الذي رماهُ عند تمسك العبد الاسود بالقبة ولكن ما الحيلة وهو مقيم في تلك المفاوز الماحلة والقفار القاحلة . فاشغل هذا الامر بالهُ وهيج بلبالهُ اذ انهُ مضطر بالضرورة القصوى الى اضرام نار القصبة بالماء واذا ما عطشوا فليس عندهم ما يبرد غليلهم ولهذا عزم ان لا يفوت فرصةً تمكنهُ من تجديد زاد الماء

فلما اتى فرغوسن الى المركبة وجد القطع الصخرية الكثيرة التي كان كومها يوسف الطميع فطلع اليها ولم يقل شيئًا ثم جلس الصياد في مكانهِ وتبعهما يوسف وقد ارشق كنوز الخندق بعين الطمع والحرص . فاضرم فرغوسن قصبة القبة فتسخن المحال الانبوب الذي على شكل البرغي واخذ الإدروجن في السريان وامتد الغاز اما القبة فلم تتحرك من مكانها

فنظر يوسف الى سيده بقلق واضطراب

فناداه العلامة باسمهِ

اما هو فكان صامتًا ولم يجب سيده

فقال لهُ العلامة: اما تسمعني يا يوسف

فاومى يوسف بالاشارة دلالة على كونهِ سمع صوت فرغوسن لكنهُ لم يشاء ان يفهم ما يقولهُ لهُ

قال فرغوسن: ارجوك ان تتكرم عليَّ من سخائك وتلقي جانباً من هذا المعدن خارجاً عن المركبة

قال يوسف: ولكن اما اذنت لي يا سيدي . . . .

قال فرغوسن: ما اذنت لك الّا ان تضع شيئاً مقابل الثقل

قال يوسف: ومع ذلك . . .

قال فرغوسن: أتريد اذاً ان نستقر في هذه القفار الى ابد الاباد

فنظر يوسف حينئذ الى الصياد بعين اليأس والقنوط اما هذا فابتسم بسمة من ليس لهُ مقدرة على تنفيذ الارب

قال فرغوسن: والى متى يا يوسف

قال وهو شرٌّ عنيد: ألا تشتغل قصبتك

قال فرغوسن: الا ترى ان القصبة مشتغلة واما القبة فهي لن ترتفع اذا لم تلقِ شيئاً من الاحمال التي ثقلت بها المركبة

ففرك يوسف اذنه ثم اخذ نقرة صخرية وهي الاصغر والاخف ثقلاً وجعل يستعبرها وينقلها من يدٍ الى يدٍ فكان وزنها نحو ثلاثة او اربعة ارطال انكليزية فرماها وهو ينظر اليها بشوق

اما المنصورة فاستقرت غير متحركة من مكانها

فقال يوسف: واعجباً من حالتنا لِمَ لا تزال عليها

قال فرغوسن: لم تزل على ما نحن عليهِ فداوم شغلك يا يوسف

وكان ديك ينظر الى يوسف ويضحك. ثم القى يوسف نحو عشرة ارطال ولم

تتحرّك القبة فعلا الاصفرار وجههُ ولاحت عليهِ لوائح الكدر

قال فرغوسن: الا تعلم يا يوسف ان وزن ثلاثتنا يبلغ نحو سبعين رطلًا ونيف فيجب عليك ان تلقي ثقلًا يضاهي ثقلنا ليمكنا الارتفاع

فصرخ يوسف بقلب جريح: لا حولَ ولا قوةَ الّا بالله وكيف القي سبعين رطلًا

قال فرغوسن: هيا يا بُني هيا والقِ ايضًا شيئًا لنعلو عن الارض

فتنفس يوسف الصعداء واخذ يرمي الحجارة من القبة وفي خلال ذلك كان ينتظر برهة ويقول: ها نحن نرتفع

اما صوت العلامة فكان يجيبهُ قائلًا: لسنا في ارتفاع بل ما زلنا على حالتنا

ثم قال اخيرًا: ها القبة قد تحركت

قال العلامة: ارمِ ثم ارمِ

قال يوسف: اوكد لك يا سيدي ان القبة تطلع الى العالي

قال العلامة: ارمِ ولا تنفك عن الرمي

فاخذ يوسف نقرة اخيرة بيأس وكدر ودحرجها الى الارض فارتفعت المنصورة نحو مائة قدم وجاز المسافرون ذرى ذلك الجبل بمساعدة حرارة القصبة

قال العلامة: اعلم يا يوسف وفقك الله انك لا تزال محافظًا على مال جزيل واذا توفقنا وتمكنا من حفظهِ الى النهاية كفاك لان تكون غنيًا الى آخر يوم من عمرك

فسكت يوسف ولم ينطق بكلمة بل تمدد مضطجعًا على فراشه المعدني

فاستثنى فرغوسن كلامهُ وقال للصياد: أ نظرت يا ديك كيف فعلت قوة

هذا المعدن في نفس ذات شهامة عجيبة وقلب سليم رائق فكم من الشهوات والاهواء بل كم من الآثام لكان يهيجها معدن مثل هذا لو شاع خبر اكتشافهِ . لعمري انَّ ذا مما يحسر الكبد ويفجع الفؤاد

وفي العشية كانت قد تقدمت المنصورة في الجهة الغربية نحو تسعين ميلاً وهي بعيدة حينئذٍ عن زنجبار بخط مستقيم الف واربعمائة ميل

الفصل الثاني والعشرون

في دنوّ المسافرين من الصحراء وليالي خط الاستواء وتقلقل زاد الماء وما صمموا عليهِ من المقاصد والنوايا

فتعلقت المنصورة في شجرة قامت منفردة في ارض قفرة وقد يبست نصفًا وقضى المسافرون ليلتهم بامان وهدوءٍ وذاقوا فيها لذة الوسن اذ انهم قد تشوقوا الى الرقاد لما اثرت في فؤادهم الاهتمامات التي ادركتهم في اليومين السالفين

وفي الغد عند الصباح عادت السماء الى صفائها وبزغت الشمس متلألئة فاورث زناد الحرارة ثم ارتفعت القبة في الهواء وبعد امتحانات عدة وجدوا مهبًّا خفيفًا دفعهم الى شمال الجهة الغربية

فقال العلامة: انَّا لا نتقدم يا رفاق الى ما قدام وعلى ظني اننا قد جزنا نصف الطريق في رحلتنا هذه ببرهة عشرة ايام ولكن اذا دامت الحال على هذا المنوال من السير البطيء لزمت ايام وشهور لنصل الى آخر المجال ومما يزيدنا نكاية على نكاية هو ان الماء عندنا سينفذ عما قليل

قال ديك: الامل ان نجد ماء قبل نفاذ ما بقي منهُ لانهُ من المستحيل الّا نصادف نهرًا او جدولًا او بحيرة في فسيح هذه الصحراء كلهِ

قال العلامة: هذه رغبتي وغاية مشتهاي

قال ديك: وهل لم تعوّق مسيرنا تلك الاحمال الباهظة التي ثقل بها يوسف كاهلنا

قال هذا قصدًا في نكاية يوسف من باب المزح اذ انهُ قدكاد يصاب بنفس مصاب رفيقهِ عند اطلاعهِ على تلك النقر الذهبية ولكن لما كان قد كظم شدة حرصهِ ولم يتظاهر بما انطوى عليهِ حينئذٍ فؤادهُ اتسم بسمة انسان

ذي تبصر في الامور وكان يضحك لهوًا وهزءًا من رغبة يوسف في حشد الاموال

فرماهُ يوسف بلحظةٍ موثرة اما فرغوسن فثابر على السكوت وافكارهُ موجهة باضطراب سري نحو مفاوز الصحراء ومسافتها الشاسعة فانهُ في تلك القفار كثيرًا ما تنقضي اسابيع جمة ولا تجد فيها القوافل بير ماء لتروي منها غليل العطش ولهذا كان مشددًا حرصهُ في مراقبة الاراضي المنخفضة لعلّ الماء فيها مجتمعٌ

فهذه الاهتمامات معما جرى لهم من الحوادث السالفة غيرت منهم القلب والجنان وقلت مسامرتهم واحاديثهم الى السكوت وخوض بحور الافكار والهواجس

اما يوسف الخادم الهادي البال فقد تحوّل من هيئةٍ الى هيئةٍ منذ ما اطلع على تلك الذخيرة الثمينة والاموال الجزيلة فلازم الصمت واخذ يحدّقُ بصرهُ بحرصٍ الى تلك الحجارة المكومة في المركبة ويتأمل بها كثيرًا ويفتكر في نفسهِ قائلًا: اليوم لا قيمة لها اما بعدُ فيبين عظم اثمانها

كان منظر تلك البقاع والفدافد هائلًا ومما يكبل المرء في سلاسل القلق والهلع ويوهيه في وهدة الهجس والبلبال اذ اخذت الصحراء في الامتداد والتوسع وندُر الزرع في الارض ولم يعد يُرى للاكواخ من اثر بل بانت الرمال البيضاء والحجارة المحمرة كجمر النار وبعض الاجمات الشائكة ثم شاهدوا في تلك المفازة العقيمة سلسلة صخور ذات رؤوس حادّة عريّة من كل ترابٍ وهيئتها هيئة الصوان . فانتبه فرغوسن الى ذلك الجدب وفكر فيه كثيرًا

ولم يتيسر لهم ان يروا اثرًا لقوافل تحركت على خرض نجور ؟الك القفار

اذ لم يرَ عظم من عظام النـــاس امر لحيوانات وكان لا بد من بلوغ بحرٍ عظيم من الرمال التي تنقلب بعضها على بعض كامواجٍ طامة

ففكروا في الرجوع الى الوراء غير ان ذا من المحال لقلة الماء الفاضل فاقتضت لحال ان يتقدموا الى قدام وكان يودّ العلامة لو انّ عاصفة تهبّ وتدفعهم عن تلك الاصقاع ولكن اين الغيوم والسحب واين الريح العاصفة فانقضى النهار كلهُ ولم يجوزوا فيهِ اكثر من ثلاثين ميلاً

فواهاً لو نفذ زاد الماء ترى ما الذي لقد اصابهم بالحقيقة لم يبقَ عندهم من الماء سوى ثلاثة عشر لترًا ونصف ولذا وضع فرغوسن تلثهُ على انفرادٍ لكي يرطبوا قلوبهم عند التهابها بنار العطش من جوا تلك لحرارة الشديدة البالغة الى ٩٠ درجة انكليزية وابقى الثلثين الاخرين لاضرام نار القصبة ولكن هذه الكمية لا تحصل سوى ٤٨٠ قدماً مكعباً من الغاز ولحال كانت القصبة تنفق نحو تسعة اقدام مكعبة في برهة ساعة من الزمن فولحالة هذه كان معهم ما يكفيهم مشياً مدة اربعة وخمسين ساعة لا غير وقد حُسب هذا كلهُ بدقةٍ

فقال العلامة لرفيقيهِ : ما بقي لنا غير اربعـة وخمسين ساعة وحيث قد صممت النية على ان لا نمشي في الليل لعلنا نصادف جدولاً ام نبعاً ام مستنقع ماءٍ نفوته فيكون عدد الايام الذي يتيسر لنا فيها المسير ثلاثة ونصف وقد اضطربت الى ان اعلمكما بهذه لحالة المحجعة التي نحن عليها لانهُ لم يبقَ عندنا الّا القليل من الماء فوضعت شيئاً منهُ لنبرد غليل عطشنا فمن الواجب علينا منذ الان ان لا نبذره ولا اسقيكما الّا عند اللزوم

قال الصياد : افعل بنا ما تشاء يا فرغوسن ولكن لم نضطر بعد الى قطع الرجاء أَلم تقل انهُ باقٍ لنا ثلاثة ايام ونصف

قال العلامة : نعم يا عزيزي

قال : يا ترى ما النفع من الاسف والتحسر فما لنا اذًا ولهذا الفكر دعْ هذه المدة تمضي وبعدها نفتكر فيما يلزم عملهُ واما الان فعلينا ان نضاعف سهونا وانتباهنا

وعند العشاء توزع الماء باقتصاد وشحٍّ واضيف اليهِ قليل من العرق لان كثرتهُ لا تفيد تبريدًا بل التهابًا

وفي الليل قرّت القبة على صفصفٍ بان كأنهُ في انخفاض عظيم وبالكاد كان يبلغ علوّ سطحهِ عن مساواة سطح البحر نحو ثلثمائة قدم . فضاء نور الامل في قلب فرغوسن لهذه الحادثة وتذكر ما خمنـــهُ اهل الجغرافية من وجود بحيرة في قلب افريقية ولكن هب ان تلك البحيرة موجودة في الحقيقة فكيف الوصول اليها من كون السماء رائقة ولا فيها تغيير البتة

فعبر الليل الصافي مع ضياء سمائهِ المتلامع باشعة الكواكب والنجوم وردفهُ النهار الوضاح باكثر صفاء ورواق وسطعت فيهِ اشعة الشمس بشدة الاحتراق ولما كانت الساعة الخامسة قال : هيوا على الرحيل ولكن استمرّت المنصورة برهةً جامدة في ذلك الجوّ الرصاصي لا تمشي ولا تلوي

وقد كان في امكان العلامة فرغوسن ان يحايد تلك الحرارة الشديدة بارتفاعهِ الى طبقـــات عالية فلم يعيقهُ عن ذلك سوى قلة الماء لانهُ لو اراد الصعود الى العلاء لاقتضى الامر انفاق كمية وافية من الماء وهذا من المستحيل فاكتفى بحفظ قبتهِ في علوّ مائة قدم عن الارض وهناك كانت تهبّ ريح خفيفة تدفعها نحو الافق الغربي

ثم فطروا قليلًا من اللحم المملح وعند الظهر كانت القبة قد سارت بعض الاميال

فقال العلامة وقتئذٍ : اننا لا نستطيع ان نمشي باكثر سرعةٍ من هذه

فلسنا نحن الآمرون بل مأمورون ونطيع بصبر جميل

قال الصياد : حبذا لو كانت لنا الآلة الدافعة في هذه الواقعة

قال العلامة : لا شكَّ في ذلك يا ديك ولكن على شرط ان هذه الآلة لا تنفق ماء لتفعل حركتها والّا فتكون الحالة واحدة فانهُ الى هذا اليوم لم يُخترع بعدُ شيء قابل الاستعمال . والقبات الطيارة هي الان كما كانت السفن قبل اختراع البخار وقد مكث الناس لاختراع آلاتهِ مدة ستة الاف سنة فلنا والحالة هذه وقت طويل للانتظار

فقال يوسف : تباً لهذه الحرارة القادحة . قال هذا وهو يمسح عرقهُ الجاري من جبينهِ قاطرًا .

قال فرغوسن : لو حوينا الماء لكان لنا فائدة من هذه الحرارة اذ انها تبسط الإدروجن الذي في القبة ولا يتطلب اللولب الذي على هيئة البرغي لهبًا شديدًا . نعم انهُ لو لم تكن الماء على وشك الفروغ لما لزمنا ان نجد في توفيرها . قبح الله العبد الشقي الذي اخسرنا ذاك صندوق الماء الثمين

قال ديك : وهل تندم على ما فعلت يا صموئيل

قال كلاَّ يا ديك حيث قد انقذنا المرسل المبتئس من ميتة شنيعة ولكن لو بقي عندنا صندوق الماء الذي رميناه لكفانا مسيرًا مدة ثلاثة عشر يومًا وفي هذه المدة لامكنّا ان نجوز القفر كلهُ

قال يوسف : وهل لم نقطع نصف الطريق في رحلتنا الافريقية

قال فرغوسن اذا اعتبرنا ذلك بالنظر الى المسافة فنكون قد قطعنا نصف الطريق واما اذا اعتبرناهُ نظرًا الى المدة ومكث الريح في سكون فلا اعلم اين يكون نصف الطريق واظن ان الريح مائلة الى العدم

قال يوسف : دع عنا هذا الحديث ولا تتأسف على حالنا فقد نجونا في

مدة سفرنا من كل آفةٍ ومهما جرى لنا فاني ماسك بحبل الامل ولا تخيب ثقتي بل انا اقول لكما اننا سنجد ماء عند الاقتضاء فليطمأن منكما البال وليذهب عنكما كل هجس وبلبال

اما الارض فكانت آخذت بالانخفاض من ميل الى ميل والعوج الذي للجبال كان ينتهي عند الرمال . فقام هناك الحشيش المتفرق مقام الاشجار الجميلة الكائنة في الجهة الشرقية ومن النباتات ما كان قريباً من الغرق في بحر تلك الرمال وصخور كثيرة متساقطة من جبال بعيدة قد تحطمت في سقوطها وتبعثرت حصى مسنونة في تلك البادية وستذوب وتصير رملاً خشناً وبعده تحولها حرارة الشمس الى حب ناعم للغاية

قال العلامة : هاك يا يوسف افريقية كما كنت تتصورها ولذا قلت لك انهُ يلزمك ان تشدد حبل صبرك واناءتك

قال يوسف : نعم سيدي ان ذا امرٌ طبيعي حرارة ورمال وهل يليق ان نطلب شيئاً آخر في مكانٍ كهذا . ثم قال ضاحكاً اعلم اني ما كنت اثق كثيراً بغابك واحراشك لان في ذلك تناقص وهل ياترى تحملنا العذاب والشقاء لنأتي من بلادنا ونجد هنا نضارة اراضينا وبساتيننا فهذه هي المرة الاولى التي فيها ارى ذاتي مقيماً في افريقية حقيقة ويسرني ان اذوق شيئاً من حلاوة مقرّها

وعند المساء قرر العلامة ان المنصورة لم تخطُ عشرين ميلاً في ذلك النهار الشديدة حرارتهُ ولما توارت الغزالة في طي الغسق خيم تلك المفازة ظلام مدلهم وسخن معاً

وكان الغد نهار الخميس وهو اول يوم من ايام شهر ايار اما الايام فكانت تلي بعضها بعضاً بسياقٍ واحد من شأنهِ ان يلقي المسافرين في وهدة القنوط

واليأس وكل صباح يماثل الصباح الذي مر . وما زالت الشمس عند الظهر ترميهم باشعتها القادحة والليل يزيد الحرارة ثقلاً والهواء قد اضحى تنفساً لا نسمة وخيل انهُ عما قليل سيزول ذلك النفس الطفيف من تلقاء ذاته

اما العلامة فرغوسن فاضمر في قلبهِ تلك شعائر الكدر التي دهمتهُ من جراء تلك الحالة المفجعة وما برح متسمًا بسيما الطمانينة والرواق كانسان محتنك قد تمرّن على اقتحام الاخطار وخوض المنايا . وكان ضابطاً منظرته ويتطلع في مراكز الافاق كلها علهُ يصادف ما يهديهِ الى منبع ماء فما شاهد الّا انقطاع الاكام والاراضي النباتية وانبساط الرمال كبحرٍ طامٍ لا نهاية لهُ

ثم هاجمتهُ افكار المسؤولية التي تحملها على عاتقهِ بسبب استرفاقهِ ديك ويوسف اعزّ اصحابهِ الذين اقادهما بقوة الصحبة او الخدمة . فتلاعبت في ميدان دماغهِ جيوش الافكار واطرق برهةً وان لم يظهر على نفسهِ ادنى ارتباك فسأل نفسهُ هل تصرف حسنًا باقدامهِ على تلك الرحلة الجوية وهل لم يسلك طريقًا محرمة او لم يحاول في سفره مجاوزة حدود الاستحالة وهل لم يترك الباري سبحانهُ وتعالى لاجيال متأخرة معرفة تلك البلاد المجهولة

فصدمتهُ هذه الظنون وتخللت عقلهُ في وقت واحد كما يحدث للمرء في ساعة ييأس فيها من الخلاص . واذ لم يستطع ان يُشتت جيوش الهموم الواثبة عليهِ قد كاد ان يخرج من حدود الرشد والصواب وبعد ان تقرر في عقلهِ ما وجب عليهِ اهمالهُ قبلًا اخذ يهتم بما يجب عليهِ فعلهُ ساعتئذٍ فقال في نفسهِ : هل يا ترى هو امر مستحيل الرجوع الى الوراء ام هل ليس في طبقات الجوّ العالية مجاري رياحٍ قادرة ان تدفعهُ الى بلاد اقل محولًا وجدبًا . فانهُ قد عرف الاصقاع التي مرّ بها لكنهُ جاهل الاماكن التي يتجه اليها ولما ضايقهُ ضميرهُ عزم على ان يشرح لرفيقيهِ واقعة الحال كما هي بمطلق الحرية . ففسر لهما الامر جليًا

وذكرهما بما قد تم من العمل واوضح ما بقي عليهم منهُ واكد انهم بحصر المعنى قادرون على الادبار والرجوع الى الوراء وبعد ان فرغ من شرحهِ التمس منهما ان يعرضا لهُ رأيهما

فقال يوسف: ليس لي رأيٌ سوى رأي سيدي وما هو مزمع ان يكابدهُ من المشقة ساكابدهُ انا ايضًا باكثر جراءةٍ وبسالة منهُ والى حيثما سار اسير انا والى حيثما مضى مضيتُ معهُ

فقال العلامة: وانت يا ديك

قال ديك: اما انا يا خليلي صموئيل فلست بقاطع حبل الامال ولعمري قبل ان اقدم معك على السفر لم اغفل قط عن اخطارهِ ومخاوفهِ ولكني عزمت على ان لا اكترث بهذه الاخطار ولا اعتبرها طالما رأيتك قاحمًا فيها. فانا لك جسمًا ونفسًا واما رأيي في الحالة الحاضرة فهو ان نداوم رحيلنا وننتهي الى الغاية واظن ان اخطار الرجوع الى الوراء تضاهي اخطار التقدم الى ما قدام. فهيا اذًا على المسير وثقْ بصداقتنا نحن الاثنين

فتحرَّك قلب فرغوسن من مثل ذلك الكلام وقال: عافاكما الله يا صاحبيَّ الاحقاء. فهذا الذي كنت أُوملهُ من حبكما وتعلقكما بصداقتي وقد اجداني كلامكما شجاعةً وبسالة فاشكر معروفكما وحبكما

ثم قبض ثلاثتهم بعضهم على يد بعضٍ دلالةً على تجديد مباني المحبة والوداد والامانة

فاستتلى فرغوسن كلامهُ وقال: انصتا لمقالي يا رفيقيَّ. انهُ بموجب تقويمي لسنا بعيدين عن جون غوينه اكثر من ثلاثمائة ميل فلا يمكن ان تكون الصحراء بلا نهاية حيث ان ساحل غوينه كثير السكان ومعروف لحد مسافة بعيدة من البحر المحيط. فاذا لزم الامر ذهبنا الى تلك الجهة ومن المستحيل ان

لا نصادف في طريقنا بئرًا او غوطةً لنجدد زاد الماء . ولكن ما نحن في احتياجٍ اليهِ الان انما هو الريح التي بدونها نستقر ثابتين وجامدين في الفضاء .

فقال الصياد : صبرًا جميلًا يا خليليّ

فعبر ذلك النهار المستطيل وهم ينتظرون حركة في الجوّ فلم يظفروا بعلامةٍ تلقي في قلوبهم شعاعًا من الامل بل توارت الشمس وراء الافق وهي ترمي رمل الصحراء باشعتها النارية

فانفق فرغوسن مائة وخمسة وثلاثين قدمًا مكعبًا من الغــاز لاضرام نار القصبة مع انهم لم يسيروا سوى نحو خمســة عشر ميلًا وبرّدوا لهيب عطشهم بكمية من الماء تبلغ نحوًا من لترين

ثم جاز الليل بسكون عظيم ولم يطب للعلامة رقاد

الفصل الثالث والعشرون

في مناقشة فلسفية وظهور الحمامة في الافق وظهور قمة ثانية ومشاهدة اثار قافلة وبئر ماء في الصحراء

فلما اصبح الصباح واشرق نور الشمس الوضاح ما زالت السماء رائقة نقية لا حراك في الفضاء فارتفعت المنصورة الى علو خمسمائة قدم وبالكاد انتقلت قليلاً الى الجهة الغربية

فقال العلامة : هوذا نحن في قلب المفازة وها هي بحور الرمل الطامة تحت اقدامنا . فيا للعجب كل العجب لِما هذا النظام الغريب في الطبيعة ولِما يا ترى ينبت الزرع هناك بالقرب من حدود الرمال وهنا هذا المحل والجدب مع ان الاراضي هي في خط عرضٍ واحد ومرمية بالاشعة نفسها

قال ديك : ايها الخليل ان علة ذلك ليس من شأنها ان تقلقني وان ما يهمني انما هو الحال الذي نحن عليهِ فلا اهمية لخلافهِ

قال العلامة : دعنا نتفلسف قليلاً على ذلك فان التفلسف لا يجلب علينا اذية

قال ديك : هات نتفلسف ما تشاء فان الوقت طويل وبالكاد نمشي في هذهِ الافلاء . فكأن الريح خاشية الهبوب او راقدة في سرير الراحة

قال يوسف : اما انا فابشركما انهُ لا يطول بنا الحال لاني ارى سحابة في الجهة الشرقية

قال العلامة : نعم وفي الصواب تكلم يوسف

قال ديك : ولكن هل ترى نتملك هذه السحـابة وتأتينا بعطر وريح نافعين

قال العلامة: سنرى ذلك في وقتهِ

قال يوسف: غير ان اليوم هو الجمعة فقلما اثق بايام الجمعة

قال العلامة: ان شاء المولى سيذهب عنك اليوم هذا الوهم الباطل

قال يوسف وهو يمسح العرق الوافر السائل من وجههِ: حبذا ولكن أفّ ما هذه الحرارة الشديدة . نعم ان الحرارة نافعة وخصوصاً في الشتاء ولكن في الصيف على المرء ان يتحرز منها على قدر استطاعتهِ

فسأل الصياد فرغوسن وقال: هلاَّ تخاف ان تضر حرارة الشمس القادحة بقبتنـا

قال كلاَّ يا صديقي لان المـادة الصمغية التي طلي بها القماش الحريري تحتمل حرارة عظيمة جداً فقد وصلت احياناً حرارة القصبة الى مائة وثمانيـة وخمسين درجة انكليزية ولم يتأثر منها غطاء القبة الداخلية الصغيرة

اما يوسف فكان بصرهُ حادّاً ويرقب الاشيـاء باحسن تمييز من المنظرات فقال وهو ينظر الى السماء: انها سحابة في الحقيقة يا خليليَّ

فكانت هذه السحابة متعمقة في السماء كثيفة متجمعة من غيوم صغيرة ولكن لم تتغير قط هيئتها ومن هذا استنتج العلامة ان ليس فيها ريح تحركها

وقد تراءت في الافق عند الساعة الثامنة صباحاً ومع ذلك لم تقم قبالة الشمس الاَّ عند الساعة الحادية عشرة ثم توارت وراء هذا الستار الكثّ وفي تلك الساعة انفصل من هذه السحابة الغيم الاسفل متبعداً عن خط الافق الذي تلالأ على اثر ذلك نوراً وبهاءً

قال العلامة: ان هذه السحابة منفردة فلا نثقنَّ بهـا انظر اليها يا ديك أليست هيئتها كما كانت صباحاً

قال ديك: لعمري لا تزل كما كانت وعليهِ لا ارجو منهـا ريحاً ولا غيثاً عسى انها تدخرها لغيرنا

قال العلامة: هذا ما اخشاهُ حالة كونها في علوٍ شاهق

قال ديك: ايها الصديق صاموئيل هلمَّ بنا نلاقي هذا الغيم الذي لا يريد ان ينشر علينا لواء سخائهِ

قال العلامة: اظنُّ اننا لا نجني من هذا العمل ثمرة البتة بل تزيد اتفاقاً للغاز ومن ثمَّ للماء ولكن نظراً لحالتنا الحاضرة فلا يسوغ ان نهمل شيئاً عسى ان يكون فيه خيرٌ لنا فهلموا بنا نطلع

ثم اورى زناد لهيب القصبة فانتشرت الحرارة وللحال صعدت القبة بقوة الادروجن الممدَّد

فوصل الى السحابة في علو الف وخمسمائة قدم ودخل في ضباب متكاثف وداوم حفظهُ برهةً في تلك الطبقة ولكن لم يجد فيهـا ادنى مهب ريح حتى وكانت خالية من الرطوبة وبالكاد ترطبت الاشياء التي لمستها. اما المنصورة فلما التحفت بذلك البخار جرت مشياً باكثر سرعة من الاول ولكن بنوع زهيد جدًّا وهذه كانت الفائدة الوحيدة من الصعود الى السحابة

وفيما كان العلامة يتأمل بكدر ما جناهُ من النفع الطفيف في ارتقائه الى الاعالي واذا بيوسف قد صاح مبتهجاً وقال: واعجبا واعجبا

فقال لهُ سيدهُ: وما الذي تراه

قال يوسف: مولاي وسيدي ديك ما بالكما لا تنظران الى الامر العجيب الغريب

قال ديك : وما هو قل عاجلًا

قال يوسف : اعلما اننا لسنا وحدنا في هذا الخلاء بل هنا لصوص سارقة قد قلدونا في صنعتنا

قال ديك لفرغوسن : وهل يا ترى اصابه جنون

ثم شخص يوسف صامتاً متـأملًا باندهاش وانذهال فنظر اليه فرغوسن وقال : هل تكون الشمس قد فعلت في دماغه واختلَّ منهُ العقل

فقال ديك ليوسف : أ لا تقول لي اخيرًا

فقال لهُ يوسف : انظر يا ديك

ودلهُ على مركز في المسافة الجوية

فصاح ديك مندهشاً وقال : لعمري هذا مما يوجب الانذهال : تطلع يا صاموئيل تطلع

فقال العلامة بسكون : بصرت يا رفيقيَّ بما تنظران اليهِ

قال ديك : قبة مثل قبتنا ومسافرون مثلنا ايضاً

ففي الحقيقة كانت قبة هوائية تحوم في الهواء بمركبتهـا ومسافريها وذلك بعيداً عن المنصورة بنحو مائتي قدم وهي تتبع الطريق التي هم سالكونها

فقال العلامة : لم يبقَ لنا الآن نقرا عليها السلام بالدلايل والاشـارات فخذ يا ديك رايتنا وانشر الوانها بازائهم

فالظاهر ان المسافرين المقيمين في تلك المركبة فكروا كما فكر هؤلاء في دقيقة واحدة لان الراية ذاتهـا اعادت الاشارات والحركات نفسها التي ابداها الصياد

فقال ديك : وما المعنى بذلك يا فرغوسن

قال يوسف : انما هم سعادين يهزأون بنا

فقال العلامة ضاحكاً : المعنى بهِ انك تفعل هذه الاشارات لنفسك يا ايها الخل الوفي وتأويل ذلك اننا نحن انفسنا في تلك المركبة والخلاصة ليس تلك القبة الا منصورتنا

قال يوسف : سيدي من بعد اداء الاحترام الواجب لحضرتك اقول لك اني لاخذ كلامك بعين الصدق بل اعده هزءا منك

فقال لهُ العلامة : قف على طرف المركبة يايوسف وحرك ذراعيك فتحقق صدق مقالي

ففعل يوسف ما امرهُ به سيده وشاهد حركاته قد أُعيدت تماماً

فقال العلامة : انما هذا لعلمٌ وهو حادث بسيط من حوادث انعكاس النور ومسبب من تخلخل الهواء الغير المتساوي الحاصل في طبقات الجوّ والسلام ختام

قال يوسف : ولا اعجب عندي من ذلك

وكانهُ لم يشاء ان يصدق هذا المقال فراجع حراكته تكراراً بانواع مختلفة

قال ديك : ولا اغرب منهُ فانه يدهش النظر وقد قرت منا الخواطر لمشاهدة منصورتنا وجهاً بازاء وجه . أ لا تقران يا صديقيّ وَفقكما المولى انها ذات هيئة لطيفة وهيبة منيفة

قال يوسف : كيفما فسرت وشرحت فان الحادثة من اعجب العجاب

وما لبثت صورة القبة ان اخذت في الاندثار رويداً رويداً ثم ارتفعت السحابة الى علو باسق وهجرت المنصورة فلم تحاول هذه ان تتبعها ومضت ساعة من الزمان واذا بالسحابة قد توارت عن العيان

واما الريح الطفيفة فانتقصت قليلًا فقليلًا وكادت تدخل حيز العدم وعندها اقترب العلامة الى الارض ايساً

وقد كان منظر القبة سلا عنهم الهم والفكرة في احوالهم ولكن لما توارى عن البصر رجعوا الى ما كانوا عليه من الافكار الحزنة وهم يكابدون حرارة عظيمة جدًّا

وعند الساعة الرابعة بعد الظهر اشار يوسف الى وجود شيء بارز فوق بحر الرمال وما لبث ان عرفهُ جيدًا وهو نخلتان نابتتان على مسافة غير بعيدة

فقال العلامة : اذا وجد نخلٌ فلا بُدَّ من وجود نبع ماء ام بئر بالقرب منها ثم اخذ المنظرة واكد تخمين يوسف

فصاح حينئذٍ قائلًا : ها الماء والحمد لله ها الماء فلا شكَّ انهُ واجد هناك وكيفما سرنا فسنصل اليه في نهاية الامر .

فقال يوسف : والحالة هذه أيحسن لديك ان نشرب شربة لبينما نبلغ الماء لان الريح قاطعة منا النفس

قال العلامة : فلنشرب اذًا يا صاح

فشرب ثلاثتهم ليترًا كاملًا ولم يبقَ لهم بعدُ الَّا ثلاث ليترات ونصف لا غير

ثم قال يوسف : يا ما الذَّ الماء وانفعها لعمري لم اذق قط في حياتي لذةً في الشراب كاللذة الحالية

قال العلامة : هذا ما يجديه الانمساك من المنافع

ولما كانت الساعة السادسة حامت المنصورة فوق النخلتين

فلما تأملوا بهما رأوهما شجرتين نحيفتين يابستين شبه شبحٍ بلا لحم لانهما خاليتان من الاوراق ومائلتان الى الفناء اكثر منهما الى البقاء

اما فرغوسن فخالج صدرهُ الاضطراب عند ما حدّق بصرهُ فيهما

ثم ابصروا تحت اقدامهم حجارة بئر مركوزة بلا ترتيب وقد ضربت

اشعة الشمس القادحة تلك الحجارة وكادت تحوّلها الى رمال ناعمة جدًّا ولم يروا للرطوبة من اثر . فانقبض قلب صموئيل من ذلك المنظر ولقد كان كشف لرفيقيهِ ما يضمره من الخوف لو لم يسمع تأوّههما وهتافهما فانتبه ورأى عن بعد في الجهة الغربية خطًّا طويلًا مرسومًا من عظام مبيضة وشاهد حول النبع كومًا من تلك العظام فعلم من ذلك ان قافلةً وصلت الى ذلك الحد من الصحراء فالذين كانوا ضعفاء فيها سقطوا على الرمل قليلًا فقليلًا واما الاشداء فبعد ان كابدوا اقصى التعب وجرّوا انفسهم الى تلك العين قضوا عندها نحبهم وذاقوا كأس حمام المرة

فنظر المسافرون بعضهم الى بعض وقد علا الاصفرار وجوههم

فقال ديك : لا ننزلنّ الى هنا بل فلنهرب من هذا المشهد المهيل الكبد فان البئر هذه لا تحوي نقطةً من الماء

قال العلامة : كلّا يا ديك يلزمنا ان نقف على الحقيقة لئلا تتشوش ضمائرنا فيما بعد ويدركنا الندم فسيان ان قضينا ليلتنا هنا او في محل اخر . وقد قام نبع ماء من زمن مديد في هذا المحل عسى ان يكون لهُ اثر الى الان

فحطت المنصورة على الارض ووضع يوسف وديك كمية من الرمل موازنةً لوزنهما ونزلا عن المركبة مبادرين الى البئر فدخلاها بدرج امسى رملًا ورأيا ان العين ناشفة من سنين عديدة وحفرا قليلًا في الرمل الناعم فلم ينظرا اثرًا للرطوبة

ثم طلعا من الجب متوجين باكليل من العرق على جبينهما مكسوري القلب والخاطر والرمل اذ ذاك قد غطاهما فولت الشجاعة مدبرة وقام مقامها القنوط واليأس

فلما نظر اليهما العلامة عرف قلة فائدتهما من النزول الى البئر وقد كان

عالماً بذلك من قبل وشعر في ذاتهِ بانه منذ الان وصاعداً تقتضيهِ الحال ان توازي شجاعتهُ ومروَّتهُ شجاعة ومروَّة ثلاثة رجال

وكان يوسف قد اتى بقرية مقرَّنة فرماها وهو غضبان بين العظام المشتتة على الحضيض

وعند العشاء مُدَّ سماط السكوت التام ولم يتفوه احدٌ بالكلام بل اكلوا جميعاً بكره شديد مع انهم لم يقاسوا بعد شدائد العطش ونوائبه ولكنهم قانطين بالنظر الى ما اقبل عليهم من المحن

الفصل الرابع والعشرون

في العطش وتندم العلامة وانطفاء القصبة ومراقبة الصحراء التاسعة وانفراد العلامة وسقطته وما نواه يوسف من القصد الثابت

فلم تبلغ المسافة التي جازوها في النهار كلهُ اكثر من عشرة اميال واتفقوا للسير في تلك المدة مائة واثنين وستين قدماً مكعباً من الغاز

ولما كان السبت صباحاً تأهب المسافرون للرحيل وبعد برهة اخذوا بالمسير

ثم قال : عندنا ما يكفينا مشياً مدة ست ساعات فاذا عبرت هذه المدة ولم نكتشف بئرًا ولا عيناً فالله يعلم ماذا يصيبنا

فقال يوسف: ان الريح طفيفة جدًا يا مولاي

وعند ما نظر لوائح الحزن والكدر قد علت وجه سيده قال : أُومل انها ستهب عما قليل

اما املهم في هب الرياح فكان باطلًا اذ ان السماء رائقة صافية واشتدت الحرارة كثيراً حتى ان الترمومتر الانكليزي تحت ظل الخيمة دلّ على الدرجة المائة والثالثة عشرة

اما يوسف وديك فكانا مضطجعين الواحد بجانب الاخر وهما يحاولان الفرار من الفكرة في تلك الحالة الهائلة سواء بالرقاد ام بالخدَر وقد استبان لديهما الزمان طويلًا مملاً لقلة شغلهما. ولا شيء يجلب الضجر والارتباك نظير البطالة اذ لا يستطيع المرء ان يزيل عنهُ ذكر اكداره ورزاياه بشغل من الاشغال ففي ذلك الوقت كان انشغالها متوقفاً على التفكر والتبحر في تلك الواقعة المجعة الاكباد وليس ما يلهيهما عن تصورها نصب اعينهما

ثم علق العطش يذيقهم مرّ العذاب والشقاء والعرق الباقي لم يكن من

شأْنهِ الّا ان يزيد كبدهم التهاباً وفي الحق والصواب يلعونـه اهل افريقية حليب الثورة · وبالكاد كان باقياً نحو لترين من الماء السخن فكان ثلاثتهم يحدقون بصرهم بتلك النقطات الثمينة دون ان يجسر احدٌ منهم ان يبل بهـا طرف ثغره · فيا لها من حالة هائلة ترتعد منهـا الفرائص وترتاع منها القلوب اذ لم يبقَ معهم من الماء الّا تلك الكمية الجزئية وهم مع ذلك لم يزالوا في قلب الصحراء

فغاص فرغوسن لجة الافكار ودهمتهُ الهواجس والقلق فلم يستطع ان يشحذ لها الاسنة للقتـال فسأل نفسهُ قائلًا : يا ترى هل تصرفتُ حسناً في اموري أما كان يوافق غرضي لو حفظتُ ذلك الماء الذي حليتـهُ هدراً الى غاز الإدروجن لكي البث مستقرًا في العلاء نعم انني سرت بعض السير ولكن ما هي المسافة التي جزتها فانها لا تستحق الذكر والاعتبـار · فلو بقينا في الوراء بمسافة نحو ستين ميلًا فما الذي لكان ضرّبنا حيث ان الماء فرغ الان في هذا المكان وان قامت الريح ألا يا ترى تهب هناك كهبها هنا ولربما يكون هنا باقل حفـةٍ اذا هبت من الشرق · الّا اني مشيت طمعاً في نوال الأرب · ولكن ما انفقتهُ من الماء الكثير كان كافياً لان استقرَّ مدة تسعـة ايام في هذه الصحراء · فما اطول تسعة ايام ومن يعلم ماذا كان قد طرأَ في مدتهـا من الحوادث · غير انهُ ربما لو حفظت الماء لوجب عليَّ الارتقـاع بالقاء شيء من الثقل وعد نزولي كنت افقد غازًا جزيلًا فغاز القبة هو دمٌ وحياة لها

فتصادمت هذه الافكار في عقله فيما انه يقبض على راسهِ بيديه متأملًا مدة ساعات برمتها

ولما كانت الساعة العاشرة صباحاً قال في ذاتهِ لا بدَّ ان امتحن امرًا في اخر الامر لعلهُ خيرًا · فها اني اصعد الى العلاء لاستقصيْ طبقةً تجري مهب

ريح تدفع قبتنا الى قدام ولا بدَّ لي من هذا الامتحــان ولو انفقتُ الماء التي هي غاية حيلتنا

وفيما كان رفيقاه راقدين اضرم نار القصبــة واستدارت القبة لامتداد الادروجن وارتفعت بخط مستقيم باعظم من السرعة فسعى العلامة في ان يجد مهبًا من علو مائة قدم الى علو خمسة الاف قدم لكنَّ سعيهُ ذهب هدرًا ولم يستفد شيئًا وتبين لديه ان الريح عديمة الوجود حتى وفي اخر حدود الجوّ

وفرغ الماء اخيرًا وامتنع حفظ النار وطفيت القصبة لنفاذ الغاز واصبحت آلة بنزن لا فاعلية لها ثم تقلصت القبة الهوائية واخذت في النزول رويدًا رويدًا على الرمل في نفس المكان الذي طلعت منهُ

فانتصف النهــار وهم في درجة ١٩°٣٥ طولًا و٦°٥١ عرضًا بعيدًا عن بحيرة شاد بنحو خمسمائة ميل وعن جهــات افريقية الغربية بنحو من اربعمائة ميل ونيف

فنزل ديك ويوسف الى الارض وذهب عنهما الخدر

ثم قال الصياد : وقفنا اذًا يا خليليَّ

فاجاب العلامة بصوت الهيبة : لا بدَّ من الوقوف

ففهم الرفيقان مآل كلامهِ وكان سطح الارض على مســاواة سطح البحر لسبب انخفاضهِ هناك ولهذا وقفت القبة في موازنة تامة وعدمت الحركة على الاطلاق

وبعد ان وضعوا فيها رملًا موازيًا ثقلهم نزلوا الى البر وهم غائصون في مفاوز الفكــر ولبثوا ساعاتٍ لا يتحادثون ولا يتفاوضون في امر . ثم هيأ يوسف العشــاء وكان لحمًا وكعكًا وغب ان اكلوا شيئًا يسيرًا شرب كلٌّ منهم جرعة من الماء السخن

ولما جنَّ الليل وبدد الدجى ضياء النهار لم يسهر احد لحراسة القبة ولكن لم يرقد ايضًا احد لشدة الحرارة وانشغال الفكر. ولما اصبح الصباح اخذ فرغوسن نصف لتر الماء الباقي ووضعهُ جانبًا وقصدوا ان لا يمسوهُ الّا وقت الحاجة القصوى

فما مضت برهة الّا قال يوسف: أُفٍّ اواه لقد ضاق صدري من الحرارة المتزائدة

ثم تطلع في الترمومتر وقال: لا عجب من ذلك فان الحرارة في درجة مائة واربعين

فقال الصياد: ان الرمل يلهب الاعضاء ويجعل البدن كأنه خارج من اتون ناري يا رباه ما هذه الحال فاننا لا نرى اثرًا لسحابةٍ في السماء لعمري ان ذا مما ينزع العقل ويبلي بداء الجنون

قال العلامـــة: لاتقطعنَّ حبل الرجاء يا رفيقيَّ لان مثل هذه الحرارة يعقبها دائمًا رياح عاصفات في مثل هذه النقطة من الكرة ويكون قدومها سريعًا كالبرق اللامع وان كانت الان السماء في صفاء ورواق عظيم فمع ذلك يمكن حدوث تغيير مهم باقل من ساعة

فقال ديك: ولكن لا بد من ان يسبق ذلك دليل ام اشارة

فقال العلامة: اني ارى ميزان الهواء مائلًا الى انخفاض في الزيبق

قال ديك: اجاب الله دعاءك يا خليلي صموئيل لاننا قد تسمرنا في هذه الارض كطيرٍ مكسور الجناح

قال فرغوسن: ولكن هنا فرق بيننا وبين الطيور يا ديك لان اجنحتنـــا لا زالت غير ممسوسة ولم يضر بها شيء وأُومل ان يتيسر لنا العمل بها بعدُ

فصاح يوسف قائلًا: آه ثم آه من ريح تذهب بنا وتبلغنا الى عين ام بئر

فحينئذٍ لا نعود نحتاج الى شيء . فان زادنا كافٍ وبالماء ننتظر شهرًا بتمامه ولا نحتمل عذابًا واما العطش فهو شرّ مصيبة وبلية

فلم يكن العطش وحدهُ عاملًا على تعذيبهم بل كان عقلهم مضطربًا لمراقبة الصحراء مراقبة دائمة لان الرمال كبحر غطمطم ليس فيها تلٌّ ولا عوجٌ ولا حصاة واحدة لتقف انظارهم عليها . فقد جرح فؤادهم انبساط تلك الفسحة المتساوية السطح واصابهم بالداء المعروف بداء القفار . ولعمري ان النظر الى زرقة تلك السماء غير المتغيرة والتأمل في اصفرار تلك الرمال الجزيلة المدى مما يفضي بالمرء الى الهلع والرعبة وكانت حرارة الجوّ الملتهب نامية متزائدة وكأنها بارتجاف لهيب الاتون المصطرم . فاذا ما تأمل العقل بتلك الرواق البليغ خاب منهُ كل املٍ من النجاة ولم يجد بُدًا من الهلاك في هاتيك الطلول ولا يخال بذهنهِ ما من شأنهِ ان يفرج همهُ لان الاتساع المديد نوعٌ من الابدية

ولهذا لما فرغ الماء عند المسافرين الثلاثة وهم مقيمون في تلك الصحراء الحارة اخذوا يشعرون بالتصورات الغريبة الخالية من الصواب وقد كبرت عيونهم واضطرب بصرهم

فلما رفرفت اجنحة الظلام وخيم الغسق قد عزم العلامة على ان ينقض تلك الحالة المقلقة بسيرٍ سريع . فاراد ان يطوف تلك الصحراء مدة ساعات لا للاستقراء بل للمشي

فقال الى رفيقيهِ : هلما بي يا رفيقيَّ لنسير مدةً لان المسير يجدينا نفعًا جزيلًا

قال ديك : انك تطلب مني امرًا مستحيلًا لاني لا استطيع ان اخطو خطوة واحدة

قال يوسف : احبُّ عليَّ الرقاد يا مولاي

قال: ولكن سيجلب عليكما الرقاد او الراحة ضرراً يارفيقيَّ . فانفضا اذاً هذا الخمود والارتخاء وتعاليا معي نمشي . ما بالكما لا تسمعان

فلم يجبهُ رفيقاهُ على سؤالهِ ولذا ذهب وحدهُ يمشي في تلك الليلة الشفافة المتلألئة بالنجوم والكواكب المرصعة في القبة اللازوردية . فرأى خطواتهُ الاولى مضحكة لهُ جداً اذ انها خطوات انسان واهن لم يمارس المشي من برهة طويلة لكنهُ علم انهُ يجني نفعاً من هذه الرياضة فسار بعض الاميال نحو الجهة الغربية واخذ عقلهُ يتشدد واذا بغتةً اصابهُ داء الأوام (هو دوار الرأس) فظنَّ في نفسهِ انهُ على حافة الهاوية وان ركبتيهِ انثنتا والقت الصحراء في قلبهِ رجفة الرعب والهلع . فتوارت المنصورة عن عينيهِ في حلكة الظلام وثقلت على راسه احمال الخوف والفزع وهو المسافر المشهور في الشجاعة والجراءة فحاول الرجوع الى الوراء ولكن كان سعيه باطلاً ثم نادى فلم يجبهُ احد حتى ولا الصدى وسقط صوته في الفضاء كما يسقط حجر في هوة لا قياس لعمقهِ ثم ارتمى على الرمل مضطجعاً خائر القوى وليس لهُ رفيق في وسط ذلك القفر الصامت المخيف

وعند انتصاف الليل عاد الى حواسهِ وهو بين يدي يوسف خادمهِ الامين لانهُ اي يوسف لما رأى ان قد طالت غيبة سيده اخذه القلق وهرول حالاً يتبع اثاره المطبوعة على الرمل بجلاءٍ تام فوجده مغشياً عليهِ

ولما افاق قال لهُ: ما الذي اصابك يا مولاي

فقال لهُ العلامة: ليس ذلك شيئاً بل هو ضعف وقتي

قال يوسف: نعم ليس ذلك شيئاً ولكن انهض واستند عليَّ لنرجع الى منصورتنا

فاتكأ العلامة على ذراع يوسف وعاد في الطريق التي سلكها قبلاً

فقال يوسف : لِمَ خاطرتَ بنفسك يا تعسي بلا فطنة

ثم قال ضاحكاً : وربما كنت تشلحت من اللصوص ولكن ما لنا ولهذا الحديث فلنتكلم بجدّ

قال العلامة : قل يا يوسف ما بدا لك فاني مصغٍ لكلامك

قال يوسف : لا بد من ان نعمد لعمل لان حالتنا لا تدوم على هذا المنوال اكثر من بعض الايام واذا لم تمنّ الريح علينا بعبها هلكنا لا محالة

فلم يأتِ العلامة بجواب

فاستتلى يوسف كلامهُ قائلا : يجب ان واحداً منا يبذل نفسهُ حباً برفيقيهِ ومن الصواب ان اكون انا ذلك الواحد

قال فرغوسن : وما المراد بقولك وما هو قصدك يا يوسف

قال يوسف : انما هو قصد سهل جداً فاني اخذ معي زاداً وامشي دائماً الى ان ابلغ مكاناً في غضون ذلك اذا افتقدكما المولى بريح موافقة فتسافران ولا تنتظراني واما انا فاذا وصلتُ الى قرية اقضي مصلحتي ببعض كلمات عربية اخذها منك خطاً فاما اني اتيكما بالمساعدة اللازمة واما اني اترك جلدي هناك فما قولك دام فضلك

قال العلامة : ان قصدك خالٍ من التعقل والفطنة لكنهُ جدير بشهامة قلبك يا يوسف فان ذا الامر مستحيل ولا نتركك تذهب عنا

قال يوسف : سيدي لا بدَّ من ان نمتحن امراً فان هذا لا يجلب عليك مضرة لاني اقول لك تكراراً انك لا تنتظرني عند هب الريح وفي حصر المعى انا ارجو النجاح في مصلحتي

قال العلامة : كلاَّ ثم كلاَّ يا يوسف فلا نفترق اصلًا بعضنا عن بعض

لان الافتراق يزيدنا غمًّا على همٍ فانهُ قد كُتب ما جرى لنا وربما قد كُتب ايضاً انه سيحدث خلافهُ في المستقبل . علينا اذًا ان ننتظر بصبرٍ جميل

فاصبرْ لضيفٍ بك يوماً نزلا   لم يلبث النازلُ ان يرتحلا

قال يوسف: فليكن كما قلت يا مولى. ولكن دعني اقول لك اني لا اصبر ما ناف عن يومٍ واحد ها قد بلغنا يوم الاحد او بالحري الاثنين لانها الساعة الواحدة من بعد انتصاف الليل فاذا مضى الاثنين ودخل يوم الثلاثاء ولم نعش باشرت قصدي لا محالة

فما اجاب العلامة الى مقال خادمهِ وبعد قليل بلغ المنصورة وجلس في قاربها بالقرب من ديك الذي كان غائصاً في بحر السكوت المطلق ولو انه غير نائم حقيقةً

الفصل الخامس والعشرون

في اشتداد الحرارة وفروغ اخر نقطة من الماء وليالي اليأس ومحاولة ديك قتل نفسهِ وهبوب السموم

فلما اصبح الصباح في اليوم الثاني كانت اول نظرة العلامة الى زيبق الميزان فرأى انهُ باكاد انخفض انخفاضاً طفيفاً

فقال في نفسهِ : ما من شيء جديد

فخرج من المركبة وتطلع في الجوّ ليفحص عن حالة الهواء فلم يجد سوى الحرارة نفسها والنقاوة المألوفة في الجوّ وثبوت الحال على المنوال القديم من دون دليل ينبئ عن تغيير قريب الامد

فصاح حينئذٍ قائلاً : وهل اذاً يجب علينا قطع الامل على الاطلاق

اما يوسف فكان صامتاً خائضاً في عمق افكاره ومتأملاً بما صممهُ من القصد الثابت

اما ديك فاستفاق من النعاس مريضاً وقد تشددت قواه الحيوية بنوع خارق العادة فكبلهُ العطش بسلاسل نوائبهِ وصده انتفاخ لسانهِ وشفتيهِ من التفوه بالكلام

وقد ذكرنا فيما مضى ان نقطات من الماء كانت لا تزال محفوظة في آنية والرفاق الثلاثة لهم علم بها فجعلوا يردونها في افكارهم وقلوبهم مشتاقة اليها اشتياقاً عظيماً دون ان يجسر احد على الارتشاف بها

ثم اخذوا ينظرون بعضهم الى بعض واعينهم زائغة تائهة وقلوبهم مفعمة حرصاً وحشياً وكان ديك على الخصوص خاملاً كل الخمول لاستمساكهِ عما لايطيق المرء الاستمساك عنهُ فقضى النهار كلهُ غائصاً في بحر الهذيان وهو

ذاهبٌ آيب ويضج باصوات البحة الخشنة ويعض قبضة كفه وكأنك به قد تأهب لفتح عرقهِ ومص دمهِ

ثم صاح قائلًا : ويلاه ويلاه من هذه البلاد بلاد العطش والجفاف فالاصح ان تُدعى بلاد اليأس والقنوط

قال هذا وسقط على الارض واهنًا منحط القوى ولم يسمع لهُ سوى صفير تنفسهِ بين شفتيهِ الظامئتين

وعند المساء بُلي يوسف ايضًا ببدء داء الجنون فخيل لهُ ان الصحراء الشاسعة تحاكي بحيرة عظيمة فيها ماءٌ رائق صافٍ فجعل يرتمي مرارًا على تلك الرمال الملتهبة ليرتشف منها وكان ينهض عاجلًا وشفتاهُ ملوثتين بالتراب

فحينئذٍ كان يقول لها بغضب وحنق : ويلًا وتعسًا لكِ يا ايتها البحيرة المشؤمة فان ماءكِ مالحٌ للغاية

وفيما كان العلامة وديك متمددين لا يبديان حركة طرق يوسف فكرٌ ان يأتي ويروي غليل ظمائهِ بتلك النقطات المحفوظة من العلامة الى ساعة الضيق الاخيرة فوثب على المركبة زاحفًا على ركبتيهِ وكشف الانية الحاوية ما فضل من الماء واذ حدّق فيها عينيهِ اخذها بيدهِ وجعلها على ثغره

ففي الساعة والحال سمع صوتًا قادمًا منقطعًا يصرخ ويقول : اسقني اسقني

فما كان هذا الّا صوت الصياد الذي رأى يوسف يشرب الماء فدبّ مقبلًا اليهِ وجثى امامهُ على ركبتيهِ باكيًا فتحرّك قلب يوسف شجنًا وشفقةً وبكي هو ايضًا وناول ديك الانية فافرغها الصياد في فيهِ الى اخر نقطة منها

ثم قال ليوسف : اشكر فضلك يا خليلي وعزيزي

اما يوسف فلم يسمعهُ اذ سقط على الرمل واهنًا وغاب عن حواسهِ

فمن يا ترى يعلم ما جرى في تلك الليلة الهائلة . . . ولما اصبح الثلاثاء استيقظ الرفاق الثلاثة وكانت الشمس كرشقة تصبُّ نارًا عليهم فرأوا اعضاءهم آخذة في الجفف واليبس رويدًا رويدًا ولما اراد يوسف ان يقوم على قدميهِ لم يستطع حراكًا ولهذا اضحى لديه من المستحيل ان يتمم ما نواه من العمل

ثم جال بعينيهِ حولهُ فشاهد العلامة جالسًا في المركبة منحط القوى مكتف اليدين على صدره وهو يشخص في المسافة شخصة ابله نظر الى نقطةٍ خيالية . اما ديك فكان منظرهُ يهيل البصر وهو يحرّك رأسهُ ذات اليمين وذات الشمال كوحش ضارٍ منحبس في القفص ثم وقف فجأة واحدق بسلاحهِ (القرابينة) الموضوعة في المركبة بالقرب منهُ

وبعدهُ نهض متشددًا بقوة خارقة للطبيعة وقال : آه ثم آه . ثم اقبل واكضًا كابلهٍ ومجنون واخذ القرابينة واحكم فوهتها على فيهِ

فوثب عليهِ يوسف وقال لهُ : سيدي سيدي ما بالك

فقال الصياد شاهقًا : دَعني واذهب عني

واخذ كلاهما يتصارعان ويتنازعان

فقال ديك : رُح رُحْ عني والّا لقتلتك

اما يوسف فلبث ناشبًا فيهِ بيديه وتصارعا برهةً ولم يلتفت اليهما العلامة وفي غضون القتال أُطلق الرصاص من السلاح بغتةً فدوى الصوت في الصحراء وعندها قام العلامة واجال بصرهُ حواليهِ

وفيما هو على هذه الحال اذا تشدد بصرهُ على الفور ومدَّ يدهُ نحو الافق وصاح صارخًا : هناك هناك هناك

وقد خالج تلك الالفاظ حركة حماسة شديدة حتى افترق يوسف وديك

عن بعضهما وجعلا يتطلعان الى بعضهما

فكانت الصحراء مضطربة كما يضطرب البحر ويتموج يوم تعصف فيه العاصفة وقامت امواج مزبدة من الرمال تنتشر وتلتف بعضها على بعض وعامود سحابي آتٍ من جنوب الشرق مستديرًا متقلبًا ساريًا بسرعة عجيبة والشمس اذ ذاك مستترة وراء سحابة كثيفة فارسل ظلها بساطةً حتى المنصورة وحبات الرمل الناعمة تكركر كور الجزئيات المائعة ولم يزل ذلك الموج الرملي مقبلًا اليهم

فاشرقت انوار الامل على قلب فرغوسن وتلألأت على محياه

ثم صاح قائلًا: نعما نعما هوذا السموم قد اقبلت

فقال يوسف ولم يفهم معنى ذلك: نعما نعما السموم

فقال ديك بصوت الغضب واليأس: دع السموم تهب فانها تذيقنا كأس المنون

فقال لهُ فرغوسن: كلاَّ يا ديك فانها تأْتينا بكأس الحياة

وجعل يرمي من المركبة ما كان فيها من الرمال

ففهم اخيرًا رفيقاهُ وشرعا يساعدانه في عمله ثم جلس في المركبة

فقال العلامة: والان يا يوسف اكرم عليَّ بالقاء نحو خمسين رطلًا من معدنك

فبادر يوسف الى اجراء امر سيده مع انهُ شاعرٌ باثر اسفٍ زائل واذا بالقبة الهوائية علت عن الارض وارتفعت

فقال العلامة: قد حان اوان ارتفاعك يا قبة الخير

فاتت السموم بهبها السريع كالبرق اللامع وكادت لفورتها تسحق المنصورة وتلاشيها وقد امطرت عليها الرمال كالبَرَد

فصاح العلامة الى يوسف وقال : ادمِ بعد من الثقل يا يوسف

فالقى يوسف قطعة كبيرة من المعدن الذهبي

وقال . هوذا رميت فليطرب منك الخاطر

فارتفعت حينئذٍ المحصورة فوق فورة الهواء ولما وصلت الى العلاء انجذبت سابحة على ذلك البحر المزبد بسرعة لا حدَّ لها

فلم يتكلم احدٌ من الرفاق الثلاثة بل كانوا شاخصين ومتأملين وقد بَرَّدتهم ريح العاصفة

وعند الساعة الثالثة خمد الاضطراب وسقط الرمل على الارض وكوَّم فيها الروابي وعادت السماء الى رواقها الاصلي

عندها وقفت المنصورة عن المسير فحامت بالقرب من غوطة هي كجزيرة خضراء عائمة على سطح ذلك البحر الرملي

فقال العلامة : هوذا الماء هوذا الماء ولا ريب في ذلك

وللحال فتح اللولب الأعلى فانسرب جانبٌ من الادروجن ونزلت القبة حتى لم تبعد عن الغوطة الّا بنحو مائتي قدم

واما المسافة التي جازها المسافرون في برهة اربع ساعات فبلغت مائتين واربعين ميلاً اي زهاء مسافة ١٠٠ ساعة

وعند دنو القبة من الارض قد نزل ديك ويوسف قافزين عن المركبة فقال لهما العلامة : كونا على حذر وخذا معكما البواريد

فوثب ديك على قرابينته وضبط يوسف بارودته وتقدما سريعاً حتى وصلا الى الاشجار ودخلا تحت تلك الخضرة الرطبة فاستبشرا من ذلك بماء غزير لكنهما لم يكترثا بعض اثار حديثة عريضة رُسمت في تلك الارض الناعمة

وفيما هما يمشيان اذا سمعا زئيراً عن بعد نحو عشرين قدماً

فقال يوسف : انما هذا زئير اسد

فقال ديك مغتاظاً : دَعهُ يزأر فاني اود معاركتهُ . ترى كم اننا اقوياء عند القتال

فقال يوسف : ولكن حذارِ حذارِ وليرشدك التأني والحرص لان حياتنا نحن الثلاثة متعلقة بخيطٍ بعضها ببعضٍ فاذا ذهبت حياة الواحد حصلت حياة الاخرين في خطر

فلم يصغَ ديك لكلام يوسف بل تقدم كأسدٍ ضارٍ وشرار الحماسة والجسارة تقدح من عينيهِ وسلاحهُ منخور في يديه . ففي ظل نخلةٍ كان سبع ذات ناصية سوداء مستكناً كامناً للقتال فما بصر بالصياد الّا قفز ليثب عليهِ ولكن بالكاد استوى قائماً حتى بادرته رصاصة خرقت قلبهُ كالصاعقة وجندلتهُ على الارض ميتاً

فصاح يوسف قائلاً : عفاك الله عافاك ياسيدي

اما ديك فبادر الى البئر عدواً ونزل اليه على درج رطب ثم تمدد امام عين ماء بارد وغمس شفتيهِ فيهِ بلهوجةٍ ثم حذا حذوهُ رفيقهُ يوسف ولم يعد يُسمع لهما سوى لعق الماء ليرتويا من شدة ظمائهما

فبعد ان شرب يوسف تنفس وقال : حذارِ حذارِ ياديك لاتطمعنَّ في الشرب فان الطمع ضرٌّ ما نفع

اما ديك فلم يلتفت اليهِ بل ما زال يروي غليل عطشهِ وقد غطس في ذلك الماء اللذيذ راسهُ ويديه وكانهُ يحاول الثمل بمثل تلك الخمرة

فقال يوسف : وسيدي فرغوسن هلاَّ نفتكر فيهِ

فما انتبه الصياد الّا عند ذكر العلامة فرغوسن وللحال ملأ آنيةً كان قد احضرها معهُ واراد الطلوع على درج البئر

فاندهش اندهاشاً عظيماً اذ وجد نافذة البئر قد سدها جسمٌ عظيمٌ هائل كثيف جداً ثم ارتدّ يوسف نظيرهُ اذ كان تابعاً لهُ

فقال حينئذٍ : ها قد سجنا في شرّ الحبوس

قال ديك : ويلاه ما المعنى بذلك وما هذا الامر . .

فما فرغ من كلامهِ الّا سمع زئيراً فعرف وقتئذٍ من هو ذلك العدو الباسل السادّ مدخل البئر

فقال لهُ يوسف : انهُ سبعٌ

قال ديك : كلاَّ بل هي لبوةٌ نحس الله طالعها ولكن فلنصبر قليلاً فعليَّ بتدبيرها

ثم جعل يذخر سلاحهُ بسرعةٍ ونشاط

وما مضت برهة الّا اضرم النار فكان الحيوان قد توارى عن الابصار

فقال الى رفيقهِ : هيا بنا هيا .

فقال يوسف : كيف نطلع وبعد لم تقتلها رصاصتك لانها لو كانت ماتت لتدحرجت الى هنا وهي الان واقفة خارجاً ومتأهبة لتثب على من يخرج منا اولًا فهو يكون فريستها ونصيبها

قال الصياد : وما الحالة اذاً وهل نلبث في هذه البئر محبوسين ورفيقنـــا

قال يوسف : فلنجذب الينا الحيوان خذ بارودتي واعطني سلاحك

قال ديك : وما مرادك ان تصنع

قال : سترى الان

فاخذ يوسف بُرْدته وجعلها على رأس السلاح واطلعها الى فوق كطعمة للبوة فهجمت اللبوة فكان ديك يترقبها فضربها برصاصةٍ اصابت كتفها

فتدحرجت حينئذٍ على الدرج وهي زائرة وقلبت يوسف فظنَّ هذا انها غرزت في جسمهِ براثنها لتفترسهُ واذا بضربةٍ ثانية اصابت اللبوة فكان اذ ذاك فرغوسن قد ظهر على نافذة البئر وبارودته معهُ والدخان منها متصاعد فزحف يوسف من تحت اللبوة وجازمن فوق جسمها واعطى مولاه فرغوسن آنية الماء

فني دهشة عين اخذها العلامة الى فيهِ وافرغ نصفها وحينئذٍ اسدى المسافرون الثلاثة شكرًا جزيلاً من صميم الفؤاد الى عناية الرحمان التي حفظتهم من شر الغوائل ونجتهم بنوعٍ عجيب من كوارث الحدثان

الفصل السادس والعشرون

في الليلة البهجة وقصة جس ابروس وانخفاض البارومتر
وطلوعه والتاهب للرحيل وتوران الزوبعة

فكانت ليلة مبهجة تطرب الخاطر اذ قضوها في روضةٍ اريضة تحت ظل اشجر ناضرة بعد ان تناولوا طعاماً لذيذاً قوّى ابدانهم ولم يهملوا شرب الشاي والعرق الممزوج بالماء

وكان قد طاف الصياد تلك الغوطة بجميع آفاقها واستقرأ سائر اجماتها وادغالها فلم يجد في ذلك الفردوس الارضي ذاتاً حيوية واذ اطمأنّ تماماً قد رقدوا جميعاً ملتحفين باغطيتهم وذاقوا في وسنهم لذة الراحة وولى عنهم مدبراً ذكر الغموم والبلايا الغابرة

ولما كان الغد وهو السابع من شهر ايار اشرقت الشمس بانوارها الساطعة فلم تخترق كثيف الاشجار والاجام الملتفة المظللتهم بظلها وقصد المسافرون الاستراحة في تلك الروضة منتظرين هبوب الريح الموافقة ولم يصدهم عن ذلك مانع اذ كان زادهم جزيلاً وافراً اما يوسف فنقل ادوات مطبخهِ الى تلك الجنينة وكان يشكل طبخ الاطعمة ويبذر الماء بلا توفير ولا اكتراث

فقال الصياد : يا للعجب من هذا الفرج العجيب بعد ذلك الضيق وهذه الافراح بعد تلك الغموم والاتراح وهذا الريعان بعد ذلك المحول وهذا الغنى بعد ذلك الفقر فللهِ درّ من قال:

رأيت الدهر مختلفاً يدورُ   فلا حزن يدوم ولا سرورُ

ولعمري لقد ناهزت افتقاد مخيلتي في تلك الساعة الهائلة

فقال فرغوسن: لولا يوسف لما كنت الان تحدثنا على اختلاف احوال الدهر وانقلابها واقبال الدنيا وادبارها

فمدّ ديك يده الى يوسف وقال لـهُ : خليلي وصديقي لا شلت يداك المحسنتان

فقال يوسف : لا يحمل الامر مثل هذا الشكران فعليك ان ترد لي العوض اذا مست الحاجة الى ذلك غير انهُ لحبُ عليّ الّا احتاج الى مثل تلك المعاونة

قال فرغوسن : يا لضعف طبيعتنا وما اسهل انحطاطنا لامر طفيف

قال يوسف : أ لعلك مشير الى القليل من الماء الذي نتلف بدونهِ فهذا دليل الى ان الماء لعنصرٌ كلي الضرورة لحياة الانسان

قال فرغوسن : لا ريب في ذلك والذين يُحرمون الأكل يحتملون عدمهُ اكثر من الذين يحرمون الشرب

قال يوسف : نعم هذا صحيح اذ انه عند الضرورة يأكل الانسان كل ما يصادفهُ حتى وشبيههُ ولو كان ذا الطعام مما لا تحملهُ المعدة بسهولة

قال الصياد : ان البرابرة لا يفوتهم هذا الامر ولا يصعب عليهم

قال يوسف : أجل ولكن هم متوحشون و برابرة وقد تعودوا اكل اللحم النيء فهذا مما تشمأز منهُ طبيعتي غاية الاشمئزاز

قال العلامة : في الحقيقة ان هذا مما تنفر منهُ الطبيعة نفوراً شديداً ولهذا لما حمل الى اوربا السواح الذين دخلوا بطون افريقية الاخبار عن بعض اقوام برابرة كانوا يقتاتون بلحم غير ناضج فلم يؤخذ كلامهم على محمل الصدق وفي مثل هذه الظروف وقع لجمس بروس حادث غريب ومضحك جداً

فقال يوسف وقد تمدد برخاء على الخضرة الغضة : احكِ لنا هذا الحادث فان لنا وقتاً لنسمعهُ

قال فرغوسن : سمعاً وطاعة اعلمـا وقفكما المولى ان جمس بروس رجل اسكتلندي من اقليم استرلينك وقد طاف بلاد الحبشة كلها حتى وصل الى بحيرة تيانا قصداً في اكتشاف عيون النيل وذلك من سنة ١٧٦٨ الى سنة ١٧٧٢

ثم رجع الى بلاد الانكليز ولم يُشهر فيها رحلاته الّا سنة ١٧٩٠ فلم تتصدق اخباره عن اقوام تلك البلاد بل أُدخلت في طيّ الخرافات والخزعبلات وعلى الخصوص من حيث ان اخلاق الحبشة واطباعهم الغريبة تنافي الطباع الانكليزية وتختلف عنها اختلافاً عظيماً ومن جملة ما رواه جمس بروس ان شعوب افريقية الشرقية يأكلون لحماً غير ناضج

فهاجت هذه الرواية قوماً جزيلاً ولم يرتضِ احدٌ بان يصدقها ولما كان بروس على جانب من الشجاعة وحدة الطبع اغتاظ كثيراً من شك الناس في كلامهِ وفي ذات يوم كان رجل من بلاد وطنهِ جالساً في قاعة ادنبرج فاخذ يعيد على سماعهِ اي سماع بروس المقالات نفسها التي اعتاد على المزاح بها اهل تلك المحلات ضحكاً على روايات بروس وصرح امامهُ بصوت عالٍ ان اكل اللحم النيء هو من المستحيل ولا يمكن تصديقهُ فلم يجاوبهُ بروس على كلامهِ بل خرج برهةً ورجع اليهِ بقطعة من اللحم الغير الناضج بعد ان غمسها بالملح والبهار على نسق الافريقيين ثم قال لهُ : سيدي لقد سببت لي اهانةً عظيمة وشتمتني باظهارك لي شكاً فيما رويتهُ وبزعمك ان ذا من المحال فتأكيداً لصدق كلامي اجبرتك على اكل هذه القطعة اللحمية الغير الناضجة فاما انك تأكلها والّا . . . . .

فخاف الاسكتلندي حينئذٍ واذعن لامر بروس ولما تناول قطعة اللحم كشر عن اسنانهِ دلالةً على اشمئزازه ونفوره . اما بروس فما زال محافظاً على استكانتهِ ورواقهِ ثم قال : ولنفرض سيدي ان القضية التي نحن في صددها غير صادقة

فمن الان وصاعداً اقلهُ لا علت تقول انها من الامور المستحيلة

فقال يوسف : نعم للجواب جواب بروس فلو كان اصاب ذلك الرجل تخمة من تـــاوله اللحم النيء لكان قد نال جزاءهُ ولكن يا ترى اذا رجعنـــا الى بلادنا وشكَّ الناس في رحلتنا ....

قال فرغوسن : فماذا تصنع حينئذٍ

قال يوسف : اني سأطعم الذين يشكون في رحلتنا قطع المنصورة بلا ملح ولا بهار

فضحك الرفيقان من الفـــاظ يوسف المزاحية وهكذا مرَّ النهار باحاديث لطيفة ثم عاد اليهم الامل مع القوة ومع الامل للجرأة واخذ الماضي بالاضمحلال تجاه المستقبل بسرعة عجيبة

وقد عزت ليوسف السكنى في ذلك المـــأوى المطرب وودَّ لو انه لم يكن مضطراً الى هجرانهِ اصلاً اذ اصبح لديه ذلك المكان كمملكة احلامـــه وظن بنفسهِ انهُ مـــستقرٌ في نفس بيتهِ . ثم طلب من سيدهِ ان ينبئه عن مركـــزه وسطر في سجل سفرتهِ انـــهُ في الدرجة ١٥°٤٣ طولاً و٣٢°٨ عرضاً . اما ديك فلم يحزن سوى على امرٍ واحد وهو عدم تمكنهِ من الصيد في ذلك الغـــاب وساءهُ خلو محيطهم من بعض الحيوانات الكاسرة

فقال العلامة : كأنك يا عزيزي ديك نسيت حالاً ذاك الاسد وتلك اللبوة

فقـــال ديك بصوت الازدراء : هذا شيء لا يُذكر ولكن في الواقع ان وجود ذينك الوحشين اللذين اذقناهما كاس المنون مما يجعلنا نخمن بقرب بلادٍ اكثر خصباً وريعاناً

قال فرغوسن : ان برهانك يا ديك غير سديد لان هذه الحيوانات تجوز غالباً مسافات شاسعة لتضورها من الجوع والعطش . والاجدر بنا ان نكون على

حرص وحذر في الليلة المقبلة ونضرم النيران لئلا تدهمنا داهية

قال يوسف : وهل نضرم النيران لتزيد حرارةً على الحرارة الحاضرة ومع ذلك فلا بأس من اضرامها وفاقاً لمرادك ولكني عند قطعي واحراقي تلك الاشجار البهية الجزيلة النفع فلا بد لي من الشعور بغمّ باطن وتأسف

قال العلامة : حاشا لنا ان نحرق الغاب باسره فلنحافظ عليه ما امكنا حتى اذا بلغهُ غيرنا يجد فيهِ ملجاء وسط الصحراء

قال يوسف : نعم القول ولكن هل تظن يا سيدي ان هذه الروضة عرفت من المسافرين

قال العلامة : لا شك في ذلك لانها مثوى لقوافل المسافرين في اواسط افريقية فلو اتونا الان زائرون لما سررت الّا ما قلَّ حسبما يُرى لي

قال يوسف : وهل يوجد بعد في هذه الاقطار من اقوام يام نيام البالغين في التوحش

قال العلامة : لا ريب فيهِ اذ ان هذا الاسم يعم جميع الاقوام الحالين في هذه الاقاليم وجميعهم ذات عوائد متماثلة

قال يوسف : افٍ افٍ ومع ذلك فان هذا امرٌ طبيعي لانهُ لو كان اهل البدو على ذوق اهل الحضر فاين يكون الفرق بين كليهما مثلًا ان هؤلاء الانام الافاضل اعني بهم البرابرة لا يقتضي لهم التوسل والترجي ليتلقفوا القطعة اللحمية التي ابتلعها الاسكتلندي المذكور انفًا بل والاسكتلندي بعينه

وبعد ان قال يوسف هذا ذهب يورث النار لحراستهم في الليل لكنهُ لم يشعل الّا قليلًا من الحطب وذهب ذلك الاحتياط هدرًا اذ لم يقع شيء يكدر صافي رقادهم ويقلقهم ادنى قلق

وفي الغد لم يتغير الهواء بل استمرَّ على استكانتهِ وهدوهِ وما رحب القبة

الهوائية عديمة الحركة ولم تتذبذب اصلًا لتدل على ادنى نسمة في الجوّ

فاخذ الهمّ يشمل قلب فرغوسن من جرى تلك الحال لانها اذا طالت على ذلك المنوال فينفذ زادهم وفيما كانوا سابقًا محتاجين الى الماء اصبحوا خاليًا في غاية الاحتياج الى الطعام وذهبوا فريسة للجوع الكلبي

لكنهُ نظر الى ميزان الهواء فرأى فيهِ انخفاضًا كثيرًا فتطمأن بالهُ وهدأ روعهُ لان انخفاض الزيبق دليل واضح على تغيير قريب في الجوّ فعزم على ان يتأهب للرحيل ويصير منتهزًا الفرصة الاولى عند مهب الريح . فلذا ملأ صندوق اذخار الغاز وصندوق ماء الشرب ثم اخذ يوازن القبة الهوائية فاضطر يوسف الى ان يبذل جانبًا عظيمًا من معدنهِ الغالي القيمة ولو ان الطمع عاوده مع عودة الصحة والقوة فتدلل كثيرًا قبل ان اذعن لسيده . اما هذا اي فرغوسن فبين لهُ انهُ لا يستطيع حملان ثقل عظيم وجعلهُ يختار ما بين الماء والذهب فلم يعتم ان يوسف التى على الرمل كمية وافرة من حجارته العزيزة

ثم قال : هذه ذخيرة مذخورة لمن يأتي بعدنا من المسافرين فانهم يندهشون عند ما يجدون كنزًا في مثل هذا المكان

قال الصياد : واذا اتى عالم في الصدفة وعثر على هذه الحجارة المعدنية فماذا عساه يظن بها

قال العلامة : كن على يقين يا صديقي ان تعجبهُ يكون عظيمًا ولا بد من انه يشهر ذلك التعجب في صحف ومياوماتٍ عدة بكلام مطوّل جدًا وسيأتي يومٌ نسمع بهِ عن مصادفة طبقة معدنية ذهبية في وسط رمال افريقية

قال ديك : ويكون يوسف سبب هذه الحادثة

فتبسم يوسف لهذا المقال وعزّى فؤادهُ على ما فقده من المال الوفير اذ تصوّر في بالهِ انه يكون سببًا لانخداع احد العلماء وشحنهِ كتبًا باوهامهِ الباطلة

ثم انتظر العلامة تغييراً في الهواء بفروغ الصبر فيما بقي من النهار لكنهُ خاب املًا اذ اشتدت الحرارة ولولا ظلّ الاشجار لناقوا حرًا لا يُطاق ووصل الترمومتر في الشمس الى درجة ١٤٩ انكليزية فكان اجيج الرمضاء يجري في الجوّ مجرى السيول وبلغت الحرارة اقصى درجة مما صادفهُ السواح في الصحراء

فعند ما جن الليل اقام يوسف سور الحصار كما في الامس ولما كان العلامة وكادي ساهرين كلٌّ منهما في وقت حراستهِ لم يحدث قط شيء جديد

ولكن لما كانت الساعة الثالثة بعد نصف الليل ويوسف اذ ذاك سهراناً في دوره انخفضت الحرارة على البغتة وتجلببت السماء بجلباب السحاب والغيوم واحلولك الظلام

فصاح يوسف في الحال الى رفيقيهِ ايقاظاً لهما من الرقاد وقال لهما: انهضا انهضا فقد اقبل الهواء

قال العلامة وهو ينظر الى السماء: حان اخيرًا الاوان غير ان هذه زوبعة فلنسرع الى المنصورة مبادرين

فكان لا بد من الاسراع الى المنصورة لانها كانت مائلة لشدة الزوبعة وجارّة المركبة على الرمال فلو كان قد القي شيء مما حوتهُ المركبة من الثقل لطارت القبة الى الجوّ وخيبت منهم كل امل في الظفر بها

اما يوسف النشيط فقد عدا عدو خيل السباق ووقف المركبة فيما كانت القبة متسطحة على الرمل ومناهزت الانخراق ثم جلس العلاّمة في موضعهِ واضرم القصبة ورمى ما زاد عنده من الثقل

فالقى السواح نظرة اخيرة الى اشجار الغوطة التي كانت تنثني من ثوران

الزوبعة وذهبوا متوارين في ظلّ ظلام الجوّ مع هبوب الريح الشرقية في علو
مائتي قدم عن الارض

الفصل السابع والعشرون

في راي احد علماء الفرنسيس والمرور بمملكة اداموفا وجبال اتلنتيكا
وغر بنوهِ ومدينة يولا وجبل باجلة وجبل منديف

ومنذ ما رحلت القبة اخذت تسير مسيرًا سريعًا جدًّا وطالما قد تمنى السواح الابتعاد عن تلك الصحراء التي كادت تدفنهم في رمالها وتوليهم الويل والتعس

ولما كانت الساعة التاسعة وربع صباحًا شاهدوا حشيشًا يتمايل في تلك الرمال فاستدلوا بها على ان الارض قريبة منهم كما استدلَّ على قرب الارض ذلك الرجل الشهير الذي اكتشف بلاد امريكا اعني بهِ خرستف كولمبو وبصروا بنباتات خضراء تبرز ما بين الحصى المشيرة الى قرب الصخور والجبال وكانت قصيرة جدًا كأنها تخشى الظهور بازاء الرمال المحيطة بها

ثم رقبوا في الافق اكامًا معوجة لكنهم لم يميزوا رسمها لما على قمتها من الغيم وعلى كل حال كان المنظر السابق اخذًا في الزوال والاضمحلال

فقرا العلامة السلام على تلك الارض الجديدة وقلبهُ اذ ذاك مفعم فرحًا وابتهاجًا وكاد يصيح كالبحري الرقيب في السفينة هوذا الارض هوذا ارض

ثم مضت ساعة وتراءت تلك الاماكن لاعين العلامة بمنظر وحشيّ لكنها لم تكن متساوية السطح وجرداء كالاولى بل كان افق السماء البعيد ينتقش بصورة بعض اشجار

فقال الصياد: قد وصلنا اذًا الى بلادٍ متمدنة

قال يوسف: ما هذا الكلام فانه بعيد عن الاصابة اذ لم نرَ حتى الان اهلًا لهذه البلاد

قال فرغوسن: لا يطول بنا المجال حتى نرى سكانًا ان بقي سيرنا على ما هو عليهِ

فقال يوسف: سيدي هلاَّ نزال في بلاد العبيد والسودان

قال فرغوسن: بلى حتى نبلغ بلاد العرب

قال يوسف: أ لعلهم العرب العرباء اصحاب الابال

قال فرغوسن: كلاَّ ليس من الابال في هذه المحال الَّا ما قلَّ جدًّا واذا طلبتها فوجدتها في الجهة الشمالية بدرجات

قال يوسف: قد ساءني هذا الخبر

قال فرغوسن: ولماذا يا يوسف

قال يوسف: لو انقلبت الريح وصدتنا عن السير لكانت الابال تجدينا نفعًا جزيلًا

قال العلامة: وكيف نفعتنا

قال يوسف: سيدي قد طرقني فكرٌ وهو اننا نقطرها في المركبة فتجرنا ونحن فيها. وما قولك يا سيدي

قال العلاَّمة: قد طرق هذا الفكر غيرك قبل ان تاتي بهِ فان احد علماء الفرنسيس اصحاب العقل والذكاء (١) الف حكاية وذكر فيها مركبة مقادة بجمال ثم وثب عليها اسد وافترسها وابتلع معًا الحبل الضخم الرابطها بالمركبة واخذ في جرّ المركبة وهلمَّ جرًّا. الا يا ترى يا يوسف ان السفر على هذا النسق تخيل من الطراز الاول ولا مناسبة لهُ مع نوع مسيرنا

فلما رأى يوسف ان رأيه اتى لبال غيره قبلهُ خجل واختضع ولكنهُ اخذ يفتكر بحيوان يستطيع ان يفترس الاسد ولما لم يجد من لهُ سطوة على سيد

(١) وهو العالم ميري

البهائم رجع ينظر الى البلاد ويتأمل هيئتها وشكلها وما تحويه من الغرائب

فشاهد بحيرة ذات سعة وسطى وحولها آكام لا تستحق ان تُدعى جبالاً ورأى اودية كثيرة نضرة وفيها الاشجار المتنوعة الاجناس ملتفة بعضها ببعض وهناك الايلانس وهو جنس من النخل ذات اوراق عظيمة يبلغ طولها نحو خمسة عشر قدماً وساقها متنبرٌ بالاشواك الحادة والروائح الزكية تفوح من ذلك النبات المشهور بقندة العرب وهي متصاعدة الى طبقة الجوّ السائرون فيها السواح بقبتهم ولم تخلُ تلك الروضة البهية من شجر جوز السودان والبوباب والموز وخلافها

فقال العلامة : وما احلى هذه الروضة الانيقة

قال يوسف : هوذا الحيوانات فعما قليل نشاهد الناس

قال الصياد : كم هي جميلة تلك الفيلة هل ترى من الممتنع صيدها

قال فرغوسن : وما الحيلة لنقف يا خليلي ونحن منجذبون بهذا المهب السريع الشديد دع عنك هذا المرام وامهل قليلاً فسوف تجازى على صبرك واحتمالك

وفي الحقيقة ان منظر تلك البهائم كان من شأنه ان يهيج المخيلة وقد احسَّ ديك بوثب قلبه وتقلصت اصابعه وهي قابضة على السلاح

واما حيوانات ذلك الصقع فتضاهي زهارها بهاء ورونقاً والثيران تتمرّغ في حشيش غليظ وتتوارى في خلالها لعلوها وكثافتها والفيلة الرمادية اللون والسوداء والصفراء ذات القامة الباسقة تمر مرور ام زوبعة في وسط الغابات والاحراش وهي تحطم وتقرض وتجلب الخراب والدمار حيثما جازت . ومجاري المياه تخرّ في انحدارها من اعلا الاكام المشجرة هابطة لنحو الجهة الشمال وهناك خنازير الماء تغتسل وتضج في اغتسالها وغيرها من البهائم ترى مضجعة

على شواطي البحيرة

وكان ذلك المكان عجيباً غريباً لما يأوي من الحيوانات الكثيرة المتنوعة الاجناس والطيور الغير المحصى عددها وذات الالوان المشكلة وهي تحوم متلألئةً فوق النباتات الباسقة والخضار الانيقة

فلما رأى العلاّمة مثل هذا الخصب وهذه النضارة الطبيعية علم ان هذه مملكة اداموفا

ثم قال ها نحن نسطو الان على الاكتشافات الحديثة فاني انهج منهج السواح الذين سبقوني واسير في الطريق التي لم يطيقوا تكميلها فهذا من حسن حظي وان شاء المولى سنلحق عن قريب اكتشاف القبطانين برتون واسيك باكتشافات العلامة برث . فهناك تركنا الانكليزيين واتينا الى هنا لمصادفة الهمبرجي وعما قليل نصل الى آخر محطة وصل اليها هذا العالم الجسور

قال ديك : يخال لي من المسافة التي جزناها انه يوجد بون عظيم بين الاماكن التي قصدها السواح المذكورون

قال العلامة : تعالَ نحسب هذه المسافة خذ الخارطة وانظر في اي طول هو راس البحيرة اوكاروه حيث وقف السائح اسيك

قال ديك : انه واقع على التقريب في الدرجة السابعة والثلاثين طولًا

قال فرغوسن : وما هو مركز مدينة يولا التي سنصل اليها ان شاء الله في نهاية النهار وقد بلغها برث الشجاع

قال ديك : مركزها في الدرجة الثانية عشرة طولًا

قال فرغوسن : فاذًا الفرق هو خمس وعشرون درجة وكل درجة كناية عن ستين ميلًا فيكون اذًا الحاصل الف وخمسمائة ميل

قال يوسف: لعمري ان ذا فسحة جميلة لمن يودُّ التنزه ماشياً

قال العلامة: لا بد لنا من قطع مثل هذه المسافة فعلًا فان ليونكستون ومُفات لا يزالان مقيمين في قلب افريقيــة ولا تبعد نياسا التي اكتشفوها كثيرًا عن بحيرة تنغانيكا المكتشفة من برتون ولا يمضي هذا الجيل الّا وتُعرف جميع هذه الاماكن. ثم نظر العلامة الى البوصلة وقال: ولكن ارى الريح تدفعنا كثيرًا الى الجهة الغربية وكنت اودّ لو دفعتنا الى الشمال ولكن ما الحيــلة

وبعــد ان سارت المنصورة مدة اثنتي عشرة ساعة وصلت الى حدود بلاد النيكريسيــة اي السودان وسكان هذه البلاد الاولون من عرب الشول رعاة المواشي البادية. وفي الافق تراءت رؤوس جبال اتلنتيكا الشامخة التي لم تدسها بعد قدم رجل افرنجي ويقال ان علو تلك الذرى عن سطح البحر نحو سبعة الاف وثمانمائة قدم

ثم تراءى لاعين السواح نهر حقيقي فعرف العلامــة انهُ نهر بنوه لوجود المنامل العظيمة المحيقة بهِ وهو من اصباب نهر النيجر الكبيرة وقد دعاهُ الافريقيون منبع المياه

فقال العلامة لرفيقيهِ: سيأتي يوم يكون فيهِ هذا النهر سبيلًا طبيعيًا لمد سلك العلاقات الى داخل النيكريسيــة وتوافي سفينة انكليزية تحت رئاسة احد قباطيننا المشهورين في الحذق والمهارة فتنزلهُ وتصل بهِ الى مدينة يولا وعليهِ فاننا قائمون في بلاد غير مجهولة

ثم شاهد السواح عبيدًا كثيرين يهتمون بحراسة الحقول وزراعة الحبوب ولما كانت تمرّ فوقهم المنصورة كشهب الكواكب ترى الاندهاش مستوليًا عليهم وبالغًا اقصاه واغربهُ ولما امسى وقفوا السواح بعيدًا عن مدينة يولا باربعين

الف ميل وامامهم كانت تقوم في الافق البعيد قنا جبل منديف لحادّتان

فامر العلامة بالقاء المراسي فتعلقت براس شجرة سامية العلوّ غير ان ريح شديدة الهبوب اخذت تلاطم القبة الهوائية حتى انهـا قد انثنت وتلوَّت وحصلت مراراً في خطر عظيم لان تتمزق فما نام العلامة ليلتهُ كلها الّا وهو في سهاد وكاد احياناً يقطع حبال المراسي ليفر هارباً من الزوبعة ثم بعدهُ هدأت الريح قليلًا ولم يعـد يخشى العلامة من تذبذب المنصورة

وفي الغد كانت الريح اخف مهباً لكنها دفعت السواح عن مديـنة يولا وقد اشتاق العلامة لرؤياها لانها قد بُنيت جديداً من الفلّان ولكن اذ لم يكن لهُ حيلة سوى الصبر سار مع هبوب الريح الى الجهة الشمالية مائلًا قليلًا الى الجهة الشرقية

فسأل ديك ان يحط برهةً في تلك البلاد الكثيرة الصيد ووافقـهُ يوسف على ذلك اذ قال انهم في احتيـاج كلي الى اكل اللحم الطري . اما العلامة فلم ينقد الى بغيتهما لانه يخشى تلك الاقوام البرابرة ويرى القبـة مرشوقةً بسهامهم

وكانت تمتد تحت المنصورة قرى وضيـاع كثيرة ذات اكواخ طويلة ما بين المروج المنقشة بزهور بنفسجية

وما انفككت الريح تدفع القبة الى جهة شمال الشرق رغماً عمـا بذلهُ فرغوسن من المجهود لتغييرها فاخذوا يتقدمون الى جبل منديف المتوارى بين السحب والغيوم ورؤوس هذا الجبل الشامخة تفصل حوض النيجر من حوض بحيرة شاد

ثم شاهدوا الجبل المعروف باسم باجله وفي جانبهِ اثنا عشر قرية متعلقة بهِ تخالها اطفالًا اضطجعوا على حضن امهم وقد عظم هذا المنظر جمالًا لاشراف

السواح عليهِ من العلو وكانت الخنادق تتراءى لهم مغطـاة بالزروع المتنوعة الالوان

وعند الساعة الثالثة بعد الظهر قابلت المنصورة جبل منديف وبما انه لم يتمكن العلاَّمة من الحيد عنهُ قد اخذ يهتم في مجازه فرفع حرارة القصبـة الى مائة وثمانين درجة واذا بالقبـة علت عن الارض اكثر من ثمانية الاف قدم وهذه كانت اعلى طبقة وصل اليها السواح في رحلتهم الجوية . فعندها اعتراهم البرد واضطروا الى ان يلتحفوا باغطيتهم خشية من المضرة ولكن لم يستقروا برهةً هناك الَّا اخذوا بالنزول الى الارض بواسطة تخفيف حرارة القصبة وقد كادت تتمزَّق القبة لشدة تمددها وانتفاخها واستطاع مع ذلك العلامة ان يحقق كون اصل ذلك الجبل جبلًا ناريًا امست فوهاته المطفئة لججًا قعيرة جدًا

وفي الساعة الخامسة لطت المنصورة من ريح الجنوب فنزلت في منحدر الجبل نزول الهوينـاء ثم وقفت في بقعةٍ خالية من كل شجر بوسط غابٍ وليس فيهـا ساكن اصلًا ولما مست الارض مكنهـا يوسف لئلا تفلت هاربة وقفز ديك من المركبة وبارودته في يده وعدا في ذاك الفضاء المنحني ثم عاد سريعًا بغنيمة وافرة من البط وجنس من دجاج الغاب فهياها يوسف للطعام فاكلوا وشربوا بلذة وانشراح ورقدوا بسكون واطمئنان تامين

الفصل الثامن والعشرون

في مدينة مصفية ومجود احد المشائخ للقبة الهوائية والكلام عن السواح دغام وكلابرتون وودني وفوجل وما كان من الحمام الشاطلة مارًا المرسلة من والي قرناق

ولما كان الغد وهو الحادي عشر من شهر ايار سارت المنصورة بمهب الريح وكان السواح يثقون بها ثقة النوتية بالسفينة المتينة

ولم تكن ثقتهم بها خالية من الدعم اذ انهم كانوا قد ساروا مسافةً عظيمةً ونجوا من كل ما من شأنهِ ان يورطهم في لجج الاخطار والمهالك كالرمض والزوابع والمنازل والمطالع ويسوغ القول ان العلّامة كان يقيدها كيفما شاء وكأنهُ بمجرّد الاشارة . ومع انهُ لم يكن عارفًا ما هي البلدة التي تنتهي فيها رحلتهُ لم يخشَ بتةً سوء العاقبة غير انهُ كان مشددًا حرصهُ وحذرهُ من الوقوع بايدي الاقوام البرابرة المتعصبين الحالين في تلك البلاد ويوعز الى رفيقيه ان يترقبا دوامًا كل طارق

ثم اخذت الريح تدفعهم قليلًا نحو الشمال ولما صارت الساعة التاسعة نصروا عن بعدٍ بمدينة مصفية الكبيرة المبنية على اكمةٍ مرتفعة بين جبلين شامخين في العلو وهي في مركز حصين جدًا اذ لا يُستطاع الدخول اليها الّا من طريق ضيقة وقعت بين غاب وغدير

وفيما كانت المنصورة مارة فوق المدينة شاهد السواح شيخًا مصحوبًا بقوم خيالة وهو متسربل بثياب ذات الوان باهرة وامامهُ مسوقون وقوم سُرعان يزيحون الاغصان لئلا تعيق مسيره في الطريق

فنزل العلامة قليلًا ليتأمل هؤلاء الاقوام عن قرب ولكن كلما دنت منهم القبة الهوائية لاحت على وجوههم امارات الدهشة والهلع ولم تمضِ برهةً

الّا اخذوا في العدو على قدر خفة خيلهم

اما الشيخ فلبث وحدهُ منتصباً قائماً ولم يتحرك من مكانهِ ثم اخذ قرابينتهُ وادخرها وجعل ينتظر متقطرساً فدنا منهُ فرغوسن الى نحو مائة وخمسين قدماً وقرأه السلام بالعربية

فعند ما سمع الشيخ هذا السلام السموي خرَّ ساجداً على الحضيض ولم يستطع العلامة ان يلهيهُ عن السجود

فقال العلاَّمة : انهُ لمن المستحيل ان لا يعتبرنا هؤلاء الاقوام بمنزلة خلائق فائقة الطبيعة حيث ان الافرنج الاولين الذين قدموا على هذه البلاد قد حسبوا من نسل فائق الطبيعة البشرية واذا ما حدّث الشيخ الساجد لنا قومهُ وخلانه عن هذه الصدفة الغريبة فلن يقصر عن تعظيمها وزخرفتها وتجود لهُ القريحة العربية بتصوراتها المدهشة وهكذا يأتي يوم تحكى فيهِ الحكايات الغريبة عنا على اساليب شتى

قال الصياد : هذا مما لا يسر الخاطر لاننا اذا رغبنا في تمدن هؤلاء الاقوام فالاجدر بنا ان نعتبر عندهم اناساً وهذا من شأنهِ ان يجعلهم يخالون حسناً ماهية قوة التمدن الاوربي

قال فرغوسن : سلمت معك في هذه القضية ولكن ما هي حيلتنا في ذلك فانك تتعب باطلاً اذا اردت ان تشرح لعلماء هذه البلاد عن آلات القباب الطيارة فلا يدركون كلامك ويصرون على زعمهم ان ما رأوهُ فائق الطبيعة

فقال يوسف : سيدي قد اشرت الى الافرنج الاولين الذين قدموا على هذه البلاد فهل تتكرَّم علينا بذكر اسمائهم

قال فرغوسن : اعلم يا صديقي اننا سائرون الان في الطريق التي سلكها

الضابط دنهام وقد اقتبلهُ سلطان مندارا في نفس مصفية فكان باين مملكة البرنو ولحق يغزو بشيخ على قبيلة الفلاحين وحضر هنالك محاصرة المدينة فلم تنفع بواريد الشيخ اصلًا بل تبدد هو وجنوده بقسي الفلاحين فانتهز هؤلاء فرصة النصر ليستلوا سيف الانتقام وخرجوا يقتلون اعداءهم وينتهبونهم ويسلبون اموالهم وقد جردوا الضابط دنهام من اثوابهِ ولو لم يختفِ تحت بطن حصانهِ ويعدو به عدو خيل السباق لما رجع اصلًا الى مدينة كوكا عاصمة البرنو

قال يوسف: ومن ترى كان الضابط دنهام

قال فرغوسن: كان انكليزيًا ذا شجاعة وبسالة وقد جلب معهُ فرقة وطاف الافريقية من سنة ١٨٢٢ الى سنة ١٨٢٤ قاصدًا مملكة البرنو وذلك بعية القبطان كلابرتون والعلامة أُودني فرحلوا من طرابلس الغرب في شهر اذار ووصلوا الى مورزوق قاعدة فزّان وساروا في الطريق التي سلكها فيما بعد المعلم برث عند ما قصد الرجوع الى اوربا ثم وصلوا الى كوكا بالقرب من بحيرة شاد في ١٦ شباط سنة ١٨٢٣. وقد اكتشف دنهامُ اشياء كثيرة في مملكتي البرنو ومندارا وعلى شطوط البحيرة الشمالية وفي غصون ذلك اي في اليوم الخامس عشر من شهر كانون الاول سنة ١٨٢٣ تقدم القبطان كلابرتون والعلامة أُودني الى داخل السودان حتى بلغا صقاتو وقضى أُودني نحبهُ في مدينة مُرمُر وهو عيان من التعب والضناكة

قال ديك: فقد ادّت اذًا هذه البلاد الى العلم خراجًا جزيلًا بالضحايا النفيسة التي ضُحت فيها

قال فرغوسن: نعم يا خليلي فان هذه البلاد بلاد سوء والشؤم حالٌ فيها فها اننا سائرون الان بخطٍ مستقيمٍ الى مملكة برغيمي التي قطعها فوجل سنة ١٨٥٦

قصد الدخول في مملكة واداي وهناك اختفى ولم يُعرَف لهُ اثر وقد أُرسل ذاك الشاب البالغ من العمر ثلاثة وعشرين سنة فقط ليساعد العلاَّمة برث في اشغالهِ وقد تلاقيا معاً في الواحد من شهر كانون الاول سنة ١٨٥٤ ثم طفق فوجل يستقرئ عن تلك البلاد وفي سنة ١٨٥٦ ارسل كتباً وذكر فيها رغبتهُ في الدخول الى مملكة واداي والبحث عنها حيث لم تدسها بعد قدم افرنجية فالظاهر انه بلغ وارة عاصمة واداي . فمن الناس من قال عنهُ انه أُسر هناك ومنهم من قال انهُ قتل اذ حاول الصعود الى جبل مقـدس . غير انه لايسوغ ان يسلم حالاً في موت المسافرين لان هذا يصد عن طلبهم فكثيرًا ما شاعت الاخبار الرسمية عن وفاة العلامة برث فسببت لهُ هذه الاشاعات حنقاً وغضباً . فمن الممكن اذاً ان يكون فوجل أُسر عند سلطان واداي طمعاً في فديتهِ . فعزم البارون دي نيغنس على الذهاب الى واداي ففاجئتهُ المنيـة في القاهرة سنة ١٨٥٥ واما الان فتوجهت جوقة سواح من ليبسيك ومعهم العلامة دي هكلين وقصدوا وجود اثر لفوجل وعن قريب يتضح لنا ما كان نصيب ذاك الشاب الشجيع(١)

ثم توارت مصفية عن ابصـارهم وظهرت لهم بلاد منداراً الجزيلة الخصب والريعان ومنها غابات الأَقاقيـا والماش ذات الزهور الحمراء ونباتات القطن والنيل . وهناك تجري مياه نهر شاري المزبدة وهو لا يصب الَّا في بحيرة شاد عن بعد ثمانين ميلاً من ذلك المكان

فاخذ العلامة يدل رفيقيهِ على ذلك النهر في الخارطات الجغرافية المرسومة من المعلم برث

---

(١) من بعد ان تمت رحلة العلامة فرعوسن وردت الرسائل من العيدية وهي موجهة من معسكر رئيس الجوقة الجديد ومنها اتضح الخبر المشؤم بمبارحة فوجل هذه الدنيا

وقال لها: رايتما يا خليليَّ ان ابحاث هذا العالم الحاذق هي في غاية الدقة والضبط لاننا نسير بخط مستقيم الى اقليم لغوم وربما الى قرناق عاصمتهُ وهناك كان نياح احد الانكليزيين المدعو تول وهو بالغ من العمر نحو اثنتي وعشرين سنة فقرا. وهذا كان قد لحق بالضابط دنهام في افريقية منذ بضع اسابيع فما لبث ان صادف فيها المنية . فتعساً وويلاً لهذه البلاد المشؤمة فانه يحق يقال عنها انها مدفن الافرنج

فشاهد السواح بعض القوارب نازلة في مجرى نهر شاري وهي تبلغ من الطول نحو خمسين قدماً واذ كانت المنصورة عالية عن الارض بنحو الف قدم لم تجذب اليها انتباه السودان. اما الريح فبعد ان كانت شديدة المهب اخذت

فقال العلامة: وهل ترى يصيبنا الرواق كما في سابق الزمان

قال يوسف: لا بأس من ذلك اذ لا عدنا نخشى بعونهِ تعالى لا قلة الماء ولا محول الصحراء

قال العلامة: علينا ان نخشى اقواماً برابرة فاقوا قساوة وفظاظة

قال يوسف: هوذا شبه مدينة

قال العلامة: انما هي مدينة قرناق وارى ان النسيم يدفعنا اليها فاذا شئنا رسمنا هيئتها ووصولها

قال ديك: وهلاً نقترب من الارض

قال العلامة: هذا امرٌ سهل لاننا نحن فوق المدينة دعني ابرم قليلاً لولب القصبة فلا نلبث ان نأخذ بالنزول

فعب مرور نصف ساعة وقفت المنصورة فوق المدينة بعلو مائتي قدم

قال العلامة: اننا اقرب الى المدينة من انسان واقف على قبة كنيسة

القديس بولس ومتفرّج منها على مدينة لندرة يمكنا اذاً التطلع على خاطرنا

قال ديك: اني اسمع صوت مطارق فما عساها تكون

فجعل يوسف يحدج ببصره ويشدد نظرهُ فرأى ان تلك الضجــة صادرة من الحياكين الكثيرين الذين يطرقون نسيجهم الممدود في ارواط طويلة وذلك في وسط الساحات

فرأوا عاصمة لغوم كانها على سطح منبسط ويحق لهـا اسم مدينــة لان بيوتهـا متساوية الصفوف وطرقها عريضة وكان سوق العبيد قائماً في ساحةٍ فسيحة وسط المدينة وهناك مشترون كثيرون لان العبدات المنداريات ترغب كثيراً وتُباع بقيمة وافية

فعند ما بصروا بالمنصورة اصابهم ما اصاب غيرهم قبلًا اذ انهم شرعوا اولًا بالصجيج ثم اتبع ذلك الضجيج سكوت الدهشــة العظيمة وتركت الاشغال ووقفت وزال صوت المطارق اما السواح فما برحوا واقفين لا يتحركون وهم يتأملون اولئك الاقوام الكثيرين ثم نزلوا ايضاً نحو ستين قدماً

فخرج حينئذٍ والي بلاد لغوم من مقرّه وهو حامل رايتهُ الخضراء ومعــهُ اصحاب الموسيقى الذين كانوا يضربون في ابواق من قرون الجاموس ذات صوت أبح ثم احاق بهِ قومهُ وحاول العلاّمة ان يسمعهم صوته فلم يطق ذلك

وكان لذلك الشعب جبهة عالية وشعر متجعــد وانف أقنى وهم متصفون بالعجرفة ولا يخلون من الذكاء والفطنة ولكنهم مضطربون لظهور المنصورة . ثم تحقق السواح ان جنود الوالي اخذوا في الاحتشاد والتــأهب لمحاربة عدوّ لم يسبق لهُ مثيل اذ شاهدوا الخيالة يتسابقون في الخيل ويعدون الى انحاء شتى فنشر يوسف الرايات المشكلة الالوان فلم يحظَ بنتيجة البتة

ثم مضت فترة وطلب الشيخ الى قومهِ ان يصغوا لهُ فخطب خطبة بالعربية

المزوجة بلغة البغيرمي فلم يفهم العلامة ولا كلمة واحدة لكنهُ علم بلغة الوماء العمومية ان الوالي يدعوه للذهاب دعاء صريحًا . فودَّ العلامة الذهاب ولكن لم توافقهُ الريح ولم يستطع لحراك من مكانهِ فاغتـاظ الوالي من هذا الرسوخ واخذ زعماؤهُ ورجالهُ يعزّون ويضجون ليحملوا الوحش الجوي على الانطلاق

في الحقيقة كان هؤلاء الزعماء مما يوجب الاستغراب والاعجاب فانهم متدثرون على جسدهم بخمسـة او ستة قمصان ملونة وبطونهم بليغة كبرًا انتفاخًا وبعضها ترى كانها مصنعة ومحض حشوٍ . فقال العلامة لرفيقهِ ان هذه الهيئة واسطة عندهم لمراضاة السلطان والدخول في خاطره ودوار البطن ممـا يدل عندهم على الطمع . فكان هؤلاء الناس الضخام يتحركون ويومون بالايدي ويصرخون ويضجون وخصوصًا واحد منهم كان ضخمًا جدًا فظن بهِ انهُ وزير اول في تلك الولاية لان الضخامة كما قيل لها اعتبار عظيم في تلك الديار

وكان العبيـد السود ايضًا يضجون مع ارباب الحكومة ويتحركون كالسعادين وبالجملة كنت ترى نحوًا من عشرة الاف ذراعًا مرتفعـة ومتحركة باضطراب الجنون

فلما رأوا ان حركاتهم لم تجدِ نفعًا بل ذهبت هدرًا وعدوهم راسخ لا يتأثر منها جعلوا يتمسكون بوسائط افعل فاصطف الجنود المتسلحون بالقوس والنشاب قاصدين رشق القبة بالسهام الّا ان المنصورة اخذت حالًا بالارتفاع لئلَّا يصيبها ضرٌّ من القسي فاخذ الوالي حينئذٍ قرابينة ووجهها نحو القبة الهوائية فلما رآهُ ديك مستعدًّا لاطلاقها وهو اذ ذاك يرصدهُ رماه برصاصةٍ فكسر السلاح بين يديه

فعند هذه الضربة الغير المنتظرة اضطرب الكبار والصغـار وتفرقوا طرائق وولوا الادبار هلعًا ووجلًا ودخل كلٌّ كوخه فمضى النهار باسره ولم يظهر احدٌ

منهم البتة بل اصبحت المدينة خاوية خالية كالصحراء

ثم جن الظلام فدخل الليل ولم تهب الريح مطلقاً فاضطر العلامة الى ان يلبث قائماً بلا حركة فوق الارض بعلو ثلاثمائة قدم ولم يرَ نوراً يضيء ظلام الاكواخ والبيوت بل كان السكوت المطلق مستولياً على المدينة كأنها بادية مقفرة فخمن العلامة من هذه النصبة فخاخاً يجب التحذر منهُ فضاعف انتباههُ وسهرهُ .

وقد اصاب حق الاصابة في حدسهِ وسهره لانه ما انتصف الليل الّا ظهرت المدينة كأنها شعلة متأججة ناراً واخذت الخطوط النارية تتصلب كالشبكة وكأنك بالمدينة قد لبست حلة النار وتشبعت شعتها في الافاق

فقال العلامة : هوذا امرٌ غريب فيهِ العجب العجاب

قال ديك : سامحني الله فكأني ارى الحريق يتصاعد الينا

وفي الحقيقة كانت تلك الحلة الملتهبة والمتأججة ناراً ترتفع نحو المنصورة والاصوات المضجة مرتفعة معها والقرابينات تطلق في الجوّ فتأهب يوسف لان يلقي ثقلًا رغبة في الارتفاع وما مضت برهة الّا فهم فرغوسن واقعة الحال

فان هؤلاء الاقوام كانوا قد ارسلوا حماماً بعد ان علقوا في اذنابها مواداً مشتعلة فلما احست بالنار اخذت تطير هرباً منها وارتفعت في الجوّ وهي تخط تلك الشعاب السارية . فجعل ديك يطلق الرصاص على قدرمكنتهِ ولكن اعداوهُ كثيرون لا يحصون عدداً فكانت الحمام قد بلغت القبة واحاقت بها فشوهدت جوانب المنصورة كأنها في شبكة ملتهبة من جرا سطوع النور عليها

فما تماسك فرغوسن ان رمى قطعة معدنية ثقيلة وارتفع حالًا بسرعة فوق تلك الطيور الخطرة وقد حامت الحمام تحت اقدامهم نحو ساعتين من الزمان وهي

طائرة الى انحاء مختلفـــة . ثم اخذت تخف وتتقص رويداً رويداً الى ان توارت عن البصر بالكلية وانطفت نارها

فقال العلامة : الان يمكنا الرقاد براحة

قال يوسف : ان هذا الفكر مدهش ويدل على حذق عند هؤلاء البرابرة

قال العلامة : ان كثيراً ما يستعملون الحمام لاحرق القش المغطـاة به كواخ القرى واما قرينتنا فطارت وعلت عن حمامهم

قال ديك : حقاً ليس للقباب الطيارة اعداء يتمكنون من مضرة اصحابهـا

قال العلامة : بلى يا صديقي

قال ديك : ومن عساهم يكونون

قال العلامة : انما هم اصحابها القليلوا الفطنـــة الذين يركبونها ولهذا احثكما يا خليليّ على التيقظ والفطنة فان الفطنة لا بد منها في كل امر

الفصل التاسع والعشرون

في الارتحال في الليل والكلام عن صحراء التاري وبحيرة شاد ومائها وفرس النهر واطلاق الرصاصة عليه عبثاً

ولما كانت الساعة الثالثة بعد نصف الليل ويوسف اذ ذاك قائم في حراسة ربعهِ رأى المدينة آخذة في الابتعاد عنهُ وسارت المنصورة في الجوّ واستيقظ حينئذٍ العلامة والصياد معاً

فتطلع فرغوسن في البوصلة وعرف ان الريح تدفعهُ الى شمال الجهة الشرقية فطاب منهُ الخاطر

فقال: ان نجم سعدنا مقبل معنا وقد نجحنا في كل مسعى وسنكتشف اليوم بحيرة شاد نفسها

فسأل ديك قائلاً: وهل هذه البحيرة فسيحة كثيراً

قال فرغوسن: انها عظيمة جداً يا صديقي ديك واذا قيست في طولها وعرضها الاكبرين بلغت مائة وعشرين ميلاً

قال ديك: لنا نغير المنظر بسيرنا فوق بساط مائع

قال فرغوسن: ناهيك بالمناظر والمشاهد الكثيرة التي تراءت لاعيننا في رحلتنا هذه فليس لنا باعث للتشكي وعلى الخصوص من حيث اننا تنزهنا عن المخاطر الجسيمة

قال ديك: نعم يا سيدي صموئيل ما خلا افتقارنا من الماء في قلب الصحراء فلولاهُ لما عددنا واقعة واحدة مخطرة في رحلتنا كلها

قال فرغوسن: ان منصورتنا عافاها الله حافظت على متانتها ولم يطرأ عليها طارئ فها نحن الان في اليوم الثاني عشر من شهر ايار وقد رحلنا في اليوم الثامن عشر من شهر نيسان فنكون قد مشينا خمسة وعشرين يوماً وان

شاء المولى سنصل بعد عشرة ايام

قال ديك : والى اين الوصول

قال فرغوسن : الى حيثما شاء ربك ولكن هذا لا يهمنا كثيراً

قال الصياد : اصبت فلندع العناية الربانية تبلغنا الى حيث شاءت معافين صحيحين كما نحن الان . لعمري لايبين علينا اننا جزنا البلاد الاكثر وباء من العالم

قال فرغوسن : ولكن كان في استطاعتنا ان نرتفع الى العلو لننجو من وبائها وهذا ما عملناهُ

فصاح يوسف وقال : حيّ الله الاسفار الجوية فها اننا سرنا في هذه الرحلة مدة خمسة وعشرين يوماً ونحن في صحة تامة وراحة وانشراح ولم يخلُ من الاطعمة الطيبة غير اننا جزنا راحةً زائدة الحد ولذا احسُّ ان ساقيَّ آخذتا في التخدر لقلة الحركة وحبذا لو مشيت مسافة ثلاثين ميلاً لانتعش واتقوّى

قال العلامة : مهلاً ستفعل ذلك في ازقة لندرة . ثم اعلما ياصديقيَّ اننا سافرنا ثلاثة كما سافر دنهام وكلابرتون واوفرويك وكما سافر ايضاً برث وريشردسون وفوجل واما نحن فلنا حظ وسعد لعظم اذ لم يفترق منا احد ويهمني ان نبقى ثلاثتنا سوية فلو لا سمح الله بذلك حدث مرة ان واحداً منا يكون على الارض واضطرت المنصورة الى الارتفاع تحرصاً من خطرٍ فجائي غير منتظر فمن يعلم ان كنا نتمكن من الاجتماع عليهِ ولهذا اقول لديك بحرية تامة اني لا اود كثيرًا في ان ينطلق الى الصيد خوفاً من مثل تلك الرزيئة

قال ديك : ولكن اؤمل ان تسمح لي بذلك لانهُ ينفعنا لتجديد زاد اللحم فضلاً عن انك قبل ان نسافر قلت لي ان البلاد الافريقية بلاد صيدٍ

وفيها من كل ما يروق للخاطر وها قد جزنا اكثر الطريق ولم اصطد شيئاً ذات اهمية

فقال العلامة: الظاهر يا صاح انك نسيت ما فعلت او بالاحرى لا يدعك اتضاعك ان تفتكر بما اتيت من الافعال المستحقة الذكر الجميل أليست خمتك مثقلة ببرقيل وفيل واسدين فضلاً عما كنت تصطاده للطعام في كل فرصة ولم يكن قليلاً .

قال ديك: وهل يُحسب هذا للصياد الافريقي الذي يرى حيوانات الخليقة كلها تمر امامهُ مرور الطير والعصفور في بلادنا

وهاك الآن سربة من الزرافي

قال يوسف: أَظن ان هذه ظرافي فاني اراها صغيرة لا تزيد حجماً عن قبضة الكف

قال العلامة: ليس ذلك إلّا لانا نبعد عنها للف ميل واما اذا دنوت منها شاهدتها تطاولك ثلاث مرار

قال ديك: وما قولك عن هذه الغزلان وتلك النعائم التي تجري جري الرياح

قال يوسف: وكيف تقول انها نعائم فاني لا اميزها قطعاً عن الدجاج اذ لا فرق بينها اصلاً

قال ديك: ألا يمكنا الاقتراب يا سيدي صموئيل

قال العلامة: نعم يمكننا الاقتراب ولكن لانستطيع النزول الى الارض فوالحالة هذه لا أرى لك نفعاً باطلاق الرصاص على هذه الحيوانات فلو اردت قتل سبع ام نمر ام ضبعة لكان ذلك محتملاً فانها من الحيوانات المضرة واما البرنيق والغزال فليس لك نفع من ذبحها انما يغريك على ذلك حبك بالصيد

بل فرط تولعك فيهِ ومع هذا فها انّا ندنو من الارض حتى لا نعلوها الّا بعلو مائة قدم فاذا صادفت حيواناً كاسراً رميتهُ برصاصةٍ في قلبهِ فيقرّ منك الخاطر

ثم اخذت المنصورة في النزول رويداً رويداً رويداً ووقفت في العلو الموماً اليـهِ لئلا تدهمها داهية لان اهل تلك البلاد كثيرون ومتوحشون ويُخشى على المسافرين من خطرٍ فجائي

وما انفكّ السواح طائرين فوق مجرى نهر شاري وسواحل هذا النهر مغطاة بفيء الاشجار المتفننة الاجناس ونباتات كثيرة ذات الوانٍ متنوعة . والتماسيح فنها ما تختبط على الرمل ومنها ما تغطس في المياه بنزقٍ وتتنزه فيها وتتناهز بعد قليل شط الجزائر الخضراء القاطعة جريان النهر

وهكذا مرّ السواح بمقاطعة مفـاتاي بين الخضار والنضارة الطبيعيـة وعند الساعة التاسعة صباحاً وصلوا الى شط بحيرة شاد الجنوبي وهذه البحيرة تشبه بحر قاف لانحصارها في اليابسة وانفصالها عن البحر المحيط وطالما قد أُدخل ذكرها في سلك الخرافات والحكايات التي لا اصل لها ولم يكتشف عليها سوى دنهـام وبرث في رحلاتهما الافريقية

فحاول العلامة ان ياخذ رسمها الحالي المختلف كثيراً من رسمها المأخوذ سنـة ١٨٤٧ وفي الحقيقة لا يمكن تسطير هيئة تلك البحيرة فانها محاطة ببطاح موحلة يشق عبرها وكاد برث يهلك فيها عند ما اراد ان يقطع احداها ولا تمضي سنـة على سنةٍ حتى تصبح تلك البطاح المغطاة بالقصب ونبات البرديّ الطويل قسماً من البحيرة نفسها وكثيراً ما تعم المياه بعضاً من البلاد المبنية على ساحل البحيرة كما جرى في مدينة نغرنو سنة ١٨٥٦ فشاهدوا البرانق اي خنازير الماء تغطس في المكان الذي قامت فيهِ قبلًا مساكن مملكة البرنو

وكانت الشمس ساكبة اشعتها المنيرة على تلك المياه الصافية الهادية اما

في الجهة الشمالية فيرى العنصران مختلطين في افقٍ واحدٍ

فرغب فرغوسن في ان يحقق طبيعة الماء الذي طالما قيل عنهُ انهُ مالحٌ وحيث ليس خطر في الدنو من سطحهِ رفرفت المنصورة فوقهُ كالطير وعلت عن البحيرة نحو خمسة اقدام فقط

ثم تناول يوسف انية ودلاَّها الى البحيرة فملأَ نصفها ماء ثم ذاقهُ العلامة فرأى انهُ لا يصلح كثيرًا للشرب ولهُ طعم يشبه طعمة النطرون

ففيما كان فرغوسن يسطر نتيجة اختباراتهِ وامتحاناتهِ قد دوت في الافاق طلقة الرصاص فان ديكًا كان قد شاهد برنيقًا جسيمًا فلم يطق اصطبارًا وكان البرنيق في رواق تام فلما احس بدويّ الرصاص ضرب في الماء وكأنهُ لم يضطرب من رصاصة الصياد

قال يوسف: كان الاوفق لو مسكناه بخطافٍ

قال ديك: وما هو خطافنا

قال يوسف: انما هو احدى مراسينا فانها كثيرة الموافقة لهذا الحيوان

قال ديك: في الحقيقة هذا رأيٌ . . . .

قال فرغوسن: هذا رايٌ ارجو ان لا تنفذوهُ لاننا لو مسكنا هذا الحيوان بمرساتنا لجرنا حيث لا يروق خاطرنا

قال يوسف: ما لنا ولهُ فاننا علمنا الان كنه ماء البحيرة وكفى . ولكن هل يوكل هذا السمك يا سيدي

قال العلامة: ان سمكك هو حيوان من جنس الفيلة وقد قيل ان لحمهُ لذيذ ويتاجر بهِ كثيرًا سكان سواحل هذه البحيرة

قال يوسف: آه لو اصاب صاحبي ديك في ضربتهِ

قال العلامة: لا يمكن جرح هذا الحيوان الاَّ في بطنهِ وبين افخاذهِ فربما لم

تجرحهُ قط رصاصة الصياد ولكن اذا وافقني المكان فاني احطُّ على جهة البحيرة الشمالية فهناك منزل الوحوش وعلى ديك ان يفعل ما يشاءُ خاطرهُ

قال يوسف: اودُّ ان يصطاد ديك بعضاً من هذه البراق لاذوق لحمها فانهُ ليس من الصواب ان يدخل الانسان قلب افريقيـة ويعيش فيها مقتاتاً بلحم دجاج الغاب واحجال البرية كما في بلاد الانكليز

الفصل الثلثون

في عاصمة البرنو وظهور البواشق ومنازعتها المنصورة وما اظهر يوسف من الغيرة الخالصة عند انخراق غطاء القبة

وعند وصول المنصورة الى بحيرة شاد صادفت مهبًا مائلًا الى الجهة الغربية وقد تجلببت السماء بغيم خفف حرارة النهار ولم تخلُ الريح من الهبوب فوق تلك المسافة الفسيحة المائية وعند الساعة الواحدة قطعت المنصورة قسمًا من البحيرة بخطٍ منحرف وتقدمت الى فوق الارض بمسافة سبعة او ثمانية اميال

فساء العلامة اتجاههُ نحو تلك الناحية ولكن لما شاهد مدينة كوكا الشهيرة وهي عاصمة مملكة البرنو قلب كدره الى سرور فاخذ ينظر الى تلك المدينة المحاطة بجدرانٍ من تراب الفخار وبيوتها المبنية على شكل زهر اللعب وجوامعها القليلة الاتقان واشجار النخل والصمغ المكللة بظلٍ من الاوراق البالغة عرضًا اكثر من مئة قدم والنابتة بين البيوت وفي الساحات العمومية . فقال يوسف : ان تلك المظال مناسبة جدًا لتلك المحال نظرًا لاشتداد حرارة الشمس فيها ولخص من ذلك نتائج تشير الى حسن العناية الالهية

وكوكا مؤلفة من مدينتين ممتازتين الواحدة عن الاخرى وتفرقها طريق واسعة جدًا يبلغ عرضها نحو خمسمائة وثمانين مترًا وتعرف عندهم بالدندال وكانت وقتئذٍ غاصة بالخيالة والمشاة

فمن الجهة الواحدة ترى المدينة غنية ذات دور مرتفعة ومن الجهة الثانية ترى الفقر حالًا فيها وبيوتها لا تمتاز عن الاكواخ الحقيرة وسكانها فقراء جدًا لان كوكا ليست بمدينة تجارية ولا صناعية

وقد شبهها ديك بمدينة ادمبرج اذا امتدت في سهلة واسعة وانقسمت الى مدينتين متفرقتين الواحدة عن الاخرى

ولما كانت مهبات الرياح في تلك الناحية متقلبة جداً قد هبت ريح فجائية دفعت المنصورة الى ما فوق بحيرة شاد بعد ان سارت اربعين ميلاً فبالكاد تمكن السواح من مشاهدة تلك المناظر

فتراءى لهم حينئذٍ مشهد جديد وهو جزائر البحيرة الكثيرة التي يسكنها البيديوماه وهم قرصان مشهورون يخشى منهم في تلك النواحي كما يخاف من التوارج في الصحراء

فتأهب هؤلاء القرصان لاستقبال المنصورة بالقسي والحجارة. اما المنصورة فارتفعت عن تلك الجزائر وحامت فوقها كجعلٍ عظيم

ففي تلك الساعة ارشق يوسف نظره الى جهة الافق ثم قال الى ديك: سيدي ديك انت الذي تهجس بالصيد ليلاً ونهاراً هوذا ما يجب خاطرك ويقضي وطرك

قال ديك: وما هو يا يوسف

قال يوسف: اظن ان سيدي لا يكون هذه الدفعة من الخالفين لك في ضرب الرصاص

قال ديك: احلك اذاً وما هو

قال يوسف: أرى في تلك الناحية البعيدة فرقة الطيور الجسيمة المتجهة نحونا

فمسك العلامة منظرتهُ وقال: ما عساها تكون هذه الطيور

قال ديك: بصرتها بصرتها فانها تبلغ اقلما يكون الاثني عشر

قال يوسف: اظنها بالغةً اربعة عشر

قال ديك: أسأل المولى ان تكون هذه الطيور من المؤذيات لئلا يجد فرغوسن حجةً عليَّ ويمنعني عن ضربها بالرصاص

قال فرغوسن : ليس لي اذ ذاك كلام اقوله لك انما اتمنى ان هذه الطيور تبتعد عنا بالكلية

قال يوسف : وهل تخاف منها

قال العلامة : انها بواشق من الجنس الكبير واذا وثبت علينا . . . . .

قال يوسف : فاننا ندافع عن انفسنا لان الرصاص والبارود عندنا كثير جدًا ولا اظن تلك البواشق مخيفة جدًا

قال العلامة : ومن يعلم بذلك

فما مضت عشر دقائق الّا اقتربت الفرقة من المنصورة عن بعد مسافة طلقة رصاص لكنها كانت تضج وتعرّ بصوتٍ أجشّ ولا زالت تتقدم نحو المنصورة كأنها مغتاظة منها ولم يعترِها ادنى وجل ولا هلع

قال يوسف : ما هذا الصراخ والضجيج ارى انه يسوءها تسلطنا على املاكها وطيراننا نظيرها

قال ديك : في الحقيقة ان هيئتها مرعبة جدًا واظن انها كانت ترمي الهول لو تسلحت بالقرابينة التي اخترعها يوردي مور

قال العلامة : كن على يقين انها ليست باحتياجٍ الى تلك القرابينة

فاخذت البواشق تطير وترسم في طيرانها دوائر متسعة جدًا ثم حامت بالقرب من المنصورة وكانت تخط السماء بسرعة طيرانها وتندفع اندفاع قلل المدافع وترجع الى الوراء رجوعًا بغتيًا

فشمل قلب فرغوسن القلق والاضطراب من هذه الطيور ولذا عزم على الارتفاع في الجو هربًا من جوارحهم المملوخطرًا

اما البواشق فلم يطب لخاطرها ان تترك القبة الهوائية بل اتبعت اثرها الى الاعالي

فاذخر الصياد سلاحهُ وقال: أرى انها تودُّ مناظرتنا

وفي الحقيقة كانت تقترب من السواح فنها ما دنا نحو خمسين قدماً وكأنها تستخفُّ باسلحة الصياد

فقال ديك: اني ارغب كثيرًا في ان اضربها بالرصاص

قال العلامة: كلا يا ديك لا تورثنَّ نار غضبها وهيجانها بلا سببٍ فاننا نحثها بالرصاص على مناظرتنا والوثوب علينا

قال ديك: ولكنني لا اخطئ في ضربي الرصاص

قال العلامة: أظن ذلك يا ديك فانك في خطاء مبين

قال ديك: عندنا لكلٍ منها اكثر من رصاصةٍ

قال العلامة: واذا لا سمح الله وثبت على جهة القبة العلياء فكيف يبلغ اليها رصاصك فأحسب انك امام فرقة من الاسود في البادية او بعقابلة كلاب بحرية في قلب المحيط فان مثل ذاك الخطر يضاهي خطرنا في الجو

قال ديك: أتتكلم بجدٍ

قال: نعم يا ديك وبجدٍ جادّ

قال ديك: ولحالة هذه فلننتظرنَّ برهةً

قال العلامة: انتظر برهةً وكن على اهبةٍ اذا وثبت علينا ولكن اياك ان تطلق رصاصةً قبل ان ابلغك امري

ثم احتشدت الطيور بالقرب من المنصورة وكانت اذ ذاك مسلوخة الحنجرة من شدة صراخها وعرفها الغضروفي مرتفعٌ بتجوف وعليه علوات ذات لون بنفسجي ويبلغ طول جسمها اكثر من ثلاثة اقدام واجنحتها متلالئة من اسفل باشعة الشمس المضيئة ولها مشابهة عظيمة مع الكلاب البحرية

فلما شاهدها العلامة تحققهُ الى الاعالي قال: اني اراها تتبعنا ومهما

ارتفعنا الى شرفٍ فانها تعلونا كثيراً

قال ديك: فما الحيلة اذاً وما العمل

فلبث العلامة صامتاً وما تفوَّه بلفظةٍ

فاردف الصياد كلامهُ وقال: صخ لي سمعاً ياسيدي صموئيل فان هذه الطيور تبلغ الاربعة عشر ونحن عندنا سبع عشر طلقة رصاص فاذا ضربناها بها هلاَّ تظن اننا نذيقها كاس المنون ولك ان تعتمد عليَّ بجانب منها

قال العلامة: لا ريب عندي في حذقك ومهارتك واوكد لك ان الطيور التي تقع هدفاً لرصاصك تذهب فريسة الحمام ولكن اقول لك تكراراً انها اذا وثبت على دائرة القبة العلياء فكيف يصيبها رصاصك وسلاحك والحال تبعج هذا الغطاء الذي يحملنا فهوى في لجة عميقة لجة الهلاك اذ اننا بعيدون عن الارض مسافة ثلاثة الاف قدمٍ

وفي تلك الفترة دنا احد هؤلاء البواشق الاكثر توحشاً ووثب على المنصورة ومخالبهُ ومنقاره اذ ذاك مفتوحة متأهباً لان يبعج القماش الحريري

فقال العلامة: النار النار ياديك

فما فاه بهذا الكلام الّا أُصيب الباشق برصاصة الصياد وسقط وهو يدور في الجو

وقد كان الصياد اخذ البارودة ذات الطلقتين ومسك يوسف البارودة الثانية

فلما دوى صوت الرصاص شمل قلب الطيور الرعدة والهلع وتنحت قليلاً ثم عادت بعد برهةٍ وامارات الغضب لائحة على اطوارها فرمى ديك في الحال الطير القريب برصاصة اصابت عنقهُ وضرب يوسف طيراً ثانياً فكسر لهُ جناحيهِ

ثم قال: لم يبقَ منها سوى احدى عشر طيراً

ففي الساعة والحال غيرت الطيور فيها في مهاجمة السواح وارتفعت جميعها باتفــاقٍ واحدٍ الى ما فوق المنصورة فنظر ديك الى فرغوسن ورأى وجههُ قد علاهُ الاصفرار رغمًا عن حماستهِ وجرآءتهِ وقلة اكتراثهِ بطروق الحدثان واستولى على ثلاثتهم سكوتٌ عميق مشوبٌ بالاضطراب والهلع ثم سمعوا صوت تمزيق اشبه تمزيق القماش الحريري وفي الســاعة هبطت مركبة السواح وكادت تفلت من تحت اقدامهم وتطرحهم ما بين السماء والارض

فنظر فرغوسن الى البارومتر ورآهُ يرتفع ارتفاعًا هائلًا فصاح صارخًا : القوا الثقل حالًا . القوهُ

ففي رمشة عين توارت الحجارة المعدنية الباقية في المركبة

قال : لا زلنا نسقط ونهوي . . . افرغا صناديق المــاء ايضًا . . . ألا تسمع يا يوسف . . . ها اننا واقعون في البحيرة

فاذعن يوسف لامر سيدو ثم مال العلامة برأسهِ ورأى البحيرة كأنها اتية اليهِ وترتفع الى العلوّ وشاهد الاشياء قد تعظمت في عينيهِ ووصلت القبة الى مــافة مائتي قدم فوق سطح البحيرة

فصاح العلامة قائلًا : القيا الزاد ولا تتركا منهُ شيئًا

فرمى الرفيقان الزاد مع صندوقه .

فخفت سرعة السقوط ولكن ما برحوا ساقطين دائمًا وهم فوق البحيرة

فصاح العلامة صيحة اخيرة : ما بالكما لا ترميان ارميا ارميا

فقال ديك : ما بقي عندنا شيء

فقال يوسف بعجلة : بلى

قال هذا ورسم على ذاتهِ اشارة الصليب وغاب متواريًا عن المركبة الجوية

فصاح العلامة مرتاعًا : يوسف يوسف

فلم يستطع يوسف على سماعهِ . ولما خفَّ ثقل المركبة انكفت عن الهبوط وارتفعت الى الاعالي نحو الف قدم وتعبأَت الريح بغطاء القبة المخزوقة فدفعتها الى جهات البحيرة الشمالية

فقال الصياد ايساً : واسفاه عليهِ فانهُ وقع في لجة الهلاك وعدمناه

قال العلامة : اما هلاكه فكان لنجاتنا يا ديك

ثم اذرت عيون هذين الباسلين دمعة سخينة لفراق خليلهما واشرفا على الارض ليجدا لهُ اثرًا فما وجدا لانهما ابتعدا كثيرًا

فقال ديك : ما حيلتنا الآن وماذا ترى نستطيع ان نصنعهُ

قال العلامة : مرادي ان اخط في الارض باول فرصة تمكنني من ذلك

وبعد ان سلرت المنصورة مسافة ستين ميلًا نزلت في موضع قفرٍ في شمالي البحيرة وعُلقت المراسي في شجرة قليلة الارتفاع ثم حكمها الصياد تحكيمًا

فدخل الليل وحاول الرفيقان الرقاد فلم يقدرا على ذلك

࿇

الفصل الحادي والثلاثون

في ظنون السواح واصلاح موازنة القبة الهوائية وحساب العلامة
وصيد الصياد والاستقراء في بحيرة شاد

ولما كان غد اليوم الثالث عشر من شهر ايار عرف السواح الجهة التي حلاً فيها فكانت شبيهة بجزيرة قائمة في وسط بطحة عظيمة وحول هذه اليابسة قصب كبير كاشجار اوربا يمتد على مدى النظر

وكان مركز المنصورة امينًا لا يخشى عليها من خطرٍ لان البطحة صعبة الممر وما لزمهم ان ينتبهوا الى الجهة البحيرة فان الما كان آخذًا بالانبساط خصوصًا في الجهة الشرقية ولا يُرى امامهُ ارض ولا جزيرة البتة

ولم يكن الرفيقان قد تجاسرا بعدُ على المحادثة عن خليلهم يوسف البائس فافتتح الصياد الحديث عنهُ واخذ يبث تخميناتهِ لرفيقهِ

فقال: على ظني ان يوسف لم يذق كأس الحمام فانهُ شهم شجاع نبيه وعارف بفن السباحة بل قليل المثال بهِ ولما عبر خليج ادمبرج لم يظهر عليهِ ادنى ارتباك ولا شيء من الاضطراب ولابد من ان نعود نراهُ ولكن لا علم لي كيف ومتى يكون ذلك . امّا نحن فعلينا ان نبذل الجد والجهد ولا نهمل واسطة لنتمكنهُ من الاجتماع علينا

فقال العلامة بصوتٍ شجن: اجاب الله سؤالك يا ديك فاننا نفعل ما في وسعنا لنجدهُ فلنهتدِ اولًا على مركزنا ولكن قبل كل شيء يجب ان نقلع عن القبة هذا الغطاء الخارجي الذي ليس لهُ نفعٌ فان وزنهُ يبلغ مائة وثمانية ارطال فهذا لعمري ثقل جسيم نلقيهِ عنا

فابتدأ العلامة وديك بالعمل وفي اوّل الامر تكبدا صعوبة كلية لانهُ لزمهما ان يقلعا القماش الحريري الصلب قطعةً فقطعة وان يجزءاهُ شقفًا صغيرة ليخرجاهُ من بين خيطان الشبكة التي عليهِ وقد نظرا الى خرق الباشق في الغطاء فكان كبيرًا جدًّا

وقد استمرا في العمل نحو اربع ساعات ولكن لما تجردت القبة الداخلية من هذا الغطاء العظيم بانت غير ممسوسة وكانت وقتئذٍ المنصورة قد خفت من خمس ثقلها فتعجب ديك كل العجب من هذا الفرق الباهظ

فسأل رفيقهُ العلامة قائلًا: هل يمكن لهذه القبة الصغيرة ان ترفعنا الى الجو

قال العلامة: كن على طمانينة وراحة بال من هذا القبيل لاني اصلح الموازنة واذا عاودنا يوسف اخذناهُ معنا ورجعنا الى المسير في طريقنا حسب العادة

قال ديك: اظن يا سيدي صموئيل اننا لم نكن بعيدين عن جزيرةٍ وقت سقطتنا

قال العلامة: نعم وانا اذكر ذلك واظن ان هذه الجزيرة كسائر جزائر بحيرة تشاد يسكنها نسل قرصان وقتلة ولا بُدَّ انهم دروا بنكبتنا واذا وقع يوسف بين ايديهم فماذا عسى يحل فيهِ ان لم يخالجهم اعتقاد باطل يصدهم عن قتلهِ

قال ديك: اقول لك انهُ ماهرٌ في جميع الحرف وانا واثق جدًّا بفطنتهِ ولبابتهِ

قال العلامة: وانا ايضًا واثقٌ بهما واما الان يا ديك فاذهب واصطد لنا ما يكفي زادنا لانهُ قد فرغ من عندنا كل شي ولكن اياك ان تبعد كثيرًا

قال ديك: على رأسي فلا اطيل عليك الغيبة

فأخذ ديك البارودة ذات الطلقتين وتقدم بين الحشيش المرتفع النابت في غابةٍ ليست بعيدة ولما سمع العـلاَّمة بعد برهة تكرار دوي الرصاص تيقن ان صيده لا يخلو من ثمرة جيدة

وفي غضون ذلك اخذ العلامة ينظر الى ما بقي في المركبة وعزم على اصلاح موازنة القبة الصغيرة فرأى فيها نحو خمسة ارطال من اللحم المملح وقليلاً من الشاي والبن ونحو خمس ليترات من العرق وصندوق ماء فارغٍ

ولم يكن خافياً على العلامة ان خسارة الادروجن الذي انسرب من القبة الكبرى سبب لها نقصاً في قوتها الرافعة نحو تسعمائة ليبرة انكليزية. فاتخذ العلامة هذا الفرق اساً لهُ ليصلح الموازنة فان وسع المنصورة الصغيرة سبعة وسبعين الف قدم مكعبة وهي تحوي ثلاثة وثلاثين الفاً واربعمائة وثمانين قدم غازٍ مكعبة واما آلة امداد الغاز فما زالت غير ممسوسة وصحيحة البنيان وهكذا الكرة والانبوب الذي على هيئة البرغي فانهُ لم يصبهما ضررٌ البتة

فبلغت اذاً قوة القبة الرافعة نحو ثلاثة الاف ليبرة انكليزية فاذا جُمع ثقل السواح وزاد الماء والمركبة مع ضروريتها وأُضيف الى ذلك نحو مائتين وخمسة وعشرين ليتراً من الماء ومائة ليبرة انكليزية من اللحم الرخص فيكون مجموع ذلك الفين وثمانمائة ليبرة فوالحالة هذه يمكنهُ ان يأخذ معهُ ثقلاً يبلغ وزنهُ مائة وسبعين ليبرة فيستعملهُ عند الحاجة وهكذا كانت القبة في موازنة تامة مع الهواء المحيط

فتمم العلامة بالفعل هذا النظام واقام مقام وزن يوسف ثقلاً زائداً من الرمل وقد لبث منشغلاً الى ان ولى النهار بالادبار فعاد ديك الى رفيقهِ وقد صاد صيداً وافراً من الاوز والبط البري ودجاج الغاب وغير ذلك فهيأها جميعها واحماها في النار بادخال قضيبٍ رفيع في كل قطعةٍ منها وتعليقها فوق حطب

لاخضر مضرم بالنار وبعد ان تدخنت بدرجةٍ أعجبت خاطر ديك رفعها ووضعها في المركبة

وكان الصياد متأهباً لان يتمم المؤنة في الغد

ولما جن الليل على السائحين تعشيا لحماً مملحـاً وكعكاً وشاياً وبعد ان اكلا جيداً من قبل التعب السابق استولى عليهما النعاس فناما وكان كلٌّ منهما سهراناً بالحراسة في دوره فكنت تراهما كأنهما يسألان الظلام متفحصين عن رفيقهما يوسف وكان يخال لهما احياناً انهما يسمعان صوتهُ ولكن واحسرتاه على هذا الصوت الذي تمنيا استماعهُ فانهُ لم يطرق آذانهما حقيقةً

ولما سطعت اشعة الشمس المنـيرة ايقظ العلامة رفيقه ديك وقال لهُ: لقد اطلت الفكرى في ما ينبغي علينا فعلهُ لنجاة رفيقنا

قال ديك: قل يا سيدي فاني قابل برأيك قبل ان اعلمهُ

قال العلامة: من الضرورة ان نُطلع يوسف على اثرٍ من احوالنا

قال ديك: لا بُدَّ من ذلك لانهُ اذا تصورانا تركناه فيستولي عليهِ اليأس والقنوط

قال العـلامة: لا تظن مثل ذلك الظن فان يوسف يعرفنا حق المعرفة ومن المحال ان يطرقهُ فكر كهذا. غير انهُ يقتضي ان يعرف مكاننا ومقرنا

قال ديك: وكيف العمل

قال العلامة: اننا مزمعون ان نجلس في المركبة ونرتفع الى العلا

قال ديك: وعسى ان الريح تدفعنا الى ما ابعد فما حيلتنا حينئذٍ

قال العلامة: ان الريح لا تدفعنا الى حيث لا نشأ تأمل مهبها الحالي فانها تدفعنا الى فوق البحيرة وهذا ما نرغبهُ الان ويوافقنا وسنبذل وسعنـا في ان نستمر فوق هذا البسـاط المائي طول النهار فلا شكَّ في ان يوسف ينظر

الينا حيث ان عينيه متجهتان دائمًا الى العلو وربما يجد ايضًا وسيلة ليدلنا على مقره .

قال ديك : اذا كان مقيمًا وحده ُ فانهُ يدلنا لامحالة

قال العلامة : ولنفرض انهُ أُخذ أسيرًا فمن عادة هولاء الاقوام ان يحبسوا المأسورين في الاماكن الجهارية وعليهِ فانهُ يشاهدنا ويفهم غاية تفتيشنا

قال ديك : ولكن فلننظر الى سائر الاحوال ولنفرض اننا ما وجدنا لهُ اثرًا ولا وجد هو منا دليلًا فترى ماذا نصنع

قال العلامة : اننا نبذل جهدنا في ان نصل الى جهة البحيرة الشمالية ونلبث منظورين على قدر استطاعتنا وهناك ننتظر ونستقرئ السواحل والشواطئ فلا بُدَّ ان يوسف يجدُّ في الطلوع الى احداها ولا نترك تلك المحلات الّا من بعد جهدٍ كلي نبذلهُ حبًا بهِ

قال الصياد : هيا بنا اذًا على الرحيل

فسطر العلامة مركز اليابسة التي ازمع ان يرحل منها فكانت بموجب رسومهِ في شمالي بحيرة شاد بين مدينة لاري وقرية أنجميني اللتين زارهما القائد دنهام وفي خلال ذلك اكمل الصياد مصيدتهُ ولم يصادف في طريقهِ شيئًا من الوحوش الضارية التي تكثر في تلك البطاح

ولما كانت الساعة السابعة صباحًا نُشلت المرساة من الشجرة بتعبٍ جزيل مع ان يوسف كان يرفعها دائمًا بلا اعياء . ثم انتشر الغاز وارتفعت المنصورة الجديدة الى علو مائتي قدم عن الارض ففي اوّل الامر اضطربت قليلًا ودارت على ذاتها لكنها دُفعت من ثمَّ بمجرًى شديد وتقدمت الى فوق البحيرة وهي تسير مسافة عشرين ميلًا في الساعة

فما برح العلامة واقفًا فوق البحيرة بعلوّ مائتين الى خمسمائة قدم وديك

يقرع احياناً قرابينةً وكانا ياخذان بالوطوء فوق الجزائر ويقتربان كثيراً من الارض بل يخاطران بنفسيهما ويستقرئان باعينهما في الآجام والادغال وفي كل لطوةٍ او صخرةٍ كان يمكن ان يختبئ بها رفيقهما وتزلا مراراً الى قرب القوارب الموجودة في البحيرة . فعند ما كان يبصر الصيادون بالقبة الهوائية كنت تراهم يبادرون الى الغطس بالماء ويسبحون حتى يصلوا الى جزيرتهم وامارات الجزع والهلع لائحة على اطوارهم وهيآتهم

وبعد ان استقرأوا مدة ساعتين قال ديك : ما وجدنا شيئاً

قال العلامة : مهلًا يا ديك ولا تقطع الرجاء منذ الان فانا لسنا بعيدين عن مقرّ الحادثة

وعند الساعة الحادية عشرة تقدمت المنصورة تسعين ميلًا ومن ثمّ صادفت مهباً دفعها الى الجهة الشرقية بمسافة ستين ميلًا وحامت وقتئذٍ فوق جزيرة متسعة كثيرة السكان حسبها العلامة جزيرة فرّام حيث توجد عاصمة البيديوماه وعند كل اجمةٍ كان يرجو فرغوسن ان يسمع صوت يوسف يناديه فقال في نفسه عساهُ حرّاً لم تأسرهُ البرابرة فانا ننشلهُ بلا تعبٍ ولا اعياء وهب انهُ اسير فسنفعل بشأنهِ ما فعلناهُ بذلك المرسل العازاري وهكذا يعود الينا بالسلامة

ولكن لم يسمعا صوتاً ولم يشاهدا لهُ اثراً فكان ذلك مما يوجب اليأس والقنوط

وفي الساعة الثانية ونصف بعد الظهر وصلت المنصورة الى قبالة قرية تنغاليا الكائنة على جانب شاد الشرقي وهي النقطة الاخيرة التي بلغ اليها القائد دنهام وقت دخولهِ في بطون افريقية

فشمل قلب فرغوسن القلق والاضطراب من جرى تداوم اتجاه الريح لانهُ

رأى لها دافعتهُ الى الجهة الشرقية حيث مركز افريقيـــة والقفار والبوادي التي لانهاية لها ولا مناص منها

فقال وقتئذٍ لرفيقهِ ديك : لا بُدَّ من الوقوف ههنا والنزول الى الارض وينبغي لنـــا الرجوع الى البحيرة حبًا بصالح رفيقنا يوسف وقبل كل شيء فلنجد مهبًا مخالفًا للمهبّ الحالي

فلبث مدة ساعة وهو ينتقل من طبقةٍ الى طبقةٍ في الجوّ وما انفككت المتصورة معرّجة الى الارض ولكن بعلوّ الف قدم صدفت ريحًا شديدة دفعتها الى شمالي الغرب

ولما عاد العلامة ورأى شاطئ البحيرة الشمالي أخذ يظن بنفسهِ ان يوسف ليس بموجود اصلًا في جزيرة من جزائر البحيرة والّا لقد كان اظهر ذاتهُ لرفيقيهِ باي واسطةٍ كانت ثم قال عسى ان الافريقيين ذهبوا بهِ الى البر

ولم يخطر قط ببـــال الرفيقـــين ان يوسف ذهب فريسة الغرق لانهُ ماهرٌ في فن السباحة ولكن هنا طرقهما تصوُّر هائل وهو ان التماسيح كثيرة الوجود في تلك النواحي وقد اعترى هذا الفكر جنان كليهما ولكن لم يتجاسر احدهما ان يكاشف بهِ الاخر بل انهُ دهمهما علمًا حتى ان العلامة ما تماسك ان قال بدون ديباجة : لا تلبث التماسيح الّا على شواطئ الجزائر او البحيرة وليوسف فطنة كافية لتجنبها وهي ايضًا قليلة الخطر لان اهل ذلك البلد يسبحون في الماء ولا يخافون من وثباتها

فما فاه ديك بجواب بل آثر السكوت على المباحثة بهذا الامر المكدر

وعند الساعة الخامسة مساء اشار العلامة الى قرب مدينـــة لاري ولما وصلا اليها شاهدا سكانها منشغلين في حصاد الاقطان امام اكواخهم المبنيـــة من القصب الجدول وسط حظائر نظيفة ومنتظمة وكان مجموع تلك الاكواخ

البالغة نحو الخمسين واقعاً في ارض منخفضة في وادٍ متسع قائم بين جبال واطية . ودفعت الريح لشدتها منصورة السوّاح اكثر مما كان يرغب فيهِ العلامة ولكن لم تدم على ذلك الحال بل انقلبت مرةً ثانية وارجعتهُ الى مركز سفرهِ اي الموضع الذي قضى فيهِ ليلتهُ السالفة ثم تعلقت المرساة في رزم من القصب القائم هناك بكثرة عظيمة اذ لم تُصادف شجرة تلتصق باغصانها

ثم كابد العلامة صعوبة كلية لتهدئة المنصورة من شدة الريح لكنها خمدت بدخول الليل وسهر الرفيقان كلاهما وهما مكبلان بقيود القنوط

الفصل الثاني والثلاثون

في الزوبعة الشديدة وما انشغل بهِ الرفيقان من الفكرة المكدرة وهبوب الريح المضادة والموافقة والرجوع الى الجنوب

وعند الساعة الثالثة صباحاً هبت نفحة شديدة شبه العاصفة وكادت المنصورة تهوي الى الارض من تقلبها بايدي تلك الريح والقصب الذي حولها يتمايل ويتهدد القبة بالتمزيق

فقال العلامة: هيا بنا على الرحيل يا ايها الخليل لان حالتنا لا توافقنا

فقال ديك: ويوسف هل نتركهُ

قال العلامة: معاذ الله تعالى ان اتركهُ او انساه ولو دفعتني العاصفة الى مئة ميل في الشمال فاني لعود اليهِ ولكن هنا خطر على جميعنا

فصاح الصياد بصوت الكآبة وانجراح الفؤاد وقال: كيف نرحل بدونهِ

قال العلامة: أتظن يا ديك ان فؤادي ليس بمجروح مثل فؤادك على فراقهِ ولكن هلاَّ تضطرنا الضرورة القصوى الى الرحيل من هنا

فقال الصياد: هاانذا بين يديك فلنرحلنَّ اذاً

ولكن حال دون ارتحالها صعوبة جزيلة لان المرساة كانت مشتبكة اشتباكاً شديداً ولم يستطع الصياد على اقتلاعها فكانت الريح تدفع القبة وتقلبها على وجهٍ مخالف واضحى حال ديك في خطر مبين لانهُ خاف ان تفلت المرساة برمشة عين وترحل القبة الى المواطن الجوية قبل ان يبلغ اليها

فلم يرغب العلامة في ان يعرض رفيقهُ لهذا الخطر بل ادخل الصياد الى المركبة وصمم على قطع حبل المرساة وعند ما قطعها قفزت المنصورة قفزة هائلة الى العلاء وسمت عن الارض نحو ثلاثمائة قدم وسارت نحو الشمال على الخط المستقيم

فانقاد فرغوسن لتلك الزوبعة وكتف ذراعيـه على صدره وهو في المركبة غارقًا في بحرٍ من الافكار الحزينة

وبعد سكوتهِ برهةً التفت الى رفيقهِ ديك وقال : اننا لربما جربنا المولى لانه لم يُعطَ للانسان ان يرحل بمثل هذا الرحيل

قال هذا وتنفس الصعداء من قلب جريح

قال الصياد : لقد هنأنا بعضنا البعض من برهة بعض الايام لتخلصنا من الاخطـار والويلات الكثيرة في رحلتنا الافريقية . هل ترى تنقض الان المقال

فصاح العلامة قائلًا : واسفـاهُ على يوسف البئيس ذلك الشهم الكريم المجبول باللطف والمروّة ذي الطبع السليم الريان من مـاء المكارم والفتوّة . فانهُ بعد ما أُخذ عقلهُ بالثروة والغنى من الكنوز الثمينـة فما تماسك ان ضحاها جميعها فهوذا هو الان بعيدٌ منا والريح تدفعنا بسرعةٍ لا ضدّ لها وتقصينـا عنـهُ

قال ديك : ولكن فلنفرض سيدي فرغوسن ان يوسف التجأ الى احدى القبائل الكائنـة في بحيرة شاد اما تراه يتمكن من الرجوع الى بلاده كما عاد دنهام وبرث الى الاوطان

قال العلامة : ولكن يا صاحبي ديك ألا تعلم ان يوسف يجهل لغة هؤلاء الاقوام ولا يعرف كلمة واحدة منها وهو وحدهُ لا رفيق لهُ ولا حيلة . واعلم ان السواح الذين تكلمت عنهم كانوا قبل ان يتقدموا في البلاد يرسلون الهدايا العظام الى رؤساء الاقوام ومعهم ايضًا فرقة من الجنود الشـاكين بالسلاح المستعدين لهذه الرحلات ومع كل ذلك كان لابدّ لهم من احتمال العـذابات والمشقـات باسواء حال . فماذا ترى اذًا يحل برفيقنـا المسكين فان هذا

الفكر يقاتلني ويؤلمني وفي حياتي قط لم اتكبد حزنًا اشدّ مرارةً

قال ديك: ولكن سنرجع اليهِ سيدي صمونيل

قال العلامة : انا سنرجع ولو الجأتنا الاحوال الى ترك المنصورة او العودة الى بحيرة شاد راجلين بل الى فتح المخابرات مع سلطان البرنو . فاني لا اظن ان العرب عندهم سوء ذكر نحو الافرنج الاولين

فاجاب الصياد بعزم وحماسة القلب : وساتبعك الى حيث سرتَ فلك ان تعتمد عليَّ واذا لزم الامر أبينا تتميم سفرتنا وكما ان يوسف اظهر خلوصه نحونا واوقع نفسه في المهلكة حبًا بنا فاننا نضحي ذواتنا لاجلهِ

فاحيا هذا الكلام روح الشجاعة والشهامة في قلب السائحين وشعرا انهما متشددان بالفكر نفسهِ ثم عمل العلامة ان يلتقي مهبًا مخالفًا يقربه من بحيرة شاد وبذل جهده في ذلك غير انهُ قد تعسر عليهِ حتى النزول الى تلك الاراضي لكون الزوبعة ما زالت شديدة الهبوب

وهكذا مرَّت المنصورة باقليم تيبوس وجازت قفرًا ذات اشواك يُعرف ببلد الجريد وهو على تخوم بلاد السودان ثم دخلت بادية الرمال المخططة بآثار القوافل فشاهدوا الروضة التي في تخوم البادية مكسية بالخضار وفيها ابار كثيرة تحتاط بها الاشجار الجميلة وهي اعظم روضة في البلاد الافريقية . لكنهم لم يستطيعوا الوقوف فيها ولكن لم يخلُ القفر من قوم عربان وبعض الخيم والابال المادة رؤوسها فوق الرمال شبه رؤوس الافاعي . فمرَّت المنصورة فوقها كنجم خوار وهكذا طافت مسافة ستين ميلًا برهة ثلاث ساعات وفي تلك المدة كلها ما استطاع فرغوسن ان يقمع القبة الهوائية في مسيرها

فقال حينئذٍ: ما هذه الحالة التي نحن فيها فاننا لا نستطيع الوقوف ولا النزول اذ ليس شجرة ولا صخرة نلقي عليها مرساتنا فهل يا ترى ازمعنا لان

نجوز الصحراء من اقصائها الى اقصائها في الحقيقة ان المولى سبحانه وتعالى يعارضنا في نيل منانا

وفيما كان يتفوه بهذا الكلام وامارات الغيظ واليأس مستولية على محياه اذا لاح له من الشمال ان رأى رمال البادية ثائرة في وسط غبار كثيف وهي تدور محركة من المهبات المتضادة المشتبكة في الجو

وكان في وسط تلك الزوبعة قافلة بكاملها مبتلعة من وثوب تلك الرمال الطيارة وقد تبددت شذر مذر اذ لعبت بها ايدي الرياح فكنت تسمع حينئذٍ أطيط الابال وحنينها وتأوّه الناس وصراخ يأسهم وانقطاع قلبهم وتارة كان يطير عنهم ثوب مشكل الالوان ويحوم مع الرمال وفوق هذا جميعه كان عصف الزوبعة يشبه قصيف الرعد بالهدير والعجيج

وبعد ذلك اخذت الرمال في التكدس بعضها فوق بعض وتألفت منها اكام وربوات حيث كانت السهلة الممتدة كالبساط قامت علوة فوق القافلة بمثابة رمس ه

فتأمل الرفيقان هذا المشهد المرعب ووجههما مكلل بالاصفرار وما عاد في مكنتهما ان يسوسا القبة الهوائية الدائرة في وسط مجاري الرياح المتضادة حتى لم يعد ينفعها انتشار الغاز وامتداده واذ وقعت في شباك تلك الفوّارة الهوائية اخذت ترتجف وتسرع في مسيرها وتذبذبت تذبذبًا هائلًا وجعلت الالات الموضوعة في المركبة تلاطم بعضها بعضًا حتى كادت تتحطم ومالت الانابيب حتى اوشكت الانقطاع وصارت صناديق الماء تتناقل من مكانها بضجة وحركة شديدة وتعسر على السائحين ان يسمع الواحد صوت الاخر مع انهما غير مفترقين بعضهما عن بعض بمسافة قدمين وكان كلٌّ منهما متمسكًا بالحبال ومحاولًا ان يمكث ثابتًا رغمًا عن هياج الزوبعة

وكان شعر الصياد مبعثرًا وهو ينظر الى الرياح صامتًا ساكتًا . واما العلامة فحوّل هيئتــهُ الى الجسارة والجراءة حسب عادته عند ما المت به الاخطــار ولم تلح على وجهه امارات الاضطراب الشديد بل كان في رواق تام ولم يضطرب ايضًا عند ما وقفت المنصورة فجأةً في الطبقــات الجوية بعد ان دارت على ذاتهــا دورة لخيرة ثم غلبت ريح الشمال وظفرت بجميع الرياح وعكست مسير المنصورة وذلك بسرعة زائدة كما جرى في الصباح

فصاح ديك قائلًا : والى اين نحنُ ذاهبون

فقال العلامة : دع العناية الالهيــة تفعل بنا ما تشاء فاني قد اخطأت بعدم اتكالي عليها وهي عارفة بما يوافقنا اكثرمنا وها نحن راجعون الى الاماكن التي آيسنا من العودة اليها

واما الطريق التي سارت فيها المنصورة فاختلفت قليلًا عن الطريق التي اتوا بها صباحًا ولذا شاهد السائحان في خلال الساعة التاسعــة فسيح البادية عوضًا عن مشاهدة سواحل بحيرة شاد

فاشار ديك الى العلامة بهذا الامر

فقال العلامة : هذا لا يهمنا كثيرًا ويكفينا ان نرجع الى الجنوب فاننــا نصادف هناك مدائن البرنو وودّية وكوكا ونحط فيها لامحالة

فقال ديك : حيث انت راض بما نحن عليه ومنشرح الخاطر فانا على ما انت عليه ولــكن ارجو المولى ان لا يدعنا نطوف الصحراء فيحلُّ بنا ما حلَّ باولئك الاعراب التعيسي الحظ وفي الحقيقة ان ذلك المنظر اثر فيَّ وارعب مني الفواد

قال العلامة : ان هذا الامر كثير الحدوث فان اخطار التطواف في القفار يضاهي اخطار السفر في البحار لان البادية تتناول جميع اخطار البحر حتى والابتلاع

نقسهُ وزد على ذلك ان البادية فيها اتعابٌ ومشقات لا يُطاق احتمالها والتجلد لهـــا

قال كادي : ارى الريح مائلة الى الهدوء والاستكانة فاني اشاهد غبرة الرمال تخف كثافةً وتموجها يقلُّ والافق يأخذ في الانجلاء من غشاوتهِ

قال العلامة : حسناً تفعل الريح بهدئها فعلينـــا ان نفحص الافق لئلا تفوتنا نقطة واحدة لا ننظر اليها

قال ديك : دع هذا الامر عليَّ فاني انبئك حالاً عند ما اصادف اول شجرة

قال هذا واخذ المنظرة وجلس في مقدم المركبة

الفصل الثالث والثلاثون

في قصة يوسف وما كان من عادة الافريقيين لهُ ووصولهِ الى ارياف الحلة
وسعرهِ راجلاً ومكابدتهِ المشقة والتعب والجوع ومرور المصورة وارتحالها
ويأسهِ وصراخهِ الاخير

فماذا يا ترى قد اصاب يوسف في غضون تفتيش العلامة عليهِ وتكبدهِ التعب الباطل حباً بهِ

فاعلم وفقك الله ان يوسف في سقوطهِ في البحيرة اول ما بدا منهُ كان انهُ نظر الى العلاء فرأى المنصورة قد سمت عن البحيرة وعلت بسرعة الى الجو ثم غابت عن عينيهِ باتجاهها الى جهـة الشمال فايقن حينئذٍ ان سيدهُ وصاحبهُ ديك فازا بالنجاة

ثم قال في نفسه : انهُ ضرب من السعادة والحظ ما طرقني من الفكر لان ارمي بنفسي في البحيرة فداء لرفيقيَّ لانه ربما كان طرق هذا الفكر صاحبي ديك الصياد فلو خيل بذهنهِ لما كان تماسك قط عن تتميمهِ بالفعل . ولامرٌ صوابي هو ان يبذل انسان نفسهُ رغبة في نجاة اثنين اذ يتفضل الاثنان على الواحد في كل حساب

ولما اطمأنَّ خاطره من هذا القبيل اخذ يهتمّ بامر نفسهِ فانه كان مقيمًا وسط بحيرة عظيمـة جداً وحولها اقوام يجهلهم بالكلية وربمـا هم من البرابرة المتوحشين لكنهُ قال في ذاتهِ : ان ارتعابي من هذا والفكرى بهِ قبل اوانهِ لا يجديني نفعاً بل من الواجب عليَّ ان اضـاعف حرصي وتحذري لاتخلص من حالتي والّا كنت انا الخاسر

وكان قد لح جزيرة في الافق قبل ان تحمل الطيور الجوارح على القبة وقد زعم يوسف ان تلك البواشق تصرفت تصرفًا لاق بشراستها المألوفة . فعزم اذاً

على الذهاب الى تلك الجزيرة واستعان بجميع معارفهِ في فن السباحة بعد ان جرّد نفسهُ من الثياب التي تربكهُ. فكانت سفرة ستة اميال في البحر لا ترعبهُ ولهذا لما كان سابحًا على الماء ما افتكر قط بشيء سوى بان يسبح بنشاط وان يتجه خطًا مستقيمًا الى ما قصدهُ من المحطة

وبعد ان مضت نحو ساعة ونصف تقصت كثيرًا المسافة الفاصلة ما بينهُ والجزيرة ولكن في اقترابهِ من الارض دهمهُ تصوّر هائل من شأنهِ ان يحملهُ على الهرب وهو ان التماسيح كثيرًا ما تألف سواحل البحيرة ولم يكن يخفى عليهِ ما تنطوي عليهِ تلك الحيوانات من النهامة وشدة الحريص في تلقف لحمان بني آدم

فاضطرب يوسف من هذا الفكر رغمًا عما كان متصفًا بهِ من الخلة المائلة بهِ الى الظن ان كل شيء في هذه الدنيا يجري مجراهُ الطبيعي وخاف ان يلذ للتماسيح اللحم الابيض. فلذا لم يتقدم الى الساحل الأجرص كلي وعينهُ محدقة يكلما حواليهِ ولما وصل الى قرب ريف مظلل بالشجر الاخضر هبّ نسيم فاحت منهُ رائحة المسك الخارقة

فقال: هذا ما كنت اخشاهُ فان التمساح غير بعيد مني. فغطس في الماء ولكن لم يغطس غطسًا عميقًا ولذا ما تحاشى صدمة جسم عظيم ذات خراشف مسنة فخدشت جسمه في مره فحسب يوسف انهُ ذهب فريستهُ وجعل يسبح بسرعة من تاهز اليأس ثم طلع الى سطح الماء وتنفس قليلًا ثم عاد فغاب في الماء وهكذا قضى برهة كابد فيها ضيقة وغمًا شديدًا رغمًا عما كان عليهِ من الجلد الغريزي. ففي كل دقيقة كان يخال لهُ انهُ يسمع حركة ذلك التمساح ويراهُ فاغرًا ماضغيهِ ليبتلعهُ بلعة واحدة وفيما كان محتفظًا على ذاتهِ من كل جانب وهو يسبح بلطافة واذا مُسك من ذراعهِ ثم من وسطهِ

فتصور حينئذٍ ان قد حاق بهِ التعس والويل وفكر فكرة اخيرة بمولاه واخذ يصارع وينـازع كقاطع الرجاء وهو مع ذلك مشعرٌ بان قوّة تجره الى سطح الماء وليس الى القعر كما هي عادة التماسيح عند ما اصطادت صيداً

فلما طفا وفتح عينيهِ نظر ذاتهُ بين عبدين ذات لون الأبنوس ماسكين بهِ وهما يضحكان بصوت غريب

فما تماسك ان قال يا للعجب فاني نجوت من شباك التماسيح ووقعت في شباك السودان . فلعمري هذه احسن من تلك ولكن كيف يا ترى يتجاسر هؤلاء على السباحة في مثل هذه الحالات

فكان يجهل يوسف ان سكان جزائر شاد يسبحون في المياه الحالة فيها التماسيح بلا خوف ولا قلق لان تماسيح تلك البحيرة شهيرة بقلة توحشها وعدم حرصها في اذية الناس

فكان يوسف قد نجا من خطر لكنـهُ وقع في غيره فترك للتقادير ان تفعل فيهِ ما تشاء وحيث لم يستطع الخلاف انقاد الى الاسودين اللذين اتيا بهِ الى الساحل ولم يُظهر على ذاتهِ وجلاً

فاخذ يردد في افكاره قائلاً : لا شك في ان هؤلاء العبيـد نظروا الى المنصورة عند ما حامت فوق البحيرة شبه وحش جوّي وقد شهدوا من بعيد لسقطتي فلا يبعد ان يجلوا انساناً نزل من السماء ويتحفوه باكرام خصوصي فلندع الحوادث تجري مجراها

نَمْ للخطوب اذا احداثها طرقت واصبر فقد فاز اقوام بما صبروا
فكلُّ ضيقٍ سيأتي بعدهُ سعةٌ وكل صبرٍ وشيكاً بعدهُ ظفرُ

وفيما كان يتحدث بهذه الافكار اذا وصل الى ساحةٍ وفيها قوم سود من كل جنسٍ وعمرٍ وهي قبيلة من قبـائل البيديوماه ولم يستحِ من خفة ثوبهِ

فانهُ كان على زيّ سكان ذلك القطر

ولكن قبل ان ينتبــه الى حالتهِ وموقعهِ رأى العبيد قد اخذوا في تبجيله وتعظيمهِ فطمأن روعه من هذا الامر وان اتت لبالهِ حادثة كازه عند ما ظهر القمر

ثم قال في نفسهِ: ارى اني مزمع ان اصبح ثانية الهًا وابنًا للقمر. فلا بأس من هذه الحرفة لانها احسن من غيرها عند ما تكون اجبارية واما الذي يعني فهو ان اربح زمانًا حتى اذا اتت المنصورة فرّت فوقي انتهز الفرصــة من حالتي هذه لاصعد صعودًا عجيبًا واجعل عابديَّ يتأملون بهنا المشهد الغريب

ثم ازدحم القوم حولهُ واخذوا يسجدون لهُ ويضجون ويمسونه وأنس الجميع بهِ ولم يتهاملوا ان صنعوا لهُ وليمة فاخرة مؤلفة من الحليب الحامض وكان ذلك الحليب ممزوجًا بارزٍ مسحوق في العســل. فلما كان من دأب يوسف ان يقبل بكلما يأتيهِ تناول الطعام معهم وأكل كثيرًا وهكذا أرى عابديه كيف ان الالهة يتلقفون الاطعمة في الفرص الغير الاعتيادية

ولما امسى المســاء اتاه سحراء الجزيرة وضبطوا يده باحترام كلي وجاءوا بهِ مخدعًا اشبــه كوخًا محاطًا بالطلاسم السحرية وقبل ان يدخلهُ يوسف شاهد عظامًا مكوّمة حول ذلك المعبد فنظر اليها نظرة قلقة ثم خلوهُ بهِ وتركوهُ فأخذ حينئذٍ يجوب بيداء الافكار في واقعتهِ وفيما صُمم عليهِ من النية

في جانب عظيم من الليل ما برح يوسف يسمع غناء وترتيلًا واصواتًا شبه اصوات الطبل وقرقعة حديد تحلو في اذان الافريقيين ولما كان الرقص قائمًا على قدمٍ وساق حول الكوخ المقدس كان القوم يعزّون باصواتهم الضخمــة وجميع هذا تبجيلًا لمقام يوسف الفائق

وكان يوسف ناظرًا الى هذه الغوغاء من خلال جدران الكوخ المبنيـة من الطين والقصب . فلو جرت هذه الحادثة في وقت غير ذلك الوقت ربما لكان فرح فرحًا عظيمًا في تلك الطقوس الغريبـة ولكن قد خيل في باله امرٌ اوقعهُ في بلبال لانهُ وان نظر الى الاشيـاء بعين رائقة بل مجردة فمع ذلك قد ساءهُ وجودهُ في تلك البلاد الوحشية وبين اقوام برابرة

وزِد على ذلك انه قلّ السواح الذين تجـاسروا فقدموا الى تلك الآفاق ثم عادوا فرجعوا الى الاوطـان وعليهِ لم يثق كثيرًا بعبادتهم وتكريمهم لهُ لان عظمات هذا العالم وامجادهُ كانت عندهُ اباطيل ولهُ دواعٍ كثيرة لاحتقارها وعدم الاكتراث بها ثم سأل نفسهُ نفسهِ قائلا: عسى ان عبادتهم تفضي اخيرًا باكل المعبود

فمع ارتبـاكهِ بهذه الافكار التي من شأنها ان تلقيه في وهاد التأسف والكدر غلب عليه التعب ورقد في سبات لذيذ ولطال معهُ هذا الرقاد حتى الصباح لو لم تيقظهُ رطوبة غير منتظرة

ثم امست تلك الرطوبة مـاء وازداد ذلك في كوخ يوسف حتى وصل الى اواسطهِ

فقال: ما هذه الحال أعذاب على عذاب هل يا ترى انا غارق في غمر المياه فلعمري ما كنت في انتظار هذه الحيلة الغريبة وعلى كلٍ لا امكث محبوسًا حتى تبلغ المياه الى رقابي

وبعد ان تفوه بذلك المقال ضرب الحائط بكتفهِ فوجد نفسـهُ في قلب البحيرة ولم يعد يرى اثرًا للجزيرة بل انها غطست في الماء بالليل وقام مقامهـا سعة البحيرة

فقال يوسف: بئس البلاد لاصحـاب الاملاك لانهم يُعدمون رزقهم في

برهةٍ وجيزة ثم شدد قواه وضاعف نشاطهُ للسباحة من جديد

فقد نجا يوسف من ايدي البرابرة بحادثةٍ من الحوادث التي كثيراً ما تجري في بحيرة شاد فان جزائر كثيرة تتهوَّر في هذه البحيرة مع انها تشاهد قبلاً صلبة نظير الصخور وكثيراً ما يأتي الاقوام المجاورون لها بغوث المساكين الذين يلجأون الى الفرار

اما يوسف فلم يكن عارفاً بهذا الامر لكنهُ اخذهُ سبيلاً الى تخلصهِ واذ لمح قارباً تائهاً في البحيرة قد اقترب منهُ فرآه شبه جذع شجرة حُفر حفراً خشناً وكان فيهِ مقذافان فطلع اليهِ ورأى مجرى ماء سريعاً فانتهز الفرصة واخذ في المسير

ثم قال فلننظرنَّ قبلاً الى اين نذهب ولرجوِ من كوكب الصباح ان يأتي بعوني لانهُ من حسن عادته ان يهدي الناس الى طريق الشمال

فرأى ان مجرى الماء يبلغهُ ريف البحيرة الشمالي فسار مسروراً ولما كانت الساعة الثانية بعد انتصاف الليل صعد الى علوة مغطاة بقصب شائك لكنهُ بصر هناك بشجرةٍ وخيل لهُ انهُ يرقد على اغصانها كعلى فراش فتسلقها يوسف واخذ هناك في انتظار الفجر ولو امتنع عليه الرقاد

واذ وافى الصباح سريعاً حسب عادتهِ في تلك بلاد خط الاستواء القى يوسف لحظةً على الشجرة التي التجأ اليها فارعبهُ منظرها رعباً شديداً لان الحيات والحرباء تغطي اغصان الشجرة من اعلاها الى اسفلها وكان ورقها اذ ذاك متوارياً تحت لفائفها واذا ما شاهد احدٌ تلك الشجرة قال عنها انها تنبت دباباتٍ ولما بزغت اشعة الشمس اخذت تدب وتزحف وتلتف فشعر يوسف برعب خالجهُ النفور ورمى بنفسهِ الى الارض بين فحيح الحيات

ثم قال: هذا شيء غريب يصعب تصديقهُ

فكان يخفى عليه ان فوجل في رسالاته الاخيرة ذكر تلك الغرابة الظاهرة في سواحل بحيرة شاد حيث تكثر الذبابات والهوام كثرة لا مثيل لها . فبعد ما رأى يوسف ما رآه عزم على ان يشدد حرصهُ في المستقبل واخذ يسير الى الجهة الشمالية الشرقية وكان يعتني كثيرًا في تجنب الاكواخ والبيوت والخيام وبالاجمال كل محل قابل لسكن الناس

وكم من مرة قد رفع يوسف لحاظهُ الى العلاء وهو يرجو مشاهدة المنصورة غير انهُ ذهب تفتيشهُ عليها هدرًا ولم يرَ لها اثرًا فمع ذلك لم تنقص ثقتهُ بسيدهِ اما حالتهُ فكانت تقتضي صبرًا جميلًا وشجاعةً عظيمة للتجلد عليها اذ انه كان مضنوكًا بالتعب متضورًا من الجوع لكونهِ لم يغتذِ سوى بالعروق ولب بعض الشجيرات او باثمار من جنس النخل فهذه كلها ليس من شأنها ان تقوي المعدة وتقيت المرء . ومع هذا كلهُ فانه تقدم نحو عشرين ميلًا الى الناحية الغربية وكان جسمهُ مخدشًا بالاشواك في امكنة كثيرة وذلك لطلوعهِ الى سواحل البحيرة وارجلهُ كانت مخضبة بالدماء فاصبح من ثم مسيرهُ عسرًا ومؤلمًا فاحتمل هذا العذاب بصبر ولما امسى المساء عزم على ان يقضي ليلتهُ في سواحل البحيرة

فهناك اقتضاهُ الحال ان يقاسي لذع الهوام التي لا تحصى عددًا وهي من اجناس كثيرة كالذباب والبرغش والبعوض والنمل الذي يبلغ طولهُ نحو نصف باهم وهي تغطي الارض كالبساط الممدود . فما مضى عليهِ نحو ساعتين الّا تاثر الثوب الخفيف المكسي جسمهُ ولم يبقَ منهُ اثر فان الهوام قرضتهُ كلهُ فكانت ليلة هائلة لم يستطع فيها يوسف رقادًا ولا راحةً البتة

وفي غضون ذلك كانت الخنازير والجواميس الوحشية وغيرها من الحيوانات تضج باصوات الغضب في الاجام او تحت مياه البحيرة وكانت تدوي اصواتها

في ظلام الليل فلم يتحرك يوسف من مكانهِ بل كابد من جرا ذلك عذابًا اليمًا كاد ان يذهب صبره ويُفضي بهِ الى اليأس

ثم وافى النهار بعد انتظار طويل فنهض حينئذٍ يوسف بسرعة ولما نظر حواليهِ نفرت نفسهُ اذ رأى ان ضفدعة سمجة كبيرة وحشية قد ضاجعتهُ ليلًا ومن مجرَّد النظر اليهـا تقزز النفس وتحمل على التكره . فاحس يوسف بتقلب امعاه ولكن قد تقوى من كرههِ وعدا راكضًا الى البحيرة وارتمى في مياهها فرطب الماء قليلًا مـا كان يكابدهُ من الحكاك ثم عاد الى البر ومضغ بعض اوراق الشجر وسار في طريقهِ بجلدٍ لم يدركهُ واصبح كأنهُ لا يدري ما يفعلهُ بل شعر بقوةٍ تعلو فيهِ قطع الرجاء

ومع ذلك اخذ يضورهُ الجوع وصاحت عصافير بطنهِ لان بطنهُ لا يمكنـهُ الاصطبار مثلهُ فاضطر الى ان يربط جسمهُ بحزام نباتي واما عطشـهُ فـكان يرويه في كل دقيقة واذ اتى لبالهِ ذكر ما احتملهُ في البادية من قلة الماء حسب نفسهُ سعيدًا لخلوه من هذه الحاجة الفائقة لجميع الاَلام

ثم قال في ذاتـهِ اين يا ترى هي المنصورة فان الريح تهب من الشمال وينبغي عليها ان ترجع فوق البحيرة ولا بدَّ ان يكون سيدي صموئيل رتب القبة بموازنة جديدة ولكن كفاهُ البار البارح شغلًا فلا يبعد اذًا اليوم الذي فيهِ المنصورة . . . ولكن ما لي ولهـا الان فعليَّ ان اتصرَّف كأني لست بزمع ان اراها ابدًا واذا وصلت الى مدينة كبيرة من مدائن البحيرة فاني اكون بمقـام السواح الذين ذكرهم لي سيدي فلمـاذا لا انجو مثلهم فان كثيرين رجعوا الى الاوطان وشاهدوا الخلان فالشجاعة الشجاعة اذًا ولا اليأس ابدًا

ففيما هو يتفوَّه بهذا المقال سائرًا في طريقهِ وصل الى غاب وشاهد فيهِ قومًا متوحشين متألبين بعضهم على بعض اما هم فلم يدروا بهِ لكونهم عاملين على

سقي نبلهم بعصير نبات مسمّ وهي مشغلة عظيمة يهتمّ بهـا قبايل تلك البلاد بعيد حافل

فاختبأ يوسف بين الاجام وهو لا يتنفس لئــلا يُحسّ بهِ وفيما هو رافع بصرهُ الى العلاء لمح المنصورة بذاتها سارية فوق راسهِ بعلو نحو مائة قدم ومتجهة نحو البحيرة فودّ لو استطاع ان يُسمع صوته او يُعلم رفيقيهِ بوجوده في تلك الحال ولكن أنّى لهُ من نيل هذا المرام

وفي تلك الساعة اذرت عينهُ دمعة سخينة ولكن لا دمعة اليأس والقنوط بل دمعــة السرور ومعرفة للجميل الذي بدا من سيده نحوه فانه كان يستقريْ عنهُ ولا يريد ان يذهب بدونهِ فاقتضى حينئذٍ ان ينتظر رحيل السودان حتى ينطلق راكضاً الى ارياف البحيرة

واما المنصورة فتوارت عن البصر في طي الافاق فعزم يوسف على انتظارها هناك لانهُ قال في نفسهِ : لا بدّ من رجوعها فرجعت حقيقةً واذ اتجهت نحو الشرق فركض يوسف وراءها واومى بيديه وصرخ وصاح باعلى صوته ولكن عبثاً لان ريحاً شديدة دفعت القبة الهوائية بسرعة عظيمة نزعت منهُ كل امل ورجاء

في اول وهلة خارت فيهِ قوى الشهامة والرجاء وظن انهُ قد تاه في بيداء الهلاك وحسب ان سيده رحل رحلةً اخيرة وما عاد يرجع اليــهِ فذهب عقلهُ واضاع كل فكرةٍ وبقي برهة لا حراك لهُ جسماً وعقلاً

ثم شرع في المسير كانسان فاقد العقل ورجلاهُ مخضبتان بالدماء وجسمهُ مخدَّش ولبث ماشياً كل النهار ومدة من الليل وتارةً كان ينسحب على اقدامهِ وطوراً كان يتوكأ على ايديه وكان يرى الساعة التي فيها تخور قواه ويأتيهِ الاجل لا محالة

ففيما هو يتقدم الى الامام اذا وصل الى قرب بطحة وكان قد جنهُ الليل ثم سقط بلا معرفة في طين لزج وشعر كأنهُ يتساقط رويداً رويداً في تلك ارض الحماة وما مضت بعض الدقائق حتى رأى نصف جسمه مغمساً في الطين

فقال حينئذٍ: هوذا الموت هوذا قد اقبل ولكن يا لها من ميتة شنيعة

فاضطرب واختبط واراد الخلاص فلم يفز بهِ بل ما زال يتعمق في الطين وكان في حركتهِ كانهُ يحفر الهوَّة لنفسهِ ولم يرَ بالقرب منهُ قصبة ام قطعة خشبية ليستند عليها فايقن ان قد دنت ساعتهُ الاخيرة واطبق جفونه

ثم صاح قائلاً: سيدي سيدي ما بالك لا تأتي اليَّ تعالَ تعالَ

فتاه ذلك الصراخ المنفرد صراخ اليأس والقنوط في بيادي الظلام المدلهم

الفصل الرابع والثلاثون

في ما كان من العربان المتجمعين وملاحقتهم لاحد المهرومين وقتل الصياد عربياً برصاصة وانتشال يوسف من الارض نصاعة وحرفة

فمنذ ما فوّض العلامة امر المراقبـة الى ديك الصياد ما انفك هذا عن التفرس في الافق بحرص وانتباهٍ لا مثيل لها

وبعد برهة التفت الى العلامة وقال لهُ: ارى هناك طائفـة من الناس والبهائم مجتمعين ولكن لا يتميز شيء منها بل اني اشاهدهم في حركة عظيـمة لان امامهم غبارٌ كثيف من الرمال يرتفع من الارض

فقال صموئيل: يمكن ان يكون هذا ريحاً مخالفة ام فوّارة ازمعت ان تدفعنا الى الشمال

فنهض ديك ليفحص الافق جديداً

ثم قال لرفيقهِ: اظن انها طائفة من الغزلان او من بقر البرية

قال العلامـة: ان ذا من المحتمل ولكن اعلم يا ديك ان هذه الفرقة المتجمعة تبعد عنا نحو تسعـة او عشرة اميال فانا اذا تطلعت بالنظارة الصغيرة لا اميز فيها شيئاً

فقال ديك: على كل ٍّ ها اني مراقبها على جميع الاحوال لاني ارى فيهـا شيئاً غير اعتيادي يُشغل بالي وعلى ما اظن ان هذا الازدحام انمـا ازدحام خيالة يجارون في ميدان السباق هوذا قد اصاب تخميني فانهم بالحقيقة خيالة. تطلع يا فرغوسن تطلع

فتأمل العلامة بانتباه الى تلك الفرقة المزاحم بعضها بعضاً

ثم قال: على ما ارى قد اصبت في ظنك فانهـا فرقة من عربان ام تيبوسية والباين انهم يركضون الى الجهة التي نحن سائرون اليها غير ان عدوهم لا

يوازي سرعة قبتنا ولا يمضي نصف ساعة الّا ونقف على الحقيقة ونعلم ما يجب علينا من العمل

ثم اخذ الصياد منظرته وجعل يحدق بصره فترأت له الخيالة المزدحمون باكثر وضوح وشاهد ايضاً بعضاً منهم ينفردون على جانب

ثم قال لفرغوسن : في الحقيقة ان هذا هو سباق خيل فكأنهم يتعقبون شيئاً واود كثيراً ان اشعر بما هو موضوع مطاردتهم

فقال العلامة : صبراً يا ديك فعن قريب نصل اليهم بل نتجاوزهم اذا داوموا الجري في هذه الطريق نفسها واعلم ان قبتنا تسير الان بسرعة عشرين ميلاً في الساعة ولا يوجد خيل يمكنها ان تجري بهذه السرعة

فرجع ديك الى المراقبة من جديد ولم تمضِ بعض الدقائق الّا قال : انهم عربان يركضون ركضاً شديداً وقد ميزتهم حق التمييز وهم يبلغون الخمسين وهوذا برانسهم تعوم على جناح الريح فانها رياضة للخيالة ورئيسهم يسبقهم عن بعد مائة قدم وهم يجرون وراءهُ متتبعين اثاره

قال العلامة : من ما كانوا فاني لا اخشى اذيتهم واذا اقتضت الحال ارتفعنا الى المعالي

قال ديك : اصبر قليلاً يا فرغوسن اصبر

ثم استتلى ديك كلامهُ بعد فحص جديد وقال : انهُ لامر غريب حيّر فكري لاني ارى شيئاً ما تمكنت من معرفتهِ ولا تمييزه جيداً والباين من كد الخيالة وعدم مساواة جريهم انهم مطاردون احداً لا لاحقون برئيسهم كما ظننت

قال العلامة : وهل تؤكد ذلك يا ديك

قال ديك : لا شك في هذا لاني اشاهد الخيالة كانها راكضة وراء صيدٍ

ولكنها ليست مصيدة حيوان بل انسان والذي يتقدمهم هو منهزم منهم وليس هو رئيسهم وقد خالجهُ الاضطراب

قال فرغوسن: ألعلهُ منهزم

قال ديك: اي نعم سيدي

قال العلامة: لانحولنَّ اذًا بصرنا عنهم ولننتظرنَّ ما يحدث

فسارت القبة مسافة ثلاثة او اربعة اميال فوق هؤلاء الخيالة الجارين بسرعة شديدة

وبعد ان قطعوا هذه المسافة صاح ديك بصوت مرتجف وقال: سيدي صموئيل سيدي فرغوسن

قال العلامة: ما بالك احكِ

قال ديك: هل هو حلم ام خيال هل هذا ممكن

قال العلامة: وما معنى قولك

قال ديك: تصبر عليَّ

قال هذا ومسح زجاجة المنظرة وجعل يحدق بصره من جديد

فقال العلامة: قل اذًا ما هذا

قال ديك: هو هو بنفسهِ يا صموئيل

فصاح العلامة قائلًا: هو هو بذاتهِ (فقد اعنى بلفظة هو هو عن مراده ولم يحتاج الامر الى ايضاح)

ثم قال ديك: انهُ راكب فرسًا ومنهزمًا من امام اعدائهِ . . . . وهو بعيد عنهم نحو مائة قدم

قال العلامة وقد علا وجههُ الاصفرار: عافاك الله يا يوسف

قال ديك: لا يمكنهُ ان يرانا في انهزامهِ وجريه

قال العلامة: لا بد يا ديك من ان يرانا

قال هذا وخفض حرارة القصبة

قال ديك: وكيف ذلك

قال العلامة: لا تمضي خمس دقائق الّا ونقــترب من الارض حتى لا نعلوها الّا ٥٠ قدماً وبعد خمسة عشر دقيقة نصبح فوق رأسهِ

قال ديك: ألا يلزم ان تنبههُ بطلقة بارودة

قال العلامة: كلا فانهُ لا يستطيع الرجوع الى الوراء والّا ذهب فريسة اعدائهِ

قال: وما العمل

قال: الصبر يا صاح الصبر

قال ديك: الصبر وهؤلاء العربان ما العمل فيهم

قال العلامة: اننا نلحقهم ونسبقهم ولسنا ببعيدين اكثر من ميلين فقط فليبقَ حصان يوسف جارياً مجراهُ ولا نخشى العربان

قال ديك: الهي الهي

فقال العلامة: وما الذي جرى

فان ديكاً صاح بصوت مأيوس عند ما شاهد يوسف مصروعاً على الحضيض لان حصانهُ قد اعياه التعب فسقط على الارض خائر القوى

فقال العلامة: انهُ بصرنا وفي نهوضهِ اشار الينا بحركة يدٍ

قال ديك: ولكن قد اوشك العربان ان يلحقوه فما للذي ينتظره . لله الحمد فانه شهم باسل عافاه الله عافاه

فكان يوسف بعد سقوطهِ نهض حالًا اذ وثب عليهِ خيــال ثم قفز كالفهد وحاد يسيراً عن طريقه ثم انقض على فرسهِ كالباشق ومسكهُ من عنقهِ

وخنقهُ باصابعهِ الحديدية ويديه العصيبة وجندلهُ على الارض طريحًا واخذ في انهزامهِ بسرعة الطير

فصاحت العربان بصوت عظيم دوى في الافاق ولكنهم لم يشاهدوا قط المنصورة التي كانت تبعد عنهم نحو خمسمائة قدم وهي تعلو عن الارض ثلاثين قدمًا فقط الآان واحدًا منهم قارب يوسف وحاول ان يضربهُ برمحهِ ولما كان ديك الصياد شاخصًا اياهُ اوقفهُ برصاصةٍ واحدة وصرعهُ على الارض

فلم يلتفت يوسف اصلًا لصوت الرصاص بل داوم المسير واما الخيالة فوقف بعضهم ومنهم من خرَّ على وجههِ في الارض عند مشاهدة المنصورة ومنهم من داوم معاقبة يوسف

فقال ديك: ولكن ما الذي يعملهُ يوسف فانه لايقف

قال العلامة: بل انه يتصرف تصرفًا اوفق من الوقوف فاني فهمت غايتهُ وهي انه لا ينفك من المسير الى جهة مسير القبة الهوائية ويثق بفطنتنا وتدبيرنا وسننشلهُ من ايدي هؤلاء العربان وها نحن بعيدون منهُ نحو مائتي قدم فقط لله درهُ من شهم فريد

قال ديك: ما الذي يجب فعلهُ

قال العلامة: دع بارودتك جانبًا

فترك الصياد بارودته وقال: هوذا فعلت

قال العلامة: أتستطيع ان تحمل بين ذراعيك ثقلًا يوازن مائة وخمسين ليرة انكليزية

قال: واكثر من ذلك

قال العلامة: لا لزوم لاكثر بل هذا كافٍ

فرفع العلامة اكياس الرمل وناولها لديك ليحملها بين ذراعيهِ

ثم قال: للبث واقفاً في مؤخر المركبة وكن متأهباً لان ترمي هذا الرمل كلهُ دفعة واحدة ولكن بحياتك لاتفعل ذلك قبل امري

قال ديك: ثق بي وكن مطمأن البال

قال العلامة: والّا خسرنا يوسف وذهب فريسة الهلاك

قال الصياد: لاتخف يا فرغوسن والق ِعليّ هذا الهم

فوصلت المنصورة فوق رؤوس الخيالة الذين ما انفكوا من تتبع اثر يوسف .

واما العلامة فوقف في مقدم المركبة وهو ماسك السلم منشوراً ومستعدٌ لان يلقيهُ في الدقيقة الموافقة وكان يوسف بعيداً من اعدائهِ نحو خمسين قدماً اما المنصورة فتقدمتهم

ثم قال فرغوسن لديك: انتبه يا صاح

قال ديك: ها انا حاضر وعلى اهبة

ثم صاح العلامة بصوتهِ الرنان: عليك عليك يا يوسف

قال هذا ورمى السلم فوصلت الدرجة الاخيرة الى الارض واثارت غبرة من الرمال

فعند ما نادى العلامة يوسف لم يقف هذا في محله بل التفت قليلاً فوصل السلم بالقرب منهُ وفيما كان يتماسك بهِ صاح العلامة الى ديك قائلاً: الق ِالرمل يا ديك

فقال ديك: قد فعلت

فلما خفت المنصورة من ثقل يفوق ثقل يوسف ارتفعت في العلاء حالاً وبلغت علو مائة وخمسين قدماً فوق الارض

وعند ما ارتفعت المنصورة وتذبذبت كثيراً في صعودها كان يوسف

متمسكاً شديد التمسك بحبل السلم ثم اشار الى العربان اشارة غريبة وداعاً لهم وتسلق السلم بخفة البهلوان ووصل الى رفيقيهِ فاقتبلاه بين الاحضان فضجت العربان وقتئذٍ باصوات الدهشة والغضب لان المنهزم طار من بين ايديهم وابتعدت عنهم المنصورة بعداً شاسعاً

هتف يوسف: سيدي صاحبي ديك

قال هذا ووقع مغشياً عليهِ من شدة الاضطراب والاعياء فيما كان ديك كأنهُ في بحر الهذيان يصيح قائلاً:

قد خلص قد فاز بالنجاة

اما العلامة فرجع الى رواقهِ القديم وقال: اواه ما هذه الحالة حالة يوسف فان يوسف كان متجرداً عن اثوابهِ وليس على جسمهِ الّا رسمٌ من الكسوة ولما ذراعاهُ فكانتا مخضبتين بالدم وجسمهُ مثخناً بالجراح فكل هذا دلّ على ما تكبدهُ من العذاب والشقاء فنهض العلامة حالاً وضمد جراحهُ وانامهُ داخل الخيمة

وبعد برهة استفاق من غشيانهِ وطلب كأساً من العرق فما اراد العلامة ان يرفض طلبهُ لان يوسف لم يكن يُطبب كسائر الناس وبعد ان شرب اخذ بايدي رفيقيهِ وقال لهما انهُ مستعدٌ لان يقص قصتهُ

فلم يسمح لهُ رفيقاهُ بالتكلم في تلك الساعة وعليهِ عاد فرقد رقاداً ثقيلاً كان في غاية الاحتياج اليهِ

فسارت حينئذٍ المنصورة خطاً منحرفاً الى جهة الغرب وعند ما اشتدت الريح وصلت الى حدّ القفر الشائك فوق النخلات التي قد احنتها او اقتلعتها الزوبعة وبعد ان سارت مائتي ميل منذ انتشال يوسف قد جازت مساء الدرجة العاشرة من الطول

الفصل الخامس والثلاثون

في طريق الغرب ويقظة يوسف وعناده وتتمة قصتهِ ووصول السواح الى مجلة
وقلق الصياد واتجاه المنصورة نحو الشمال

ثم سكنت الريح من مهبها الشديد وقرّت المنصورة على رأس جميزة عظيمة

فسهر كل من العلامة وكادي في حراسة القبة. اما يوسف فانتهز الفرصة وغرق في سبات مريح مدة اربعة وعشرين ساعة بغير انقطاع

فقال العلامة: هذا الدواء النافع ليوسف اعني بهِ الرقاد فان الطبيعة تأتيهِ بالشفاء من تلقاء نفسها

ولما كان النهار عادت الريح شديدة متقلبة فكانت تهب تارةً نحو الشرق وتارة نحو الجنوب غير انها هبت اخيرًا اخذةً المنصورة الى الجهة الغربية

فتطلع فرغوسن الى الرسوم الجغرافية ورأى انه قائمٌ في مملكة دامرغو واراضي تلك البلاد مفوجة السطح لكنها ذات خصبٍ وريعان وبيوتها مبنية بقصب تتخللهُ اغصان شجرة يقال لها اسكابية وترى فيها المطحنات مرتفعة فوق اخشاب متصلبة وذلك خشية من هجوم الجرذان عليها

وما مضت برهة الّا وصل السواح الى مدينةِ زندر المشهورة بمحل العقاب المتسع القائم فيها فترى في وسطهِ شجرة الموت وكل من مرَّ بفيئها يمسكهُ الجلاَّد الجالس دوامًا عندها ويشنقهُ على تلك الشجرة في الساعة والحال

ثم تطلع الصياد الى البوصلة وقال لفرغوسن : هوذا رجعنا الى طريقنا الشمالية

قال العلامة: لا بأس منها اذا قادتنا الى تمبكتو فان رحلتنا لا تماثلها رحلة توفيقًا ونجاحًا

فقال يوسف وقد مدَّ رأسهُ من خلال ستار الخيمة وامارات السرور على محياه : ولا تماثلها رحلة بتوفيق صحة اصحابها

قال ديك : هوذا صاحبنا الشهم الفريد ومخلصنا الوحيد . كيف حالك يا يوسف

قال يوسف : بالف خير كجاري عادتي وطبيعتي فاني لم ارَ ابداً نفسي منشرح الصدر اكثر مني في هذه الساعة وكيف لا يتنشط من قد تحمم مثلي في بحيرة شاد ثم مشى برهةً لانشراح صدره فما قولك يا سيدي

فقال له العلامة : لله درك من شهم فريد ولكن كم سببت لنا من القلق والغم والرعب والهم

قال يوسف : اتظنّ اني كنت على طمأنينة قلب من قبلكم . كلاَّ بل يمكنكما ان تفتخرا بما سببتما لي من الفزع الشديد

فقال العلامة : اذا قلبت المسألة على هذا النسق فلا نتفق على رأي

قال الصياد : ارى انهُ لم يتغير اصلاً من بعد سقطتهِ

فقال العلامة : ان حبك يا يوسف كان حباً خالصاً لنا وهو الذي نجانا من الهلاك لاننا كنا ساقطين في البحيرة بسرعة كلية وعلى الخط المستقيم فلو غطست المنضورة في الماء من تراه لكان نشلها ونشلنا

قال يوسف : ولكن اذا كان انقلابي الذي تنازلت الى ان تدعوهُ حباً قد . . . خلصكم ألم يخلصني انا ايضاً اذ اننا الثلاثة لا نزال على احسن حال واجود صحة وبالنتيجة فليس لاحدٍ ان يعزى التقصير لنفسه ام لخلافهِ

قال الصياد : سبحان من كوّن طبعك يا يوسف فانك لا تسلم معنا بشيء

فقال يوسف : احسن واسطة للاتفاق انما هي ان ننسى هذه المادة ولا نتكلم عنها لقد جرى ما جرى ان كان قبيحاً ام مليحاً فلا عودة اليهِ

فقال العلامة ضاحكاً · يا لك من عنيد · فعلى القليل لا تتماسك ان تحكي لنا قصتك

قال يوسف : اذا كان لابدَّ من ذلك فعلى الراس والعين ولكن ارغب قبل ان اخبر قصتي في ان اشوي هذا البط المدهن · فاني ارى ان الصياد لم يدع زمانه يذهب باطلاً

فقال لهُ الصياد : ان الامر كما قلت ·

قال يوسف : عن قريب نرى كيف يسلك الصيد الافريقي مع معدةٍ افرنجية

وفي الحال شوى يوسف البط على لهيب القصبة واخذ كلٌّ حصةً اما يوسف فكانت حصتهُ وافرة لانه لم يذق طعاماً منذ بضع ايام وبعد ان شرب الشاي والعرق اخذ يقص ما جرى لهُ من الحوادث والوقائع غير انهُ كان يظهر في كلامهِ نوع من الهيجان والاضطراب لكن لم ينفك ملاحظاً الحوادث بتفلسفهِ الاعتيادي ولما كان يرى العلامة ان يوسف قد اهتمّ في خلاص سيده اكثر مما في نجاة نفسهِ كان يمسكهُ بيده علامة المعروف والشكران وعند ما جرَّه الحديث الى التكلم عن غرق جزيرة البيديوماه فسَّر لهُ فرغوسن كيف ان هذه الحادثة كثيرة الوقوع في بحيرة شاد

ثم وصل يوسف اخيرًا بسياق حديثهِ الى الساعة التي فيها غطس في البحيرة وصرخ صراخ اليأس الاخير

فقال : سيدي لقد ظننت اني ولجت لجة الهلاك ولما اتجهت افكاري نحوك اخذت اصارع واخبط خبطاً شديداً وقد عزمت عزماً ثابتاً بان لا اترك نفسي عرضة للابتلاع بدون مجاهدة ومعاندة · واذا ابصرت شيئاً عن بعد قدمين وما هذا الشيء الّا طرف حبل مقطوع حديثاً فبذلت جهدي وكدي حتى

وصلت الى ذلك الحبل فمسكتهُ ورأيتهُ لا ينجرّ معي فانسحبت عليهِ واذا انا على ارض صلبة وشاهدت مرساة في طرف الحبل. فبالصواب ادعو تلك المرساة (عن اذنك يا سيـدي) مرساة الخلاص فاني عرفتها من مراسي المنصورة ولهذا تبعت اتجاه الحبل الذي دلني الى اتجاه المنصورة وبعد ان كابدت شديد العذاب نجوت من السبخة . فتشددت قواي وتضاعفت شجاعتي فسرت مدة من الليل وانا مبتعد عن البحـيرة ثم وصلت اخيرًا الى طرف غاب عظيم فشاهدت هناك حوشًا ترعى فيهِ خيل وهي لا تفتكر بشي. ففي الحياة اوقات يحسن بها كل انسان ركوب جياد الخيل ويجري كالخيالة فما اخذت قط برهة للتفكر بل وثبت على جواد وشرعت اجري سريعًا الى الجهة الشمالية . فليس لي ان اذكر البلاد التي لم اشاهدها ولا القرى التي تجنبت المرور بهـا بل اقول اني جزت الحقول المزروعة وقطعت الاجام والسياحات وسقت حصـاني وضربتهُ وافرغت جهدي بالاستعجـال فوصلت الى حدود الاراضي المفلوحة وانتصبت البادية امامي فقلت : ولا احلى منهـا لاني ارى ما امامي واراه من بعيد . وكنت اومل دائمًا ان المنصورة تنتظرني فخـاب املي ولم ارَ شيئًا حتى وصلت اخيرًا في برهة ثلاث ساعات الى محطـة عرب ووقعت وقعة الطير في احبولة الصياد وانا كنت المصيد

اعلم يا سيدي ديك ان الصياد لا يعرف قيمة الصيد حتى اصطيد هو بالذات ومع ذلك اذا استطاع فليحترس من مثل ذلك الصيـد . هذا وكان العربان تجدّ في اثري حتى اعيي حصاني واقترب مني احد العربان فانقضضت على فرسهِ وصارعتهُ واخنقتهُ غير اني لم افعل ذلك بغضًا لهُ وعليـهِ اومل انهُ لا يريد لي سوءًا من قبل ذلك وحينئذٍ شاهدتكما وانتما تعرفان بما جرى بعد هذا فقد جرت المنصورة تابعة اثري ونشلتني كالطائر من الارض . ألم يحق لي ان

اثق بكما وبمعروفكما ولباقتكما. امَّا الان فاسألك يا سيدي هل ما جرى ليس شيئاً طبيعياً بسيطاً جدًّا وكثير الوقوع وها انني مستعدٌّ لان اعيد العمل اذا امكنني ان انفعكما بامر من الامور ولكن كما قلت لك سابقاً لا تستحق المسألة ان تكلم عنها

قال العلامة : عافاك الله يا يوسف فانك ذات شمائل وطبائع حسنى ما لها من مثيل ولم نخطيء نحن اصلًا باتكالنا على ذكاءك وفطنتك

قال يوسف : على الانسان ان يتبع جري الحوادث فينجوا من المهالك وعندي ان الطريق الايمن لراحة البال هو اقتبال الامور كما تُقبل الينا

وفيما كان يحكي يوسف قصتـهُ قطعت المنصورة مسافة بعيدة في تلك البلاد ثم اشار ديك الى وجود اكواخ في الجهة الافقية تظهر كانها مدينة فنظر العلامة الى رسومها وعرف انها قرية تجلة في مملكة دامرغو ثم قال سنجد هناك الطريق التي سلكها برث وفيها انفصل عن رفيقيهِ ريشردسون واورويك . فكان ريشردسون متأهباً للمسير في طريق زندر واورويك مستعداً للانطلاق الى ماراذي وكما لا يخفى كما لم يرجع الى اوربا من هولاء السواح الثلاثة سوى برث وحدهُ

فنظر الصياد الى رسم اتجاه المنصورة وقال : فاذًا نحن متجهون نحو الشمال على الخط المستقيم

قال العلامة : نعم نحن متجهون الى الشمال قواماً

قال الصياد : أليس من شان ذلك ان يسبب لك شيئاً من القلق

قال العلامة : ولماذا

قال الصياد : لان هذه الطريق توصلك الى طرابلس فنضطر من جرى ذلك ان نطوف الصحراء الفسيحة

قال العلامة : اومل اننا لا نذهب الى بعيدٍ كهذا ولا بهذه الطريق المشومة

قال الصياد : وهل من نيتك ان تحل بمكان

قال العلامة : قل يا ديك هل ترغب في زيارة تمبوكتو

قال الصياد : تمبوكتو

قال يوسف : اي نعم لا يسوغ لاحد ان يسافر في امصار افريقية وتفوته زيارة تمبوكتو

قال العلامة : فتكون للخامس او السادس بين رجال اوربا الذين زاروا هذه المدينة العجيبة في غوامضها

قال الصياد : فلنذهب اذًا الى تمبوكتو

قال العلامة : ولحالة هذه دعنا نصل الى بين الدرجة السابعة عشرة والثامنة عشرة من العرض وهناك نتوقع ريحًا موافقة تقذف بنا نحو الغرب

اجاب الصياد . نعم الرأي انما هل بقي علينا مسافة طويلة في جهات الشمال

قال العلامة : علينا مسافة مائة وخمسين ميلًا على الاقل

عندها اجاب ديك : ولحالة هذه اودّ ان انام قليلًا

قال لهُ يوسف : نم يا سيدي وانت يا معلمي اقتفِ اثر ديك فانك محتاج للراحة لانني اسهرتك سهرًا زائدًا

فاضجع الصياد في المظلة لما فرغوسن فقلما كان يؤثر فيهِ التعب ولذا لبث راصدًا

وفي برهة ثلاث ساعات كانت المنصورة تجوب بسرعةٍ لا مزيد عليها ارضًا مخصبة تعلوها سلاسل جبال شامخة قحلة وتتخللها بعض اوطاد علوها اربعة الاف قدم وتلعب النعام والظرافة والوعل بخفة وسرعة عجيبة في وسط

غابات من السنط ونبات المستحية والهيلج وشجر النخيل . ثم تلي الفلوات الغامرة ارض كساها ديباج النبات مطرزاً بالانوار والالوان وهو بلاد الكلواص وهؤلاء يلقون على وجوههم براقع من قطن نظير التوارج جيرانهم الذين من يجاورهم لا يأمن على نفسه من الهلكة لشدة شراسة اخلاقهم وغلو توحشهم . في الساعة العاشرة مساء بعد ما قطعت المنصورة تلك المسافة الطويلة وقدرها مائتان وخمسون ميلاً وقفت فوق مدينة كبيرة فكان يرى منها على ضوء القمر قسم بين عامر وغامر وبعض رؤوس مآذن مرتفعة هنا وهناك تضربها اشعة النور فتظهر بيضاء فالعلامة قد اطلع من حساب علو الكواكب انهُ قائم تحت خط عرض اغاد

فكانت هذه المدينة قديماً مركزاً لتجارة وسيعة جداً الّا انها قد بدأت تتقهقر وتخرب قبل ان زارها المعلم برث

اما المنصورة فكانت غير منظورة عن بعد فاستوت على الارض على مسافة ميلين من اغاد في حقل وسيع مزروع ذرة بيضاء وقضوا الليل بسكون وراحة وفي الساعة الثالثة بينما كانت ريح خفيفة تدفع القبة نحو الغرب بجنوب انبلج الصباح

فاسرع فرغوسن في اغتنام هذا الطالع السعيد فارتفع سريعاً وفرّ هارباً

الفصل السادس والثلاثون

في سرعة سير المنصورة وفي الاعمال الصادرة عن حكمة وفي الاثقال وفي الامطار المتراكمة وفي ناو والنهر الاسود والسوّاح كايدّي وجوفروا وغراي ومونغوبرك ولينك وراني كالية وكلابرتون وحون وريشار لندر

فقضي اليوم السابع عشر من ايار بهدوٍ وسكون وبدون عارض مكدر وعادت تظهر المفازة وكانت ريح معتدلة تحمل المنصورة ما بين الجنوب والغرب بدون ان تميل يمنةً او يسرةً بل كان ظلها يرسم على الرمل خطاً مستقيماً لم يشوّههُ ادنى انحراف او اعوجاج

وكان العلامة قبل سفره قد جدد مؤونتها ماء اذ كان يخشى انهُ يمتنع عليها النزول الى الارض في تلك البقاع المستهدفة لغارات التوارج الكثيرة . وكان هناك السهل المرتفع الف وثمانمائة قدم عن شاطىء البحر ينخفض نحو الجنوب واذ قطعوا الطريق المؤدية من اغاد الى مرزوق الممهدة باقدام الجمال بلغوا مساء الى الدرجة السادسة عشرة من العرض والرابعة ونصف من الطول بعد ان يكونون قد قطعوا مسافة مائة وثمانين ميلاً من ارض مستوية مملة

ففي ذلك النهار اتم يوسف اعداد الطعام اخر ما كان عنده من الصيد فأتى للعشاء بشيء من لحم دجاج ارضي مشوي مما يهيج شاهية الاكل لجودتهِ ولذتهِ . اما الريح فكانت تصلح للسفر فعمد العلامة على ان يداوم السير في ليلٍ كان البدر فيهِ تميماً ساطعاً . فارتفعت المنصورة الى علو خمسمائة قدم فسارت ليلاً قاطعةً مسافة نحو ستين ميلاً بهدوٍ وسكينة لا يقلق فيها طفل في النوم

اما في يوم الاحد صباحاً فقد انقلبت الريح فكانت تحمل المنصورة الى

ما بين الشمال والغرب وكنت ترى بعض الغربان تطــير في الهواء وسربة من الشوح تطير بعيدة عنها بعداً عظيماً

فلما نظر يوسف الى هذه الطيور الكاسرة خطر لهُ على بال ان يهنيءُ معلمهُ على ما رآه من الراي المصيب في اتخاذ مركبتين هوائيتين الواحدة ضمن الاخرى

فقال : كيف ترى كان حالنا لو كنا في ملفٍ واحد ٠ لعمري ان هذه المركبة الثانية هي بمنزلة قارب في البحر توقي الركب من الغرق عند انكسار السفينــة

اجابهُ معلمهُ : اصبت يا صاح غير انني لا اركن الى قاربي كل الاركان لانهُ لا يساوي المركب

قال ديك : وما معنى قولك هنا

قال : معناي ان المنصورة الجديدة لا تسوى القديمة اما لان قماشهــا قد بُري واما لان صمغها قد ذاب على حرارة الانبوبة فاني تحققت تلفاً في الغــاز ليس بكثير الى الان انما معتبر وقد اخذت القبــة بالميل الى الهبوط وقد اضطررت لتثبيتها الى ان ازيد الادروجن تمدداً

قال ديك : لا حول ولا قوة الّا بالله فاني لا ارى علاجاً لهذا الخلل

قال العلامة : بالحقيقة لا علاج لهذا الداء ياصاحبي ديك ومن ثم يحسن بنا ان نسرع في المسير ونتحاشى من وقفات الليل

قال يوسف : أنحن بعيدون من الساحل حتى الان

قال العلامة : اي ساحلٍ يا ولدي وهل نعلم الى اين تحملنــا التقادير فكل ما يمكنني ان اقول لك هو ان تمبوكتو تبعد عنا مســافة اربعمائة ميل نحو الغرب

قال : وكم من الزمان يلزمنا للوصول اليها

قال : ان ساعدتنا الريح وصلنا الى تلك المدينة يوم الثلاثاء مساء

فعندها اشار يوسف الى سربة بهائم واناس منسربة في الفيافي وقال : اذًا نصل اليها قبل هذه السرب

ثم انحنى فرغوسن وديك ونظرا خليطاً كبيرًا من كل نوع فكان هناك اكثر من مائة وخمسين جملًا يؤجر الواحد بمائة وخمسة وعشرين فرنكاً من تمبوكتو الى تافيلة حاملًا قنطارًا على ظهره وكلٌّ من الجمال تحت ذيله جراب يلتي فيه بعرهُ لكي يشعلوهُ في البرية اذ ليس للجمالة وقود خلافه في الفلوات

اما جمال التوارج فهي من البابة الاولى وتصبر على الظماء من ثلاثة ايام الى سبعة وتسير يومين بدون اكل وهي اسرع من الخيل عدوًا وتطيع بحذاقة صوت الخبير الذي هو قائد القافلة فتعرف في البلاد باسم مهاري . فبينما كان العلامة فرغوسن يقص هذه القصص كان رفيقاهُ يحدقان بنظرهما الى ذاك الجمهور الغفير من رجال ونساء واولاد يسيرون بعناء على كثائب رمل رخو تغرق فيه اقدامهم ولا يتخللهُ الّا قليل من العوسج والاخشاب الجافة والطيق النابت في بعض محالهِ وكانت الريح تذري الرمال وتمحو اثار خطواتهم حالًا بعد تخططها

فسأل يوسف : كيف تتوصل العربان الى معرفة الطرقات ويتمكنون من وجود الابار المتفرقة في تلك الفلوات الفسيحة

اجاب فرغوسن : ان العربان قد زينت الطبيعة عقولهم بذكاء غريزي يهديهم في سبيلهم . فالمحال التي يتوقف عن السير فيها الاورباوي تحيرًا وارتباكاً تطوفها العربان بهدًى وطمانينة فيتخذون لهم علائم في الطريق

م ارشاداً في المسير وتكون هذه العلائم اشياء طفيفة كحجر او ضمة عشب او اختلاف لون الرمل وهلمَّ جرًّا

وفي الليل يجعلون الكوكب القطبي دليلهم في الطرقات . فيقطعون مسافة اقل من ميلين في الساعة ويستريحون في الهاجرة . فانظر الان ما يلزمهم من الزمن لقطع الصحراء وهي مفازة طولها اكثر من تسعمائة ميل . اما المنصورة فقد كانت توارت عن ابصار العربان وقد اولتهم الدهشة من سرعة مسيرهـا ودُّوا لو ماثلوها جريًا . فعند المساء بلغت الدرجة الثانيـة وعشرين ثانية من الطول وقطعت في الليل مسافة اكثر من درجة

واليوم الاثنين قد انقلب الفلك انقلاباً تاماً فاخذت الامطار تنهمل وبلًا فزادت القبة والقـارب ثقلًا ازعج السواح وعن مثل هذه الامطار الشديدة قد نشأت البحيرات ومستنقعات المياه المغشية سطح تلك البلاد وفيهـا من النبات الشجرة الغناجة والبوباب والتمر الهندي

فهذه حالة بلاد صُنراي وقراها المعممة باسطحة مقلوبة تماثل القبعـات الارمنية فقلَّ ما فيها من الجبال . الّا انه توجد فيهـا تلال بينها غدران وبرك مياه تخطها طيور الدجاج الارضي والغرغرة وهي طائرة على سطحها وترى هنـا وهنالك سيول سريعة الجري تقطع الطريق فيلتزم المسـافرون ان يجوزوها متمسكين بحبل مركَّب من افانين الاشجار القائمة على جانبي السيول وممدود من جهةٍ الى اخرى وغابات مراتع للتماسح والاوعال والخراطيط

قال العلامة : اوشكنا ان نرى نهر النيجر اي الاسود فان البلدان تتغير هيئتها بقرب الانهار . لان الانهر طرقات جارية كما قيل وجارَّة وراءها الخصب وفيما بعد تأْتي بالتمدن والفلاح هكذا قد بزر النهر الاسود على جانبي مجراه البـالغ الفين وخمسمائة ميل اكبر مدن افريقية واعظمها اهمية وعمرانًا

فاخذت يوسف حركة العجب وقال: ان هذا يذكرني قصة من كان يتعجب من حسن العناية الالهية ويثني عليها جميل الثناء لانها اهتمت فاجرت الانهار في وسط المدن الكبيرة او بالقرب منها مع ان الانهار جرت مجراها قبل ابتناء المدن •

فكانت المنصورة في الظهيرة تسير فوق قرية غاو وهي الان مجموع اكواخ حقيرة مع انها كانت في القديم مدينة معتبرة بل قاعدة البلاد

قال العلامة: هنا قد عبر برث النهر الاسود لدى عودتهِ من تمبوكتو. هوذا النهر الشهير في الاعصار القديمة بشهرة نهر النيل الذى اعزي الحنفاء منشاءهُ الى الالهة وقد اشغل نظير نهر النيل افكار الجغرافيين في كل زمان وتكلف الباحثون عنهُ مشقات كبيرة وتعرضوا لاخطار وفيرة كما تكلف الباحثون عن النيل

وكان النهر الاسود يجري بين ضفتين منفرجتين وتحدر مياههُ نحو الجنوب انحداراً شديداً اما السواح فكادوا لا يميزون عرجاتهِ العجيبة

قال فرغوسن: اني لاريد ان اخاطبكم عن هذا النهر ولو كان الان بعيداً منا جدًّا فانهُ يجوب بلداناً شتى ويسمى تارةً نهر الدواليب وتارةً نهر المايو وطوراً نهر قُرًّا وفي بعض محال يدعى باسماء أُخر وكاد يوازي النيل بطول مجراهُ . وكل هذه الاسماء معناها النهر في لغات البلدان التي يجتاز بها

قال كادي: لعلَّ المعلم برث سار هذا المسير

قال ديك: كلاَّ بل لما بارح بحيرة شاد مرَّ باكبر مدن البرنو واتى فعبر النهر الاسود في صاي وهي على مسافة اربع درجات تحت غاو ثم ولج اواسط تلك البلدان التي لم يكن تجسسها احدٌ وكان النهر يحدق بها بعوجاته وبعد ما قاسى اتعاباً جديدة مدة ثمانية اشهر وصل الى تمبوكتو. اما نحن فاننا نبلغ

اليها باقل من ثلاثة ايام ان ساعدتنا الارياح

فقال يوسف: هل عُرفت ينابيع النهر الاسود

اجابهُ العلامة: منذ زمنٍ مديد قد رغب رجال كثيرون في الاكتشاف على النهر الاسود والنهيرات الصابة فيهِ ويمكنني ان اذكر لك اخصهم فمن سنة ١٧٤٩ الى سنة ١٧٥٨ عرف ادمسون النهر وبلاد غورا. ومن سنة ١٧٨٥ الى سنة ١٧٨٨ جاب غولباري وجوفروا بلاد ستيغمبي وصعدا حتى بلاد المغاربة الذين قتلوا صونية وبريسون وآدم وريلاي وكوشله وكثيرين غيرهم ممن ساوا حظاً وهلكوا في تلك الامصار ولحق بهم موتغوبرك الشهير خليل ولترسكوت وابن وطنهِ الاكوسي. فهذا بعثت بهِ الشركة الافريقية من لندرة سنة ١٧٩٥ الى تلك الاطراف فبلغ الى عبارا ونظر النهر الاسود وقطع مسافة خمسمائة ميل برفقة احد تجار العبيد وعرف نهر غمبيا وعاد الى لندرة سنة ١٧٩٧. ثم عاد فسافر في ٣٠ ك ١ سنة ١٨٠٥ برفقة صهرهِ اندرسون وسكوت المصوّر وجماعة من الفعلة فوصل الى بلاد غورا فهناك ضم الى جماعتهِ فرقة عددها ٣٥ جندياً ورجع ينظر النهر الاسود في ٣٠ آب غير انهُ لم يبقَ في قيد الحياة من الاربعين اوربياً الّا احدى عشر نفراً والباقون قد هلكوا من جراء ما قاسوهُ من المشاق والرزايا وسوء الهواء وقلة الضروريات. في ١٦ ت ٢ بلغت اخر رسائل مونغوبرك الى زوجتهِ وغب سنة اخبر احد التجار من تلك الاطراف انهُ لما وصل الى مدينة بوصا الكائنة على النهر الاسود في ٢٣ ك ١ انقلب فيهِ القارب بميازيب النهر ثم نجا من الغرق الّا انهُ وقع بين ايدي سكان تلك البلاد فقتلوهُ

قال ديك: الم توقف مثل تلك المبيتات التعيسة رود الرائدين الراغبين في اكتشافات جديدة

قال العلامة : كلاَّ بل اضحت لهم مهمازًا حضهم ليس على البحث عن النهر فقط بل على طلب اوراق المقتول ايضًا . ومن ثم قد اعدُّوا في لندرة سنة ١٨١٦ رسلًا لتلك البلاد وكان من جملتهم الضابط غراي فوصل الرسل الى سنغال ودخلوها في فوتادجالون وزاروا شعوب فولا ومندينك ثم اخذوا بالعود الى انكلترة بدون نتيجة أُخرى . وسنة ١٨٢٢ تجسس الضابط لينك كامل لمصار افريقية الغربية المجاورة املاك الانكليز وهو اوَّل من وصل الى ينابيع النهر الاسود فبناء على تقريراتهِ ليس لمنبع هذا النهر الكبير الَّا عرض قدمين

قال يوسف : وما ايسر قفزهُ

قال العلامة : مهلًا ياصاح ان صدقت التقليدات كل من حاول مجاز ذاك الينبوع قافزًا ابتلعتهُ المياه في الحال ومن رام ان يستقي منهُ ماء منعتهُ عن الاستقاء يدٌ غير منظورة

قال يوسف : هل تُحرّم علينا عدم الاعتقاد بكلمة من مثل تلك التقليدات

قال العلامة : ليس بحرام قط اما الضابط لينك فقطع سنة ١٨٢٧ فسيح الصحراء ودخل تمبوكتو ومات مخنوقًا من اولاد سليمان المحين عليهِ بالاسلام دون نيل اربهم ولما قُتل لم يبعد عن تمبوكتو الَّا مسافة بعض اميال

قال الصياد : ويلاهُ هاك ضحية اخرى ضحوها

قال العلامة : فحينئذٍ قام واحد من صناديد الشبان وعمد على اتمام ما كان اعجب واهول الاسفار الحديثة مع قلة ما كان لهُ من الوسائط والمال لنفقات السفر وهو الافرنسي راني كاليه . فبعد ما حاول مرارًا مباشرة هذا السفر سنة ١٨١٩ وسنة ١٨٢٤ اعاده في ١٩ نيسان سنة ١٨٢٧ من ريونونياس وفي ٣ آب وصل الى تيه مضنوكًا منهوكًا من التعب والمرض حتى

انه لم يعاود السفر الّا في كانون الاول سنة ١٨٢٨ اي بعد ما شرع بهِ بستة اشهر . فانضم حينئذٍ الى قفلٍ لابساً ثياباً شرقية تقيهِ عن اخطار الهلكة . فبلغ النهر الاسود في ١٠ اذار ودخل مدينة جنه وركب النهر حتى تمبوكتو فوصل اليها وترل فيها في ٣٠ نيسان . وربما كان قد شاهد تلك المدينة العجيبة افرنسي اخر يقال لهُ ايبر سنة ١٦٧٠ وانكليزي يُسمى وبرث آدم سنة ١٨١٠ غير ان راني كالية يُعدّ اوّل اوربي اتى باخبــار يقينة عنها . ففي ٤ ايار بارح تلك المدينة سلطانة البرية وفي ٩ منهُ عرف المحل نفسهُ الذي فيهِ قُتل الضابط لينك وفي ١٩ وصل الى الهروان وبارح تلك المدينة العامرة بالتجارة وجاز تلك الفيافي الرحيبة الواقعة بين بلاد السودان وامصار افريقية الشمالية مقتحماً فيها اخطاراً شتى . اخيراً بلغ الى تجرو وفي ٢٨ ايلول سافر الى تولون . والحاصل انهُ في مدة تسعة عشر شهراً جاب افريقية من غربيها الى شماليهــا معها قاساه من المرض مدة مائة وثمانين يوماً . ولعمري لو كان كالية قد وُلد في انكلترة لكافوه بما يستحق من الاكرام والشرف ابسل السواح في هذه الايام كما كافوا الانكليز ابن وطنهم منغوبرك لكنهُ لم يُعتبر في فرنسا الاعتبار الذي حقّ لهُ

قال ديك : نعم الرجل وحبذا لو كان رفيقاً لنا . ولكن ترى ماذا حلّ بهِ

قال العلامة : انهُ توفي وهو في عمر ثمان وثلاثين سنة من جراء ما قاساهُ من الاتعاب فظن الفرنسيس انهم وفوهُ حق الكرامة بمنحهم اياهُ جائزة الشركة الجغرافية سنة ١٨٢٨ فلو كان في انكلترة لقد أُتحف بجزيل الاكرام وسامي الاجلال ونال حسن السمعة . فبينما كان مباشراً هذا السفر العجيب عمد احد الانكليز على هذا العمل نفسهِ واقدم عليهِ نظيره ببسالة ولكنهُ لم ينجح نظيره وكان القبطان كلابرتون رفيق دنهام فتوصل سنة ١٨٢٩ الى افريقية من الجهة الغربية في خليج بانين . واخذ يســير على اثار مونغوبرك ولينك ووجد في بوصه

الافادات المتعلقة بوفاة اولهما ووصل في آب الى سكاتو وهناك قُبض عليهِ وحجز اسيرًا وقضى نحبهُ بين ايدي خادمهِ الامين ريشار لاندر

فسأل يوسف ماذا جرى للاندر وكان يهمهُ الاطلاع على امرهِ

قال العلامة: قد تيسر لهُ الاتيان الى الساحل ومن هناك عاد الى لندرة ومعهُ اوراق القبطان وتقرير مدقق عن سفره الخصوصي فاعرض حينئذٍ خدامتهُ للدولة في اتمام اكتشاف النهر الاسود فسافر واخذ معهُ اخاهُ جون وهو ثاني ولد لعائلة فقيرة من بلد كورنوايل فسافر كلاهما في النهر فقطعاهُ من بوصا حتى مصبهِ وحررا طولهُ ميلًا فميلًا واطلعا على اريافهِ قريةً فقريةً وبقيا في هذا السفر من سنة ١٨٢٩ الى سنة ١٨٣١

قال ديك: فالمفهوم اذًا من قولك ان هذين الاخوين نجيا من الهلكة وعادا الى اوطانهما سالمين خلافًا لما اصاب عموم المسافرين الى تلك الجهات

قال العلامة: نعم توفقا في هذا السفر غير ان ريشار قد سافر مرة ثالثة الى النهر الاسود سنة ١٨٣٣ ولما بلغ الى قرب مصب النهر هلك بطلقة بندقية لم يُعرف مطلقها. فرأيتما اذًا يا خليليَّ ان البلاد التي نجتازها قد شاهدت من تساموا بسالةً ونشاطًا وكانت المنية واحسرتاهُ على الغالب جزاء هممهم الخطيرة ومروَّتهم الكبيرة

الفصل السابع والثلاثون

في البلاد التي في عرجات النهر الاسود . وفي منظر جبال اومبري العريب . وفي كابرة وتمبكتو . ورسم المعلم برت . وسقوط المدينة عن رونقها القديم والسير على رحمة الهواء

وكان العلامة فرغوسن مدة ذلك النهار المكرب نهار الاثنين يسلي رفيقيه بقصه عليهم قصصاً شتى عن البلاد التي كانوا يجتازون بها وكانت ارضها مستوية على الاكثر لم تأتهم بصعوبة في مسيرهم . ولم يكن شيء يكدر صفا بال المعلم الّا تلك الريح المشومة التي كانت تهب عاصفة من الشمال الشرقي وتبعدهم عن عرض تمبوكتو . اما النهر الاسود فيجري شمالاً حتى يصل تلك المدينة ثم يدور كأنهُ فوار ماء كبير ويصب في البحر الاطلنتيك متفرقاً خصالاً منفرجة جدًّا . اما الاراضي التي يكتنفها النهر في عرجاته فمنها عامرة بهية بالخصب ومنها غامرة قاحلة كل المحول . فتلي السهول البائرة حقولاً رحبة يكسوها ديباج المزروعات او بساط الرتم . وفي أرياف السيول والبطاح والبحيرات تعيش بكثرة جميع انواع الطيور العاشقة المياه كالبجع والاوز والبط والصنصن وما شاكلها

ويُرى كل مدة محطة من محطات التوارج المنجعين ضمن مظال من اديم فيما تتفرغ نساؤهم للاشغال الخارجة ويحلبن نوقهنَّ ويشربنَ دخان التبغ بغلايين كبيرة المواقد

اما المنصورة فكانت نحو الساعة الثامنة مساء قد تقدمت مسافة ما ينيف عن مائتي ميل نحو الغرب فشاهد حينئذٍ السواح مشهداً جميلًا اوعب قلوبهم عجباً وابتهاجاً

وهو ان بعض اشعـة من القمر نفذت من خلال الغيوم وانبلجت بين اعاليل السحب وسطعت على جبال همبري فجاءت عليهـا بمنظر ثياب بيضاء كالثلج لم يرَ كمنظرهِ في مفاعيل النور. ثم تألفت في الفضاء القاتم بهيئـة اشباح كانها اطلال مدينة كبيرة دارسة من بناء العصر المتوسط كما تظهر في الليالي الداجية اكداس الجمد في البحور الجلدة

قال العلامة : هوذا منظر من مـاظر اسرار اودلف لعمري ان المصوّر ردكليف لم يقدر ان يصوّر هذه الجبـال بمنظر اغرب واهول من المنظر الذي نعاينهُ الآن

اجابهُ يوسف : وحياتي اني لا احب ان اسير وحدي مساء في هذه البلاد الموعبة اطياقاً واشباحاً أترى يا معلمي لو لم تكن هذه البقعة ثقيلة لحملتها الى بلدي واقتها على شاطئ بحيرة لوند فتتقاطر اليها النقاشون والمتفرجون اجواقاً اجواقاً

قال العلامة : ان قبتنا لا تسعها حتى تشغل بالك بهذا الفكر الشاذ غير انني ارى ان اتجاه مسيرنا قد انقلب فلا عاد عفاريت هذا المكان يعارضونـا بل انهم ينفخون لنا ريحاً لطيفة تهب من الجنوب الشرقي فتحملنـا الى طريق حسنة

وبالحقيقة عادت المنصورة تسير في طريق تميـل الى الشمال . وفي اليوم العشرين صباحاً مرّت فوق جديلة اقنيةٍ ونهيراتٍ وغدران تصب جميعهـا في الانهار الصابة في النهر الاسود وكثير من هذه الاقنية مغشـاة باعشاب كثيفة كأنها مراعٍ دسمة فهناك اهتدى العلامة الى الطريق التي سار فيها برت حينما سافر في النهر قاصداً غوكتو. وعرض النهر ٤٫٨٠٠ قدم وعلى ضفتيهِ كثيرٌ من شجر الصبار والتمر الهندي فترتع بهِ سرب الايل وتتلبك قرونها لحلقة بين الكلاء

فيرصدها التمساح ليثب عليها ويفترسها

وكنت ترى اقفالاً كثيرة من حمير وجمال تنسرب تحت الاشجار الجميلة محمولة بضائع واردة من جنة وبعد هنيهة ظهر على عوجة من عوجات النهر جوقة بيوت منخفضة مبنية في منحدرٍ وعلى اسطحتها كدسان علف للدواب أُوتي بهِ من الاراضي المجاورة

فلما نظرها العلامة أخذتهُ حركة الابتهاج فهتف قائلاً : هذه كبرى وهي مرفأ تمبوكتو فلم تعد المدينة بعيدة عنا اكثر من خمسة اميال

قال يوسف : فطبتَ اذاً نفساً يا سيدي

قال العلامة : قد انشرح صدري يا ولدي وابتهج فؤادي

قال يوسف : الحمد لله على توفيقهِ

وها تمبوكتو سلطانة البرية مدينة الخفايا والغرائب التي حازت كأتينا وروما بمدارس العلماء والفصحاء والفلاسفة قد أخذت تجلي شيئاً فشيئاً لابصار السواح

وكان فرغوس يتأمل الرسم الذي اتخذهُ برث نفسهُ في سفرهِ وحقق غاية صحتهِ وحقيقتهِ

فرسم المدينة على هيئة مثلث الزوايا فهي منبسطة على سهل رحيب من رمل ابيض ورأسها المتجه نحو الشمال نافذ في جهة من الصحراء . وكاد لا يكون شيء من الاغراس في دوائرها الّا بعض اشجار ذات زهر ونبات الغناجة وغيرها من نباتات مهذولة صغيرة

اما منظر تمبوكتو فهو كمجموع كرات وكعبات تظهر بديهاً لعين الناظر. فشوارعها ضيقة وعلى جانبيها بيوت ليس لها الّا طبقة سفلية مبنية باجر ميبس على الشمس وبعض اكواخ من قش وقصب منها بشكل مخروط ومنها مربعة . وعلى الاسطحة ترى بعضاً من سكانها مضجعين اضجاع المرطلين الكسالى

متزرين بكساء بهي ثمين وبايديهم القناة او القربينة . اما النساء فلا يُنظرنَ في تلك الساعة من النهار

قال العلامة : قيل ان النساء جميلات المنظر . فلم يبقَ آثار من المدينة القديمة سوى ثلاثة مآذن لثلاثة جوامع لان المدينة قد سقطت كثيراً عن رونقها السالف . ففي الرأس المثلث الزوايا ترى جامع سنكور وايوانهُ الطويل المسنود على قناطر ليست بخاليةٍ من جمال البناء ونظامهِ وعلى مسافة منها بالقرب من حي سانغونغو جامع سيدي يحيي وبعض من الدور على طبقتين . فعبثاً تفتش في المدينة على قصور وبنايات كبيرة فشيخها تاجر بسيط ومنزلهُ الملوكي ما هو الّا مكتبهُ التجاري

قال ديك : كأني ارى اسواراً مهدومة من باب النصف

اجابهُ العلامة : نعم قد دكها الفولانيون سنة ١٨٢٦ وكانت المدينة وقتئذٍ اكبر مما هي الآن من باب الثلث لان تمبوكتو كانت منذ القرن الحادي عشر هدفاً لسهام مطامع شعوب كثيرة فتحها التوارج والصنراويون والمغاربة والفولانيون وكانت مركزاً كبيراً للتمدن والفلاح وكان فيها للعلاَّمة احمد بابا في القرن السادس عشر مكتبة تحوي الف وستمائة كتاب خط يد . اما الان فليست سوى مخزن تجارة افريقية الداخلية يدل ظاهر حالها على انها أُسلمت لرحمة المتوانين وأُصيبت بداء التهاون الآتي منهُ زوال المدن واضمحلالها وتكدَّس فيها الردم حتى لا ترى على سطح ارضها المستوية محال مرتفعة الّا تلك التي زكم فيها ذلك الردم القاضح

فلما مرت المنصورة فوقها قد بدا فيها بعض الحركة بل وضُرب بالطبل غير ان من كان من اهلها على شيء من العلم لم تسنح لهُ الفرصة المناسبة لمراقبة هذه الحادثة الجديدة اذ دفعت الريح الشديدة السوَّاح نحو المفازة فعادوا

يسيرون فوق مجرى النهر الكثير العرجات ففي الحال توارت عنهم تمبوكتو ولم يبقَ لهم منها الّا ذكرها

قال العلامة : اما الان فليذهب بنا المولى الى حيث يشاء

اجاب ديك : اللهمَّ بشرط ان يسير بنا نحو الغرب

قال يوسف : لو عدنا الى زنجبار في الطريق التي اتينا بها او جزنا بحر الاوقيانوس حتى امريكا لما كنت اخشى ضرًّا

قال العلامة : ولكن يا يوسف لكان يلزمنا اولاً ان نستطيع سبيلًا الى ذلك السفر

قال يوسف : ترى ما الذي يعوزنا لمباشرته

قال العلامة : يا ولدي يعوزنا الغاز لان قوَّة التصاعد في القبة أخذت تخفض شيئًا فشيئًا فيلزمنا اخذ احتياطات كبيرة لكي تحملنا الى الساحل . فاوشكت ان اضطر الى ان اطرح شيئًا من الصبورة . لاننا ثقالٌ ثقلًا زائدًا

قال يوسف : هاك يامعلمي ثمرة البطالة والمكث النهار بطولهِ كمن يضجع في ارجوحتهِ . فنسمن ونضخم ونثقل . فان سفرنا هذا من اعمال الكسالى فمتى عدنا الى انكلترة ارعبنا من نظرنا بسمننا وضخامتنا

اجاب الصياد : لعمري ان مثل هذه الملاحظات لا يأتي بها الّا يوسف ولكن مهلًا يا يوسف مهلًا انتظر النهاية أتعلم ماذا يقدّرهُ الله علينا . لم نزل بعدُ بعيدين من منتهى سفرنا ما رأيك يا صموئيل اين نصادف ساحل افريقية

قال العلامة : انني قاصر جدًّا عن مجاوبتك ياديك لاننا مسلمون الى رحمة رياح متقلبة . غير انني احسب نفسي سعيدًا اذا وصلت الى ما بين سيارة ليوني وبورتنديك . فهناك بلدان واسعة لا بد من ان نصادف فيها بعضًا من الاصدقاء

قال ديك: وما اوفر سرورنا عند ما نقابلهم ونهديهم التحيات الودادية ، ولكن ترى هل اننا سائرون الى الجهة المطلوبة

قال العلامة: لسنا تماماً على ما ينبغي من المسير . هاك البوصلة فترانا سائرين الى الجنوب وذاهبين الى ينابيع النهر الاسود

قال يوسف: لكانت هذه فرصة جميلة لاكتشافها لو كانت لم تزل مجهولة . ألا سبيل لنا ان نكتشف لها ينابيع اخرى

قال العلامة: كلاَّ ولكن كن مرتاح البال يا يوسف اني اؤمل ألَّا نتقدَّم الى ذلك الحد

فلما اظلم الظلام رمى العلامة بما بقي من أكياس الصبرة لان القبة لم تحتملها مع اشتعال آلة الغاز الى اعلى درجة . فكانت القبة وقتئذٍ سارت ستين ميلاً في جنوب تمبوكتو وفي اليوم الثاني اصبحت على شاطئ النهر الاسود بالقرب من بحيرة ديبو

الفصل الثامن والثلاثون

في قلق العلامة فرغوسن . وفي الجراد وفي انقلاب الريح

فكان مجرى النهر وقتئذٍ منقسمًا الى فروع ضيقة سريعة الجري لوجود جزائر شتى في وسطهِ وكانت احداها تحوي بعض اكواخ للرعاة. الّا انهُ لم يكن يتيسر للسياح رسم ما كان على طريقهم بوجه الضبط والتدقيق لازدياد سرعة مسير المنصورة ولسوء حظهم قد كانت مائلة للجنوب اكثر من ذي قبل وجازت بحيرة دابو ببرهة وجيزة

اما فرغوسن فكان ينقل القبة الى درجات مختلفة من العلو ليحكمها في مجاري ارياح غير التي كانت تحملها. الّا انهُ لم ينجح في عمليتهِ ومن ثم قد ترك حالاً هذه المحاولة الزائد من قبلها تلف الغاز بداعي شدهِ على جوانبها المنهوكة بالارياح . فاستولى عليهِ قلق جسيم لكنهُ وارى اماراتهِ صامتًا . وكانت الريح تلازم دفعها الى جهات جنوبي افريقية وتوقع خللًا في حساباتهِ . اما هو لم يعد يدري بمن او بما يعتمد عليهِ فان لم يبلغ الاراضي الانكليزية او الافرنسية وقع في ايدي البرابرة الشائنين الاغارة على سواحل غويني والله اعلم بما يصيبهُ هنالك من البلايا والرزايا . فلا يعود يتيسر لهُ سفينة يعود بها الى انكلترة . وكانت الريح تقذف بهِ نحو مملكة داهوماي في وسط قبائل فاقت جميع الملاء توحشًا وفظاظةً فيُترك هناك الى رحمة ملك يذبح في الاعياد للجمهورية الوفًا من البشر ضحايا لالهتهِ فمن وقع في تلك البلاد ذهب لامحالة فريسة الهلاك

وكانت القبة من جهةٍ أخرى تعيي اعياء ظاهرًا في مسيرها ولم يخفَ امرها على العلامة لكنهُ كان يؤمل انهُ متى قشع السحاب وانقطع المطر تنقلب

مجاري الهواء في الجو الى ما يُحسن جريها فساءَهُ اذًا ما انبأهُ بهِ يوسف عن حالة الفلك بقولهِ :

هوذا المطر اوشك ان يتضاعف هطلهُ ويكون هذه المرة طوفانًا عرمرمًا على ما تبشر هذه السحب المقبلة

قال فرغوسن : لا حولَ ولا قوةَ الّا بالله أسحبٌ هي حقًا وما حاجتنا اليها

فقال ديك . لعمري انها سحبٌ كثيفة

قال يوسف : وحياتي لم تَرَ مثلها قط ولها اطرافٌ حادة كأنها مخططة على الزيح

ثم أخذ العلامة النظارة ونظر اليها واذ رفع النظارة قال : قد اطمأن قلبي لانها ليست بسحب

قال يوسف : لله العجب . أليس هذا بسحاب

قال العلامة : هذ ليس بسحاب بل ضباب

قال يوسف : ما فرق الضباب عن السحاب

قال العلامة : لعا ضبابٌ من جراد

قال يوسف وقد أخذتهُ هزة العجب : أهذا جراد

قال العلامة : ان مليونات بمليونات من الجراد اوشكت ان تمر بهذه البلاد فالويل لها ان غطت عليها لقد جعلتها فريسة الدمار

قال يوسف : اني لراغب ان ارى مثل ذلك

قال العلامة : مهلًا يا يوسف فمن الان الى عشر دقائق يدركنا هذا الضباب فتراهُ بعينيك . وقد اصاب العلامة فرغوسن بقولهِ هذا لان سحابة هذا الجراد الكثيفة المنتشرة الى مسافة اميال كثيرة وصلت سريعًا الى السواح وهي تدوي دويًا يصم الاذان وتلقي على الارض ظلها الطويل فكانت

جيوشًا لا يحصى عددها من جراد ذات اربعة اجنحـــة . فعلى مسافة مائة قدم من المنصورة انصبت على بلدةٍ مخضرة فمـــا مضى ربع ساعةٍ من الزمان الّا وسحابة الجراد عادت تطير فنظر السواح عن امدِ الاشجار والاجام مجردة من كل خضراء وغراء والحقول معراة وقد امست المروج لا عشب لها . فـــكأن فصل الشتاء قد فاجأ تلك البقعة فغرقها في اقصى المحل والجذب

ثم قال : أرأيت يا يوسف ما كان من هذا الجراد

قال يوسف : ان ذا غريب لكنهُ طبيعي فكما ان جرادة واحدة تتلف يسيرًا كذلك ربوات من الجراد تتلف كثيرًا

قال ديك : وانهُ لمطرٌ وابل بل مهول وأهول من البرَد الشديد دمارًا

قال العلامة : وأهول من هذا جميعه محال التوقي منهُ . احيانًا رأى الاهلون حرق الغابات حتى والمزروعات لكي يتمكنوا من اهلاك هذه الهوام ولـــكن لم ينجحوا كثيرًا بهذه الطريقة لان الرفوف الاولى تنقض على اللهيب فتغشيـــه وتطفئه . اما الباقية منها فيمررنَ فوقها بغير صعوبة ولا معارضة غير ان الاهلـــين يستفيـــدون من هذا المصـــاب بعض العوض عما ينالهم من الرزايا وهو انهم يلتقطون كثيرًا من هذه الهوام ويأكلونها فيستعذبونها مأكـــلًا

قال يوسف : اني اشبههُ بالقريدس الذي في البحر واتأسف لعدم تمكني من ذوقهِ لاعلم كيفية هذا الطعام

وكانوا يرون البلاد عند المساء ترداد سباخًا فلم يعودوا ينظرون غابات بل بعض شعبٍ من الشجر . وعلى ضفتي النهر بعض نبـــات من التبغ ومروجًا ذات عشب كثيف لرعاية المواشي . في وسط جزيرة كـــبيرة لحوا مدينة جنة ومأذنتي جامعيها واشتمّوا الرائحة الكريهة المنبعثة من الوف بالوف من اوكـــار السنونو المنحشرة في اسوارها وفي خلال بيوتهـــا ونظروا رؤوس اشجار البوباب

والغناجة والنخيل . اما اهلها فانهم ذوو عزم وهمة ونشاط لايزالون النهار والليل في العمل ومدينتهم جنة وسيعة الدائرة وكبيرة الحركة التجارية فتاتي تمكتو بكل ما يلزمها وتنقل اليها على القوارب بالنهر وعلى ظهور الجمال في الطرقات المظللة بالاشجار جميع محصولات صنائعها

قال العلامة: فلولا الحذر من اطالة سفرنا لحاولت النزول في هذه المدينة فلا بد من ان يوجد فيها من العربان من سافروا الى فرنسا وانكلترة فلعلهم لايستغربون مركبتنا انما هذا لا يخلو من خطر

قال يوسف وهو يتبسم: فلنأجلنّ هذه الزيارة الى سياحتنا القادمة

قال العلامة: وزد على الخطر . . . اني اشعر بميلة خفيفة للريح ليهب من الشرق فمن الواجب ان تغتنم هذه الفرصة

فرمى العلامة من المنصورة ببعض اشياء امست غير مفيدة كبعض قناني فارغة وصندوقاً يوضع فيه لحم لم تعد حاجة اليه وتوصل الى انهُ اقام المنصورة في منطقة انسب للمسير الى حيث يشاء . في الساعة الرابعة صباحاً كانت اشعة الشمس تضيء سغو وهي عاصمة بمبارا المعروفة جيداً بالاربع المدن التي تتألف منها وبجوامعها المزخرفة وبتوارد القوافل الناقلة بلا انقطاع سكان المدينة من محل الى اخر. اما السوّاح فلم يُنظروا اكثر مما نظروا فكانوا يفرون بسرعة وعلى الخط المستقيم الى الجهة الشمالية الغربية . فأخذ العلامة يطمأن قليلاً قليلاً من قلقه وبلباله فقال : ان بقينا نسير الى هذه الجهة وبهذه السرعة وصلنا بعد يومين الى نهر سنغال

فسألهُ الصياد : هل تكون في بلاد امينة

قال العلامة: ليست امينة بالتمام انما اذا نقصتنا المنصورة نستطيع بالحصر ان نصل الى منازل فرنسوية . وان سارت بعدُ مسافة بعض مئات من الاميال

فاننا نصل آمنين من الاتعاب والمخاوف والاخطار الى الساحل الغربي

قال يوسف: أنكون انتهينا من السفر. حاشا لنا فلولا رغبتي في ان اقص قصة سفري لما شئت قط ان القي قدميّ على الثرا. هل ترى يا معلمي يصدق الناس قصصنا

اجابهُ العلامة: ما ادراك يا صاحبي ان كانوا يصدقونها. لكنها لا تزال صادقة اكيدة ان صدقوها ام لا. فيكون عندنا الف من شهودِ عيان يشهدون بسفرنا من ساحل افريقية الشرقي والف يروننا واصلين الى الساحل الغربي

قال ديك: ولحالة هذه فاني ارى امرًا عسرًا قول قائلٍ باننا لم نجز افريقية من اقصائها الى اقصائها

قال يوسف وهو يتنهد الصعداء: اه انني متأسف شديد الاسف على قطع ذاك الذهب الخالص فلو حفظناها لزادت كلامنا اعتبارًا وقصصنا تصديقًا ولكنت اذا اعطيت كل رجلٍ شيئًا من ذاك الذهب الفت جمهورًا كبيرًا من اناسٍ يسمعون حكاياتي ويتعجبون لخطبي ويستعظموني

الفصل التاسع والثلاثون

في دنو السواح من سعال وفي ازدياد المنصورة انحفاضاً وفي الدرويش المحي وبسكال ومنصور ولبرتوس والجبال الشاهقة وسلاح ديك ولباقة يوسف والوقعة فوق عاب

في اليوم السابع والعشرين من ايار نحو الساعة التاسعة صباحاً ظهر منظر البلاد جديداً فولى الدرجات المنبسطة تلالاً واوتاداً بشرت بقرب الجبال والاكام وازمع السوّاح ان يقطعوا سلسلة الجبال القاصلة بين مسيل النهر الاسود ومسيل نهر سنغال الموديَين المياه الى خليج غويني او الى جون الرأس الاخضر

فان قسم افريقية هذا حتى سنغال مشهور بتوحش اهله واذاتهم للسواح وكان العلامة فرغوسن يعرف ذلك من اخبار سلفائهِ الذين قاسوا مرّ العذاب وخاضوا اشد الاخطار ما بين اولئك السودان البرابرة وقد هلك رفقاء مونغوبرك من تأثير سوء الهواء وشدة الحرّ في تلك الاطراف فجزم فرغوسن جزماً قطعياً بالّا يدوس تلك الكورة التي لا تاتي ضيفها الّا بالاهوال والاخطار

غير انهُ لم يرتح لهُ بال ولم يهدأ لهُ بلبال لكون المنصورة لم تزل تنخفض انخفاضاً ظاهراً فاقتضى ان يخفف حملها بطرحه منها اشياء جمة غير لازمة او غير مفيدة ولاسيما عند ما اوشكت تمرّ فوق قمة من قمم الجبال ولم تبرح على هذه الحال من العناء ومن الصعود والنزول على مسافة اكثر من مائة وعشرين ميلاً وهي مجندلة تتدحرج دواماً كصخر سيزيف (١) ولما كانت القبة الهوائية

(١) زعم الوثنيون القدماء انهُ كان محكوم على سيزيف في جهنم بان يُصعد من اسفل جبلٍ الى قمتهِ صخراً يتدحرج حالاً من القمة الى اسفل

قابلة الانتفاخ قد ارتخت جوانبهـا فكانت تمتد طولاً وتضيق عرضاً واخذت الريح تجعل في ملفها طيات وسيعة

قال ديك وهو قد لحظ ما جرى لها: لعل في القبة شق من جهة

اجابهُ العلامة: كلا بل ان طليها قد ذاب لشدة الحرارة واخذ الادروجن ينصرف من خلال قماشها

قال ديك: وما الحيلة في منع انصراف الادروجن

قال العلامة : لا حيلة في ذلك الّا ان نخفف حملها وهذه هي الطريقة الوحيدة فلنلقِ منها كل ما يمكن طرحهُ

قال ديك وهو ينظر الى قارب القبة : ترى ما الذي نطرحهُ بعدُ . ها القارب فارغ من كل ما كان فيهِ

قال العلامة: فلننزع عنها المظلة لان ثقلها ليس بيسير

ولما كان يوسف ينوط بهِ هذا الامر صعد فوق الحلقة الجامعة حبال الشبكة وتيسر لهُ هناك ان فصل عنها استار المظلة السميكة ورمى بها خارجاً وهو يقول: هاك غنية وسعادة لشمل قبيلةٍ من السودان فهذه الاقمشة تكفي لكسوة الف من الاهلين لانهم يشحون كثيرًا على القماش في ملابسهم

فارتفعت القبة برهةً الّا انها عادت فيما بعد تهبط وتدنو من الارض

قال ديك: فلننزلنَّ ولنرَ ما يمكننا عملهُ لاصلاح هذا التلف

قال العلامة: قد قلت لك يا ديك واقول ايضاً ان لا سبيل لاصلاحهِ

قال ديك: فما الحيلة اذاً

قال العلامة : الحيلة ان نضحي كل ما يمكننا ان نستغني عنهُ من الامتعة فانني اريد بلا بدٍّ ان اتحاشى من الوقفة في هذه الجهات لان الغابات التي نحن الآن فوق رؤوسها هي غير مأمونة وموعبة اخطار الهلكة

قال يوسف: وما اخطارها لعلَّ فيها أُسد او ضباع فلا يُعبأ بهما

قال العلامة: ان فيها يا ولدي ما كان شرًّا من الأُسد والضباع اعني بهِ اناساً برابرة واسوأ سكان افريقية قساوةً وتوحش

قال يوسف: ومن اين علمنا ذلك

قال العلامة: قد اخبرنا عنهم السواح الذين سلفونا في هذا القطر. ثم الافرنسيون سكان مستعمرة سنغال اذ لم يكن لهم بدٌّ من المعاطاة مع القبائل المجاورة على عهد الكولونال فيدرب فوقفوا على اكتشافات قاصية بالبلاد فطافها بعض الضباط منهم اي بسكال ومنصور ولمبرتوس واتونا بافادات نفيسة عن استقرارهم. فانهم تجسسوا تلك الكور الواقعة في تعريجة نهر سنغال ولم تدعها الحرب والنهب الّا قاعاً صفصفاً

قال يوسف: وماذا جرى فيها

قال العلامة: هاك ما جرى. ظهر سنة ١٨٥٤ شيخ سنغالي من فوطا يقال لهُ الحجي وادعى النبوة والقى الفتنة بين القبائل وحملهم على محاربة الكفار اي الاوربيين وانزل ويلات الدمار والخراب في ما بين نهر سنغال ونهر فليمة الصاب فيهِ فاقام ثلاث عصابات من اولئك القوم الرفاض وطاف بهم البلاد ينهب ويقتل كل من صادفهُ ولم يعفُ عن قريةٍ ولم يسلم من شرهِ دارٌ ولا كوخٌ حتى ولج في وادي النهر الاسود وبلغ مدينة سغو وتهددها زماناً طويلًا بالخراب. وسنة ١٨٥٧ عاد الى جهات الشمال برجالهِ واحاط بقلعة مدين التي بناها الافرنسيون على شاطئ النهر فدافع عن هذه القلعة رجل صنديد يقال لهُ بولس هول عدة اشهرٍ ولبث ثابتاً يحميها من شر الحجي ورجالهِ وبالكاد عندهُ قليل من القوت حتى وصل اليهِ الكولونال فيدرب ونجدهُ وانقذهُ من الهلكة. فعندها رجع الحجي وجماعتهُ عنهُ وجازوا سنغال وعادوا الى كعرتا ينهبون

البلاد ويقتلون العباد والحاصل ان هذه هي البلاد التي لجأ اليها هو وجماعتهُ واختبوا فيها ومن الثابت انهُ لا يحسن بنا اصلًا الوقوع بين ايديهم

قال يوسف : لاسمح الله ان نقع بين ايديهم ولو اقتضى ان نخلع عنا احذيتنا ونرمي بها الى الثرا لترفع المنصورة في الفضاء

قال العلامة: لم نبعد من النهر لكنني أرى ان القبة لا يمكنها حملنا الى ما وراءهُ

اجاب الصياد: فلنوصلنَّ الى شاطئهِ وحسبنا توفيقًا في المسير

قال العلامة: هذا ما نحاول صنيعهُ غير انهُ يقلقني امرٌ واحد

قال الصياد: وما هو

قال العلامة : ان امامنا جبالًا ينبغي ان نقطعها ويشق علينا قطعها لانني لا اقدر ان ازيد قوة التصاعد في القبة ولو اتيتها باعظم ما يمكن من الحرارة

قال الصياد: فصبرًا جميلًا: علينا بالانتظار لنرى ما يكون في آنهِ

قال يوسف وهو يتأسف على حالة المنصورة: مسكينة المنصورة انني تعلقت بها تعلق النوتي بسفينتهِ فلا انفصل عنها بدون ضيم وكدر. ولكن ما الحيلة فانها ليست كما كانت عند بداية سفرنا فلا باس عليها ولا ينبغي ان نقول فيها سوءًا لانها اتتنا بخدامات سنية وان هجرتها قد انفطر فؤادي عليها غمًّا

قال العلامة: كن طيب الخاطر يا يوسف ان تركناها فلا عار علينا لاننا نتركها رغم انفنا فتخدمنا حتى نترف جميع قواها فاني اطلب منها ان تخدمنا بعدُ اربعة وعشرين ساعة

فأخذ يوسف يتفرس فيها وقال: قد خارت قواها وانحلت وكادت روحها تذهق واسفاهُ عليها

قال الصياد : يا معلمي صموئيل انظر الى الافق · اني ارى جبالًا . لعلها الجبال التي ذكرتها

فاخذ العلامة نظارتهُ ونظر بها الى الافق ثم قال : هذه هي بعينها واراها شامخة فيشق علينا قطعها

قال الصياد : ألا يمكننا ان نتحاشى من المسير فوقها

قال العلامة : لا اظن لانها تشغل مسافة كبيرة من الارض وهي نحو نصف امتداد الافق

قال يوسف : ويتراأى لي انها تتزاحم حولنا وتحدق بنا يمنةً ويسرةً فلا بدَّ لنا من المرور فوقها

وكانت هذه الجبال تستبين سائرة لملاقاة السواح وتقترب منهم بسرعةٍ لا مزيد عليها او بالحري كانت الريح عاصفةً تقذف بالمنصورة نحو القمم الرفيعة فكان لا بد لها من الارتفاع على كل حال والّا صدمت الصخور وتلفت

قال فرغوسن : فلنفرغنَّ صندوق الماء ولا نبقِ منهُ الّاما يلزمنا للشرب يومًا واحدًا

فافرغهُ يوسف وقال : هاك افرغناهُ

فسأل الصياد : هل ارتفعت القبة

اجابهُ العلامة : قد ارتفعت قليلًا اي مسافة خمسين قدما ولم يكن العلامة يحوِّل نظرهُ عن ميزان الهواء غير ان هذا الارتفاع غير كافٍ لمجانبة خطر مصادمة الجبال . وبالحقيقة ان القمم الشامخة كانت تصادر السواح كأنها واثبة عليهم لتطبق على رؤوسهم . وكانوا يبعدون عن علوها مسافة خمسمائة قدم

فرموا من القبة ايضاً بمؤنة الماء اللازمة للانبوبة ولم يبقوا منها الّا قليلًا ولم يكن هذا التخفيف كافيًا

قال العلامة: فلا بد لنا من المرور فوق الجبال فما الحيلة

قال ديك: فلنلقِ عنا الصاديق حيث افرغناها

قال العلامة : القوها

فالقاها يوسف وقال: آهًا على الخسارة ما امرّها

فقال لهُ العلامة: يا يوسف لاتخاطرنَّ في حياتك لاجلنا كما صنعتَ فيما مضى. احلف لي انك لا تفارقنا

قال يوسف: طِب نفساً يا معلمي اننا لا نفارق بعضنا بعضاً

اما المنصورة فقد زادت صعودًا نحو عشرين قامة لكنها لم تزل منخفضة عن قمة الجبل وكانت هذه القمة شبه مسلة منتصبة قائمة في رأس جبل شامخ كأنهُ مخروط بالبيك وكانت تعلو السواح مسافة مائتي قدم

قال العلامة في نفسهِ: من الان الى عشر دقائق يصدم القارب هذه الصخور ويتحطم بها اذا لم يتيسر لنا ان نرتفع فوقها

قال يوسف: والان كيف الحال ياسيدي صموئيل

اجابهُ العلامة: اطرح كل هذا اللحم المثقل على القبة ولا تبقِ الّا موننا من مربّى اللحم

فطرحوا اللحم الاخر وخفت القبة من ثقل خمسة وعشرين رطلًا فارتفعت ارتفاعًا ظاهرًا ولكن ما الفائدة طالما لا تعلو قمم الجبال وعليهِ كانت المنصورة في حالةٍ تلقي شديد الرعب والهول في قلوب السواح اذ كانت تسرع سرعة الطير فلو لطمت الصخور لذهبت اربًا اربًا

فنظر العلامة الى ما حولهُ في القارب فوجدهُ كأنهُ فارغ ويكاد الّا يكون فيهِ شيء

فقال لديك: ان اقتضى الامر ينبغي ان تكون مستعدًا لطرح اسلحتك

فلما سمع ديك هذا الكلام ارتجفت جميع اعصابه فاجاب: هل ترى اضحي اسلحتي

قال لهُ العلامة: يا صاحبيْ لا يخطرنّ على بالك اني اطلب منك تضحية اسلحتك بدون ضرورة قصوى

قال ديك: صموئيل صموئيل. وانقطع كلامهُ لشدة حركة الكدر

قال لهُ العلامة: ان نجاتنا من الهلكة موكولة على تخفيف القبة من ثقل اسلحتك ومؤُنة البارود والرصاص

ثم هتف يوسف قائلًا: قد قربنا قد قربنا. عشر قامات فقط. هيا يا رجال ان الجبل يعلو المتصورة مسافة عشر قامات ايضًا. قال هذا وأخذ الاغطية ورمى بها الى الثرا ثم رمى بجملة جعب مملوة رصاصًا بدون استشارة كادي

فصعدت القبة وجازت القمة الخطرة وضاء قطبها الاعلى باشعة الشمس اما القارب فلم يزل اوطى من الصخور العظيمة التي ازمع ان يلطمها ويتحطم بها لا محالة

فعندها صاح العلامة: ديك ديك ارمِ باسلحتك والّا هلكنا

قال يوسف: مهلًا يا سيدي ديك مهلًا

فالتفت ديك فرآهُ قد توارى خارج القارب. فصاح بهِ: يا يوسف يا يوسف

ثم صاح العلامة: واأسفاه على يوسف

فكانت مساحة قمة الجبل في ذاك المكان نحو عشرين قدمًا ومن الجهة الاخرى كانت منحدرة قليلًا فوصل القارب على تمام مساواة هذه القمة المنبسطة وزحف على ارضٍ محصبة فسمعت قعقعة الحصى بمرورهِ

فصاح واحد من الرفاق قائلًا: الحمد لله والشكر لله مررنا ونجونا من

الخطر. فسمعهُ فرغوسن وطفح قلبهُ سروراً اذ كان يوسف الشهم الشديد البأس الذي رمى بنفسهِ الى الثرا ولبث شابث اليدين بطرف القارب الاسفل واخذ يسير بقدميهُ على قمة الجبل مخففاً على هذا النحو عن القبة ثقل جسمهِ حتى كان مضطرًا الى ان يشد يديهِ عليها لئلا تتعالى وتفلت من امامهِ

فلما وصل الى منحدر الجبل واشرف على الهاوية قد تسلق متمسكاً بالحبال تمسكاً شديداً فجاء حذا رفيقيهِ في القبة وهو يقول: ما اسهل هذه الحيلة وما احسن ما قالهُ احد الادباء: واذا جار عليك الدهر فليكن عندك حيلة

فعندها ناداهُ العلامة وقلبهُ يخفق بهزة الفرح: عافاك الله يا يوسف حبيبي عافاك الله لا ثكلتك امك

اجابهُ يوسف وهو يتفكه بالكلام: لم اعمل ما عملتهُ لشأنكم يا سيدي بل بشأن قرابينة الموسيو ديك. فاني كنت مديوناً لهُ بهذا العمل منذ واقعة الاعرابي. فأحب وفاء ما عليَّ من الدين فوفيتهُ واصبحنا الان على سوية حال وراحة بال. قال هذا وقدم للصياد قرابينتهُ التي كانت عندهُ اعزّ شيء في الدنيا وقال لهُ: لكان قد شق عليَّ جدًّا لو رأيتك خالياً منها

اما كنادي فشدَّ على يدهِ علامة الوداد ولم يدعهُ الفرح يفوه بكلمة. فمن بعد ذلك لم يكن للمنصورة الاَّ ان تهبط منخفضة وكان انخفاضها من ايسر الامور. فما مضى برهة من الزمان الاَّ وُجدت بعيدة من الثرا مسافة مائتي قدم فقط وحازت تمام موازنتها. وكانت الارض تستبين كأنها مصابة بالزلزلة وكان عدم مساواة سطحها يأتي عوائق تعسر مجانبتها ليلاً بمركبة هوائية لم تعد تلبي ادارة مديرها. فلما خيم الليل جزم العلامة على الوقوف حتى الصباح رغماً عن اشمئزازهِ من المبيت في ارض تلك البلاد

فقال العلامة: هيوا بنا نفتش على محلٍ مناسب لنقف فيهِ

اجابهُ كنادي : عجباً يا سيدي اراك جزمت على الوقوف في هذه الارض

قال العلامة : نعم لانني قد امعنت فكري بشيء وتبصرت فيهِ زماناً طويلًا فاريد الان ان ابرزهُ الى حيز الفعل . فالان الساعة السادسة فقط بقي اذًا لنا زمن للعمل . فالقِ المرساة يا يوسف

فامتثل يوسف امرهُ في الحال والقى المرساة وكانت مدلاَّةً تحت القارب

ثم قال العلامة : اني ارى غابات فسيحة فعلينا ان نسرع الى فوق قممها ونقف متشبثين على رأس شجرةٍ من اشجارها . لانني لا اريد قط ان ابيت الليل على الارض ولو ملكوني هذه البلاد برمتها

قال ديك : أنستطيع النزول

قال العلامة : وما الفائدة من نزولنا وقد قلت لكم ان في انفصالنا خطرًا على حياتنا . غير اني استعين بكم على عمل عسير

اما المنصورة فكانت تطفو في الهواء فوق قمم الغابات المشار اليها ولم تبطوء ان وقفت فجأةً لان مرساتها قد تعلقت ولما سكنت الريح مساء لبثت كأنها جامدة فوق تلك الرياض الخضراء المتألفة من رؤوس اشجار غابةٍ من الجميز

الفصل الاربعون

في المنازعة بينهم على الشهامة واحر رزمهم وآلة التصبيح ولباقة يوسف
وما جرى نصف الليل وهجمة العلامة وهجمة كمادي وتناعسهِ
والحريقة والضجيج والعويل واخطاء طلقات الرصاص

فاخذ العلامة فرغوسن يبحث عن مركز القبة فوجدها بقياس علو النجوم بعيدة عن سِنغال نحو خمسة وعشرين ميلًا فقط

فبعد ان علَّم خارطتهُ قال: جل ما يمكننا عملهُ يا خليليَّ اما هو ان نجوز النهر . وحيث لا جسر للنهر ولا قوارب لنا قد تحتم علينا ان نجوزه بالقبة ولهذا لزمنا ايضاً ان نخفف حملها

اجاب الصياد وكان يخاف على سلاحهِ: لا ادري باية طريقةٍ نتوصل الى تخفيفها الّا ان يتهجم احدنا على النزول منها ويبقى ورانا . . . . فانا مقدم ذاتي الى هذه الخدمة لان هذه المرة قد جاءت نوبتي

اجابهُ يوسف: قد اخطأ سهمك . انا المعود على مثل هذا العمل

قال لهُ الصيـــاد: ليس المقصود هنا يا صاح الانحدار من القبة الى اسفل بل السير مشياً حتى الساحل . اما انا فصيـــاد متين واعد نفسي اشد منك جرياً فهذا عملي

اجابهُ يوسف: وحياتك لا يقدم على هذا العمل غيري

قال فرغوسن: لا فائدة يا صاحبيَّ من تراعكما على المروة . لاني اومل الّا نتوصل بنا الحال الى حدّ هذه الشدة . ومع ذلك اذا اقتضى الامر لا نفترق ابدًا بل نحدر جميعنا ونجتاز بهذه البلاد معًا

قال يوسف: لا اصوب من هذا الراي فلا بأس من بعض المشي في هذه الاراضي

اجاب العلامة : هلموا نبادر قبلًا الى اجراء اخر ما بقي لنا من الوسائل لتخفيف ثقل المنصورة

قال كادي : وما عسى تكون هذه الطريقة يهمني ان اعرفها

قال العلامة : يلزمنا ان نرفع عن المنصورة ثقل صناديق الانبوبة والآلة الكهربائية والحية . وكل هذا يزن نحو نصف قنطار يعسر حمله في الفضاء على اجنحة الريح

قال كادي : يا صموئيل كيف يتيسر لك بعد ذلك نشر الغاز وتوسيعهُ

قال العلامة : لا يتيسر لي غير اني استغني عنهُ

قال كادي : وكيف ذلك

قال العلامة : يا صاحبيَّ انني قد ضربت حساب ما بقي للمنصورة من قوة التصاعد فوجدتها كافيةً لتحملنا معها بقي لنا من الامتعة القليلة ويكاد ثقلنا يوازي قنطارين مع المرساتين اللتين ابقيهما

اجاب الصياد : سيدي الحبيب صموئيل انك اعلم منا في هذا الامر وبعينيك وحدك الحزم والتدبير في امر المسير . قل لنا ما يجب عملهُ فاننا لك طايعان ولامرك خاضعان

قال العلامة : قد قلت لكما ايها الاحباء . لا بد لنا من تضحية آلاتنا مهما كان الاعتماد عليها باهظًا كبيرًا

اجابهُ كادي : ضحها ولا بأس

قال يوسف : هلمَّ بنا للعمل

ولم يكن ذلك عملًا من صغار الاعمال اذ يلزم تفكيك الادوات قطعةً فقطعةً فرفعوا صندوق المزج ثم صندوق الانبوبة اخيرًا صندوق حلِّ عنصرَي الماء . وقد تواطىء الثلاثة السواح وجدُّوا بتمام عزمهم حتى تمكنوا من خلع

الاوعية المحبكة بالقارب . فكان كنادي ذا عزم شديد ويوسف ذا لباقة ونباهة وصموئيل ذا حذق ودراية حتى انتهوا من عملهم نهاية التوفيق والنجاح

فالقوا هذه القطع شيئاً فشيئاً خارج القبة فسقطت على اوراق الجميز خارقة فيها خرقات فسيحة

قال يوسف ان السودان يأخذهم العجب لدى مصادفتهم هذه الاشياء في الغابات ولا يبعد انهم يصنعون منها اصناماً يعبدونها

ثم بادروا الى الشغل بتفكيك الانابيب المشبثة بالقبة والموصولة بالحية اللولبية . فتيسر ليوسف ان قطع الصلات الصمغية على علو بعض اقدام فوق القارب . اما الانابيب فكان فصلها متعسراً لانها كانت موصولة بطرف القبة الاعلى وممسكة بشرائط من نحاس اصفر في نفس دائرة منفذ الغاز

فعندها شمر يوسف عن ذراع لباقته العجيبة وخلع نعليه من رجليه حذراً من ان يخطط نسيج القماش بحذائه وتمسك بالشبكة الملتفة بها القبة وشرع يتسلق الى ان بلغ قمة المنصورة الخارجة وهناك تمسك باليد الواحدة في ذاك السطح الزلق وبالاخرى بعد كد كديد وجد جهيد قلع البراغي البرانية الضابطة الانابيب . فحينئذٍ تفككت الانابيب بسهولة وسحبت من الطرف الاسفل الذي سدت ثغرته سداً محكماً بعقدة شديدة

فلما تخففت المنصورة من هذا الحمل الكبير استوت في الهواء واوترت حبل المرساة بشدة

فنجزت كل هذه الاشغال نصف الليل بغاية التوفيق لكنها قد كلفت الفعلة اتعاباً ومشقات لا مزيد عليها . ثم تناولوا على وجه السرعة ما تيسر لهم من الطعام النيء . لان العلامة لم يعد عنده نار يطبخ بها يوسف طعاماً

غير ان يوسف وكنادي قد اعياهما الشغل . فقال لهما فرغوسن اضجعا

وناما يا صاحبيَّ . فانا اسهر الهجعة الاولى وفي الهجعة الثانية اوقظ كنادي ليسهر هجعتهُ والهجعة الثالثة كادي يوقظ يوسف ونسافر الساعة السادسة ونسأل باري العباد ان يرمقنا بعين عنايته في هذا النهار الاخير

فبدون ان يكرر عليهما العلامة امرهُ قد اضجعا وناما في قعر القارب واسرع اليهما النعاس فاستغرقا في السبات

وكان ذاك الليل هادئا والفلك صافيا الَّا ان بعض غيوم كانت تخيم على القمر البالغ ربعهُ الاخير فكادت اشعتهُ لا تنفذ خلالها . وكان فرغوسن متكئاً على طرف القارب يجول بنظره الى ما حوله ويسهر متيقظاً على اوراق الشجر الغضة المنبسطة تحت قدميهِ حاجبة بظلها منظر الارض . ويجفل من ادنى حركة ويتقصى علة كل حفيف وهزيز

وكان في هذه الحال يزداد بالهُ قلقاً وتشوشاً لوجوده في مفازةٍ مرعبة فاخذت الاهوال تدركهُ والقلاقل تشغل دماغهُ لان المخاوف تزداد هيجاناً والرعشات ثوراناً عند ما يكون السائح دنا من نهاية مثل هذه السياحة وقاسى مشقات ومخاطر شتى . فحينما يقارب نهاية السياحة يتخيل لهُ الميعاد فارًّا من امامهِ

زد على ذلك ان حالتهم كانت تنفي الاطمئنان اذ انهم في وسط بلاد بربرية ومتعرضون في كل وقت لخطر فقدان ما كان لهم من الواسطة الوحيدة لخروجهم منها . لان العلامة لم يكن يركن اركاناً قطعياً للقبة الهوائية اذ لم تعد كما كانت فيما مضى حين كان يديرها بكل طمأنينة وهي تلبي ادارتهُ

وفيما كان العلامة فريسةً لهذه الهواجس تراءى لهُ احياناً انهُ يحس بدوي في تلك الغابات الرحيبة حتى خيلت لهُ نار مشبوبة بين الاشجار فدقق نظره

حيث تخيلها ثم تناول نظارته الليلية ونظر بها الى تلك الجهة فلم يرَ شيئاً بل ظهر له انهُ قد انقطع الدوي وزاد الهدء والسكينة

فتحير وخطر على باله ان قوماً يرصدونهُ خفية ليغدروا به . فلبث يتوجس ويتسمع ولم يشعر بادنى حركة . فمضى وقت هجعته وايقظ كادي وامرهُ بشديد التيقظ والسهر واضجع هذا يوسف المستغرق في النوم

اما كادي فاخذ يعبي غليونه تبغاً وهو على اتم الهدو والرواق ويفرك عينيهِ اذ كان يشق عليهِ فتحهما من شدة النعاس ثم سند راسهُ الى كوعهِ واخذ يدخن بغليونهِ مثيراً منهُ الدخان كالعجاج لكي يطرد من صدره عفريت النعاس

وكان كل ما حولهُ في هدو وسكينة الّا نسيم لطيف يثني افانين الاشجار ويهز القارب هزًّا خفيفاً ويزيد على الصياد سطوة النعاس المستولي عليه رغماً عن ارادته فعمد لمقاومته بعزم وكثيراً ما كان يفتح مقلتيهِ ويطرق حيناً بعد حينٍ بنظره الى الظلام فلا يرى فيهِ شيئاً . اخيراً تغلب عليهِ التعب فسلط عليهِ النعاس . الّا انهُ لم يدرِ كم من الزمن مكث في راحة النوم عندما ايقظهُ تكتك حريق . فهب من رقاده ففرك عينيهِ ونهض على قدميهِ فشبت حرارة شديدة في وجههِ من النار المضطرمة في الغاب

فصاح وهو لا يدري علة هذا السعير . النار النار

فهبَّ صاحباه من رقادهما وصاح صموئيل مرتعداً : ما هذا

قال يوسف : هذه حريقة ولكن من تراه قد . . . .

وعندها سُمع ضوضاء وضجيج تحت اوراق الاشجار المضية باللهيب .

فصاح يوسف : قاتل الله هؤلاء البرابرة فانهم قد اضرموا النار بالغاب ليحرقونا لا محالة

قال العلامة: لا شك ان هذا عمل جماعة الطلبة اي مشائخ الحجي

وكانت النار تحدق بالمنصورة وتسمع قرقعة لحطب اليابس وعنين الاغصان الخضراء وكل حي من ذاك النبات يتقوس ويلتف في العنصر المبيد ولم يكن يعاين الطرف الّا بحرًا من لهيب والاشجار الكبيرة تستحيل الى سواد في وسط الاتون واغصانها مغشاة بجمر نار مضطرمة وكان هذا اللهيب والحريق ينعكس ضياؤهُ على الغيوم حتى خيل للسواح انهم قائمون في وسط دائرة من نار

فصاح كنادي: الفرار الفرار على الثرا. ما من سبيل خلافهُ للنجاة

اما فرغوسن فمسكهُ بيده مسكًا متينًا ووثب على حبل المرساة فقطعهُ بضربة فاس وما زال اللهيب يمتد نحو القبة وكان دنا منها حتى صار يلذع جوانبها المضية. فلما تملصت المنصورة من قيدها صعدت في الهواء وتعلت ما نيف عن مسافة الف قدم

فعندها علا صراخ وضجيج هائل من قعر الغاب ثم ولاه طلقات بنادق فلم تصب القبة بل اخذ الهواء يقذف بها نحو الغرب حتى اصبح الصباح وبلغت الساعة الرابعة بعد انتصاف الليل

الفصل الحادي والاربعون

في جماعة الطلبة ومطاردتهم السواح واعتدال الريح وانخفاض المنصورة واخر موتهم ودفاعهم بطلق البنادق ونهر سنغال وشلالات عوينا والهواء الحار والمجاز النهر

قال العلامة : لو لم نخفف حمل المنصورة البارح مساء لكنا هلكنا لا محالة

اجابهُ يوسف : ما احكم عمل الامور في اوقاتها . فان عاقبتها النجاة من الهلكة وما في ذلك من عجب

قال فرغوسن : لم نأمن بعدُ من الخطر

قال ديك : لا تخف يا سيدي ان المنصورة لا تنحدر على الثرا بدون اذنك وان افترضنا انها تنحدر ترى ما تكون غايلتها

قال العلامة : تسألني ما تكون غائلة انحدارها يا ديك . انظر الى ما وراءك

فنظر ديك وكانت السواح قد جازوا حدود الغاب فرأوا موكب من فرسان لابسين سراويل كبيرة وعلى اكتافهم برانس تعوم في الهواء وجميعهم مسلحون بعضهم برماح وبعضهم ببنادق فيجرون الى جهة مسير المنصورة السائرة في الهواء سيرًا معتدلًا

فلما نظروا السواح عووا عواء الذئاب الكاسرة مشرعين اليهم الرماح وعلى سحناتهم السمرا تلوح امارات الغضب والوعيد ومما يزيد منظرهم توحشًا لحى لهم متفرقة الشعر لكنها مقشعرة . فجازوا بدون عناء تلك الهضاب المنخفضة وتلك الدرجات المنفرجة المودية الى سنغال

قال العلامة : هؤلاء هم جماعة الطلبة القوم القساة شيوخ التحجي الوحوش

الكاسرة . واني لاوثر القيام بوسط غاب تحدق بهِ الضبــاع من ان اقع بين ايدي هؤلاء الاشقياء

قال كنادي : الحق يقـــال ان هؤلاء القوم ليس على وجوهم امارات الصلح والسلام . بل ان هيئتهم تنبئ عن جســارة فيهم وشدة بأس وشر اقتحـــام

اجاب يوسف : الآن هؤلاء الوحوش ليسوا بطائرين وهذا من حسن حظنا ونعم التوفيق

قال فرغوسن : انظرا يا خليليَّ هذه القرى الدارسة والبيوت المحروقة . فهذا عملهم . وقد انزلوا الدمار والبوار في الاراضي العامرة والبقاع النـــاضرة

اجاب كنادي : مهمـــا كان من امرهم لا يقدرون ان يدركونا واذا تيسر لنا ان نجعل النهر فيما بيننا وبينهم امنا من شرهم وعرارهم

اجاب العلامة : قد اصبت يا ديك . انما الاهم ما يكون الان التحاشي من الهبوط

قال هذا وهو ينظر الى ميزان الهواء

اجاب كنادي : كيفما كان الحال لا بأس من ان نعدّ اسلحتنا

قال يوسف : ما في ذلك من محذور يا ديك . وقد اصبنا بعدم بذرها على الطريق

فعندها صاح الصياد : ايم الله ان قرابينتي لن تفارقني . وقد حشاها بمزيد الاعتناء وكان بقي عندهُ من البارود والرصاص كمية وافرة

فسأل العلامة : ترى يا فرغوسن ما علو المنصورة

قال العلامة : نحو سبعمائة وخمسين قدماً . انما لم يعد في مكنتنا ان نصادف مجاري ارياح توافقنا صعودًا او نزولًا بل اننا سائرون على رحمة القبة

قال كنادي : لا حول ولا قوة الّا بالله . ان الريح خفيفة فلو صادفتنا عاصفة مثل تلك العواصف التي اصابتنا في الايام الماضية لغابت هؤلاء الاشقياء عن نظرنا منذ الان

قال يوسف : ها ان هؤلاء الاشرار تابعون لنا هينةً فكأنهم يتنزهون في متابعتنا

قال الصياد : لو كنا على مسافة رمية رصاص لكنت اتنزه في رميهم واحدًا فواحدًا

اجاب فرغوسن : اي نعم ولكن لكانوا هم ايضًا على رمية رصاص منا ولكانت المنصورة ايسر هدف لطلقات بواريدهم . فاذا ما مزقوها بالرصاص تأمل اي مصير يصير حالنا . حمانا الله من مثل هذه الدواهي

اما جماعة الطلبة فلم يزالوا يتابعون السواح في مدة كل ذاك الصباح . وكانت القبة قد قطعت مسافة خمسين ميلًا نحو الغرب قبل الساعة الخامسة وكان العلامة يراقب الفلك ويدقق النظر في ادنى الغيوم المرتفعة في الافق ولا يزال يتوجس تغيرًا في الجوّ . ويقول في ذاتهِ : ما يكون حالنا اذا ما دفعتنا الرياح نحو النهر الاسود

هذا وكان يرى القبة تميل الى الانخفاض ميلًا ظاهرًا وقد كانت انخفضت منذ سفرها مسافة اكثر من ثلثمائة قدم وسنغال تبعد عنهم نحو اثني عشر ميلًا فيلزمهم من الوقت للوصول اليها ثلاث ساعات على معدّل سيرهم الحاضر

فطرق سمع العلامة حينئذٍ صياح وضجيج جديد فاصغى وتفرّس فرأى خيالة الطلبة يضجون في تعجيل جري خيلهم

فنظر العلامة الى ميزان الهواء فعلم علة هذا العواء والضوضاء

قال كنادي: لعلّ القبة تنخفض

اجاب فرغوسن: نعم

قال يوسف: نعوذ بالله من الشيطان الرجيم

وما مضى ربع ساعة من الزمان الّا قد امسى القارب على مسافة مائة وخمسين قدماً من الارض. اما الريح فازدادت قوّةً

واستكدت جماعة الطلبة خيولهم جريًا وسُمع في الحال طلقة بواريد في الفلاء

فصاح بهم يوسف: خطأت طلقتكم يا همج. انما يحسن بنا ان نبعد عنا هؤلاء الانذال

قال هذا وصوب بارودته الى واحد من الخيالة السابقين واطلقها فجاء الرصاص به فسقط يخبط بدمائهِ على الثراء. فوقفت ارفاقهُ واخذت المنصورة بالمسير ففاتتهم

قال كنادي: اراهم ذوي تحفظ

اجاب العلامة: نعم لانهم موقنون قبضهم علينا واذا نزلنا بعدُ لنالوا مأربهم منا. ومن ثم لا بد لنا من الصعود

قال يوسف: وما نلقيهِ من القبة لتخفيف حملها

قال العلامة: ينبغي ان نرمي منها بكل ما بقي من مونة مربى اللحم. فان وزنهُ يساوي ثلاثين اقة ينبغي ان نملص منهُ

فاسرع يوسف بامتثال امر العلامة فرمى بهِ قائلاً: هاك يامعلمي رميت ولا اسف عليهِ

وكان القارب يكاد يمس الثرا ومن بعد هذا ارتفعت القبة واخذت جماعة الطلبة بالضجيج والصراخ. اما المنصورة فعادت بعد نصف ساعة تنخفض

بسرعة والغاز يتصرف بجلال الغطاء

فانخفض القارب الى الثرا حتى كاد يمسها بمروره فاسرعت جماعة الطلبة نحو القبة واوشكوا ان يصلوا اليها ولكن قد حدث حينئذٍ ما من عادته ان يحدث في مثل هذه الظروف وهو ان القبة بعد ما انخفضت وكادت تقف على الثرا قفزت مرتفعة في الفلاء ولم تهبط من جديد الّا بعد ما سارت مسافة ميل واحد

قال كنادي بغيظٍ : هل ترى لا بد لنا من الهبوط بين ايدي هؤلاء القوم

فصاح العلامة بيوسف : ارمِ بما بقي عندنا من مونة الماء وبالآلات وبكل ما لهُ ادنى ثقل حتى المرساة نفسها . فمسك يوسف موازين الهواء وموازين الحرارة ورمى بها انما لم يأتِ هذا الّا بما قلّ من التخفيف والقبة التي كانت ارتفعت هنيهة قد عادت سريعاً فهبطت الى الثرا وجماعة الطلبة تسرع سرعة الطير في اثرها ولم يكن بينها وبينهم اكثر من مسافة مائتي قدم

فعندها صاح العلامة : ارمِ بالبارودتين الى الارض

اجابهُ الصياد : لا ارمي بهما قبل ان اطلقهما

قال هذا واطلق بهما اربع طلقات فرمى اربع خيالة بالرصاص ففرّت حينئذٍ ارفاقهم عرير الوحوش الكاسرة وعوت عواء الذئاب

اما المنصورة فعادت ترتفع وهي تقفز قفزات الكرة المرنة الواقعة على الارض

والحاصل ما كان اغرب من مشهد هؤلاء المساكين المحاولين الفرار من الهلكة بمركبة تقفز بهم قفزات الجبابرة كأنها تستعيد قواها عند ما تمس الحضيض . انما لم يكن بدٌّ من نهاية هذه الحال وكان نحو الظهر والقبة قد

نُهِكت وتفرغت وتروست وامسى غطاها مرتخياً عائماً في الهواء وتتراكم الطيات في القماش متلاطمةً بعضها بعضاً

اما يوسف فلم يجب بشيء بل لبث يتفرس بمعلمهِ ويرقب امارات محياهُ

قال كنادي : لا طريقة للنجاة ولابدَّ من الهبوط

ثم قال العلامة : لا بل بقي علينا ان نخفف حمل المنصورة باكثر من ة اقة

فتعجب كنادي من كلام العلامة هذا وظن انهُ اعتراهُ جنون

فقال : وما عندنا نلقيه من القبة

قال العلامة : القارب هلموا نتشبث بالشبكة فيمكننا ان نمسك بعراها ونقطع النهر . فالبدار البدار الى هذه الوسيلة

فلم تتوقف هؤلاء الرجال الجسورون عن البدار الى هذه الواسطة الاخيرة للنجاة من الهلكة فتعلقوا بعرى الشبكة كما ارشدهم العلامة وكان يوسف متمسكاً بيدٍ في الشبكة وبالاخرى قطع حبال القارب فسقط عند ما كانت القبة تهوي نازلة الى الحضيض لامحالة . فلما تخففت القبة من ثقل القارب تعالت في الفضاء مسافة ثلثمائة قدم فهتف يوسف هتاف الفرح وقال : سيري باسم الله محراكِ

فدقت الطلبة الركاب واخذت الخيل بالإهماج اما المنصورة فقد صادفت ريحاً شديدة فسبقتهم واسرعت نحو اكمة تحجب افق الغرب . فكانت للسواح اكبر توفيق للمسير لانهم قد تمكنوا من الاجتياز فوق راسها اما الطلبة فقد اضطروا ان يأخذوا طريق الشمال ويدوروا على اسفل الهضبة فطالت بهم الطريق وتأخر مسيرهم

وكانت الثلاثة الرفاق متمسكين بالشبكة وقد تيسر لهم ان يسدوا ثغر القبة

فجاوا بها كأنها جيب يعوم في الهواء

فما عتموا ان جازوا الهضبة واذا بالعلامة يصيح: النهر النهر يا ايها الاحباء نهر سنغال لانهم نظروا امامهم على مسافة ميلين نهر سنغال يجري في مسيل منفرج جدًا فالشاطيء الاخر موقعهُ منخفض وتربتهُ مخصبة كان ملجا مامونًا من اصحاب التعدي والاذاء ويصلح للسواح محلًا للنزول

قال فرغوسن: بقي علينا مسير ربع ساعة فننجو من اسواء غائلة

انما لم يتيسر لهم ما كانوا يبتغونه لان القبة كانت تنحدر شيئًا فشيئًا وهي فارغة حتى استوت على ارض كادت تخلو من كل نبات وهي حدورات طويلة وسباسب مصخرة ليس فيها الَّا بعض العليق وعشاب كثيفة يبستها حرارة الشمس

والمنصورة انقضت على الثرا وقفزت مرارًا عديدة وكانت قفزاتها تقل قوّةً حتى علقت بعد قفزتها الاخيرة باطراف الشبكة في رؤوس اغصان شجرة البوباب وهي الشجرة الوحيدة في تلك البلاد الغامرة

قال الصياد: قد انتهى الامر

قال يوسف: ولسنا بعيدين عن النهر الَّا مسافة مئة قدم

فحلَّ هؤلاء السواح الثلاثة المنكودوا الحظ على الارض وذهب العلامة برفيقيه الى جهة سنغال وكان النهر يدوي دويًا مديدًا . فلما بلغ فرغوسن الى شاطئهِ عرف شلالات غوينا فلم يجد قاربًا على ضفتهِ ولا ما فيهِ نسمة حياة

وكانت مياه النهر تنحدر من علو مئة قدم الى مسيل عرضهُ الفا قدم ويُسمع لها دويّ طان فتجري من الشرق الى الغرب ويعترض مجراها رصيف صخور ممتدة من الشمال للجنوب وفي وسط الشلالات صخور منتصبة باشكال غريبة كأنها اسماك جسيمة محجرة

وكان عدم امكانهم مجاز هذه الوهدة من الامور الواضحة ومن يتمالك كنادي من ابداء امارة اليأس والقنوط

اما العلامة فرغوسن فلم ييأس بل سُمع على الفور يهتف هتاف النشاط والجرأة قائلاً: ثقا لم يزل لنا باب للنجاة

قال يوسف: هذا كان املي بلياقتك ودرايتك وكان يوسف يثق بعلمه ثقة غير متزعزعة اما العلامة فكان قد شاهد العشب اليابس المكسي ضفة النهر وخطر لهُ على بال فكر اعدَّهُ للحيلة الوحيدة لنجاتهم من الهلكة. ففي الحال رجع برفيقيهِ الى القبة وقال لهم: ان بيننا وبين اولئك الاشقياء مسافة ساعة فاسرعوا بجمع كمية وافرة من هذا العشب اليابس فيلزمني منهُ على الاقل مئة ليبرة

فسالهُ كنادي: ما فائدته لنا

اجابهُ العلامة: ليس عندي غاز فانني احمل المنصورة على جناح الريح بالهواء والحالة هذه فاني اجوز النهر بقوة هواء سخن

فعندها صاح كنادي: عافاك الله يا خليلي صموئيل حقًا انك من كرام الرجال

فانكب يوسف وكنادي على العمل وما مضت برهة الَّا وجمعا كديسًا كبيرًا من العشب فجعلوهُ تحت شجرة البوباب. وكان العلامة وقتئذٍ قد وسع ثغر القبة بشقهِ اياه في اسفلهِ واخرج من اللولب كل ما كان باقيًا من اثار الايدروجن ثم كوّم كمية من العشب تحت الغطاء وجعل النار فيهِ

فاخذت القبة في برهة وجيزة تنتفخ بالهواء الحارّ فيكفي من الحرارة مئة وثمانون درجة لتنقيص نصف ثقل الهواء الكاين في القبة ومن ثم شرعت المنصورة تتخذ شكلها الكروي وكان العشب اليابس كثيرًا هناك والعلامة

يجدّ في اضرام النار والقبة تنتفخ وتتدّور على مرأى العين

وكان مضى من الزمان ثلاثة ارباع الساعة . فظهرت حينئذٍ على مسافة ميلين للشمال الطلبة وعلا ضجيجهم وصراخهم وسمعت دقة حوافر خيولهم المهجة

قال كادي: من الان الى عشرين دقيقة يصلون الى هنا

قال العلامة: العشب العشب يا يوسف فبعد عشر دقائق نصبح راكبين الريح في الفضاء

قال يوسف: هاك يا سيدي

قال العلامة: فلنتمسكنَّ بالشبكة كما عملنا سابقًا

قال يوسف: لا تخف يا معلم لا تخف

فما مضت عشر دقائق الّا واخذت القبة تميد مبشرة بميلها للصعود وكان الطلبة قد دنوا منهم حتى لم يعودوا بعيدين عنهم اكثر من خمس مئة خطوة

فصاح فرغوسن تمسكا جيداً

اجاباهُ: تمسكنا لا تخف

فدفع فرغوسن برجلهِ كمية من العشب الى الموقد . وكانت القبة قد اخذت تمام انتفاخها بازدياد الحرارة فارتفعت الى الفضاء ماسّة اغصان البوباب

فعندها صاح يوسف: فلنرحل . فاجابهُ الطلبة بطلقة بنادقهم فجاءت رصاصة في كتفـهِ فثلمتهُ ثلماً خفيفًا . اما كادي فانحنى واطلق قرابينتهُ بيدٍ واحدة فاصاب واحدًا منهم فصرع على الثرا يخبط بدمائهِ . وكانت المنصورة تسرع بالصعود والطلبة يضجون ويولولون كيدًا وغيظًا بما يفوق وصف الواصفين الى ان بلغت القبة في الفلاء مسافة ثمانمائة قدم عن الارض وريح عاصفة تقذف بها فوق مجرى النهر فلما بلغت الى ما فوق تلك اللجج وبينما كان العـلامة ورفيقاهُ يتفرسون بلجة الميازيب المفتوحة تحت اقدامهم شعروا بالقبة كأنها

تمايل وتميد بهم تمايلاً وميداً اوعبا قلوبهم وجفاً وقلقاً لكن عنـاية الرحمن قد وفقت مسيرها الى خير النهاية . فعقب عشر دقائق اخذت القبة بالهبوط شيئاً فشيئاً الى الشاطئ الاخر

وكان هناك نحو عشرة رجال عليهم ملابس افرنسية استولى عليهم ما لا يوصف من الحيرة والدهشة والرعب عند مشاهدتهم تلك القبـة ترتفع في الفضا من جانب شاطئ النهر الايمن فلا يبعد انهم خالوها في اول وهلة حادثاً سماوياً اما رئيسهم وقائمقام البحرية وبيرقدار السفينـة كانوا عارفين من جرائد اوربا مشروع سياحة العلامة فرغوسن الهمام الجسور فما طال الحال حتى هدأ روعهم ووقفوا على حقيقة الواقع

وكانت القبة تنفش شيئاً فشيئاً وتهبط باولئك السواح الابطال وهم متمسكون بعرى الشبكة . اما لم يكن مؤكداً انهم يسقطون على الحضيض فمن ثم نزل الرجال الفرنسيس في النهر وتلقوا بـين ايديهم الثلثـة الرجال الانكليز عند ما كانت القبة نازلة في النهر على مسافة بعض باعات من شاطئ سنغال الايسر

فصاح القائمقام : ألست العلامة فرغوسن

اجابهُ العلامة ورفيقاهُ بتمام الرواق والسكينة : بلى

فتناول الفرنسيس السوّاح واتوا بهم الى شاطئ النهر اما القبة فقد كان انتفاخها من باب النصف فوقعت في النهر وجرتها المياه كفقاعة كبيرة فذهبت غريقة في شلالات غونيا

قال يوسف وهو يأسف عليها : مسكينة المنصورة مسكينة

اما العلامة فلم يتمالك عن البكاء ففتح ذراعيهِ وعانق رفيقيهِ وقد خاصت قلوبهم بحر السلوان والحبور

الفصل الثاني والاربعون

في الختام والتقرير والعمائر الفرنسية ومعسكر مدين ومدينة القديس لويس والبارحة الانكليزية وعودة السوّاح الى لندرة

ان الرجال الافرنسيين الذين وُجدوا على شاطئ النهر كان قد بعث بهم والي سنغال الى تلك الاطراف وكانوا اثنين من الضباط وهما القائمقام دي فراس والبيرقدار رودامل ورئيس عشرة وسبعة انفار من الجنود وكانوا منذ يومين متشاغلين في التفتيش على اوفق محل لاقامة معسكر في غوينا ووافاهم على غير انتظارهم العلامة فرغوسن ومن معهُ

فلا حاجة الى وصف ما جرى من رسوم التهاني والمصافحة للثلاثة السواح فحقق الفرنسيس انفسهم انجاز ذاك السفر المهول وقد اصبحوا شهود عيان لصموئيل فرغوسن

ومن ثمَّ قد رغب اليهم العلامة اولًا ان يحققوا تحقيقًا رسميًا وصولهُ الى شلالات غوينا

فسال القائمقام دي فراس: ألا تستحسن جنابك وضع امضائك على صك الشهادة بواقعة سفرنا بل بلوغنا الى هنا

اجابهُ القائمقام: الامضاء وكرامةً

فاتوا بالانكليز الى منزل وقتي اقاموهُ على شاطئ النهر فصادفوا هناك السوّاح حسن الالتفات والاهتمام ومؤنة غزيرة وهناك سطر بالعبارات الاتية الشهادة المدروجة اليوم في سجلات شركة لندرة للجغرافية

(نحن المدونة اسماؤنا بذيله نشهد اننا بتاريخه شاهدنا في الفلاء العلامة فرغوسن ورفيقيهِ ريشار كادي ويوسف ولصون واصلين الينا وهم متمسكون

بعرى شبكة قبةٍ هوائيةٍ وان القبة المذكورة قد سقطت بالقرب منا على مسافة بعض خطوات في مجرى النهر وجرّها الغدير الى شلّالات غوينا فهناك ابتلعتها الوهدة ولم يعد يرَ لهـا اثر ولا عين . فشهـادةً بالواقع حررنا هذه الوثيقـة وامضيناها مع المذكورين للمصادقة تحريرًا عند شلالات غوينـا في ٢٤ ايار سنة ١٨٦٢)

كاتبهُ	كاتبهُ
فرغوسن صموئيل	دي فراس قائمقام
ريشار كنادي	مشاة البحرية
يوسف ولصون	رودامل بيرقدار السفينة

من الانفار

فيلبو	مايور
بليسيه	لوروا
رسكانيه	غويليون
	لبال

فهنا قد انتهت سياحة العلامة فرغوسن ورفيقيهِ الصنديدين العجيبـة الثابتة بشهادة من لا ترد شهادتهم وكانوا هناك برفقة خلاّن في بهرة قبائل اوفر انساً من تلك التي اجتازوا بها ولها علاقات كثيرة مع المحلات الافرنسية

وكان وصولهم لسنغال يوم السبت الواقع في ٢٤ ايار . وفي ٢٧ منهُ وصلوا الى محط العسكر في مدين الواقع على شاطئَ النهر نحو الشمال

وهناك استقبلهم الضباط الافرنسون بمزيد الترحاب والاعزاز وابدوا نحوهم واجبات الضيافة على ما كان في مكنتهم . فتمكن العلامة ورفيقاه من السفر بحرًا غب برهة وجيزة في بارجة يقال لها البازيليك وكانت تسير في نهر

سنغال قاصدة مصبهُ. وغب خمســة عشر يوماً اي في ١٠ حزيران بلغوا الى سان لويس حيث استقبلهم الوالي استقبــالًا فاخرًا. وقد كانوا استراحوغاية الاستراحة من اتعــابهم واهوالهم. اما يوسف فكان يجاوب من يسألهُ عن سياحتهِ : ان سياحتنا اذلّ السياحات فمن رغب بالامور المجبة لا اشير عليهِ بان يباشر مثلها. لانها تمسي في اخر الامر مملة ولولا ما صادفناهُ من الخطوب في بحيرة شاد ونهر سنغال لمتنا ضجرًا

وكانت بارجة انكليزية على اهبة السفر فركبوها وفي ٢٣ غرة حزيران بلغوا الى بورتسموت وفي اليوم التالي اقبلوا الى لندرة

فلا حاجة الى وصف الترحاب والاعزاز الذين استقبلتهم بهما الشركة الجغرافية الملوكية فان ذلك يفوق وصف الواصفين فسافر كادي في الحال الى ادنبورج ومعهُ قرابينتهُ الشهيرة فاسرع الى خادمتهِ القديمة يخبرها عن وصولهِ بالسلامة

امَّا العلامة فرغوسن ويوسف امينهُ فلم يزالا على احوالهما المعروفة الَّا انهُ قد حدث فيهما تغير لم يدريا بهِ وهو انهما قد ارتبطــا مذ ذاك بحبل الصداقة المتين

ولم تكفَّ جرائد اوربا عن نشر عبير الثناء الجميل على اولئك السوَّاح الجزيلي الشجاعة امَّا جريدة الدالي تلغراف فقد انفقت نحو ٣٧٧ الف نسخــة يوم نشرت خلاصة سياحتهم

وقد خطب العلامة فرغوسن خطبةً انيقــة في جلسة عمومية عقدتهــا الشركة الجغرافية الملوكية روى فيها قصة سياحتهِ في القبة الهوائية ونال لهُ ولرفيقيهِ نيشان الذهب المعد جائزةً لاشهر السياحات التي بوشرت سنة ١٨٦٢

فاوَّل ما حصل العلامة فرغوسن من نتائج سـياحتهِ هو انهُ قد حقق

تحقيقاً راهناً لحوادث والاكتشافات الجغرافية التي اتى بها برث وبورتون وسبيك وغيرهم

وكذلك قد قرب اليوم الذي نتمكن فيهِ من تحقيق اكتشافات العلامة فرغوسن في الاصقاع الوسيعة الواقعة ما بين الدرجة الرابعة عشر من الطول والثالثة والثلاثين منهُ وذلك سنداً على اكتشافات الساعين الان بها اي سبيك وغرنت ودي هوكاين وموزنجو بصعودهم الى ينابيع النيل وولوجهم اواسط افريقية وعليهِ لا يعود ذلك القسم الكبير من الكرة مجهولاً لدى ذوي المعارف كما كان في الايام السالفة لسوء حظ سكانهِ المنفصلين عن باقي بني آدم كأنهم ليسوا من جنسهم ولا اخوة لهم

فهرسة الكتاب

وجه

وجـه

وجـه